بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدّمة المؤلّف (جــــواد عفانـــــه) :

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى آله وصحابته والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أمّـــا بعد :

فلم يكن غروب شمس دولة الإسلام، وانهدام كيان أمته في بداية القرن العشرين مفاجئاً ولا مستهجناً، بعد ما مرّ به المسلمون من بُعدٍ عن الدين، وتفرّق واختلاف، وما فرضوه على أنفسهم منذ نهاية القرن الرابع الهجري من إغلاق باب الاجتهاد، ونبذ المنهج العلمي التجريبي، بعد نبذهم المنهج العلمي العقلي الذي جاء به القرآن الكريم، واعتمادهم الخرافة والتقليد الأعمى منهج حياة، فكان من أثر تعطيل الفكر، وإقفال العقول واتّباع الأهواء، وما يجدّ من صرعات وبدعٍ، أن دبّ التخلّف في الأمّة، وساد الجهل، فكانت النتيجة الحتميّة ما نراه هذه الأيّام من تفرّق وذلّ وفقر وأميّة فكريّة ، لا نكاد نجد لها مثيلاً عند أمّة أخرى .

وبدخول الاستعمار بلاد المسلمين واطّلاع النابهين على حضارات الدول الغربيّة، وانتشار التعليم في بلاد المسلمين، واكتشاف بعض العلماء الواعين مدى ابتعاد المسلمين عن الإسلام الحق، ومدى تنكّبهم جادّة الصواب بما غيّروه في أنفسهم من عقائد ومفاهيم، وأخلاق وسلوك، ولأجل وقف هذا الانهيار، وإعادة بناء الأمّة الإسلاميّة على أسس سليمة، لم يعد أمام العلماء المخلصين من خيار سوى الرجوع إلى القرآن الكريم ـــ مصدر

الإسلام الأوّل ـــ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والسنّة الصحيحة ـــ مصدر الإسلام الثاني ـــ بعد غربلتها، مع إطلاق العقل من عقاله ليتمكّن الناس من تدبّر كتاب الله كما أمر الله ، قال تعالى: { إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم } (الرعد ١١) فإذا قارنّا أحوال المسلمين اليوم وما هم فيه من ذلٍ وهوان وجهل، مع أحوال الصحابة رضوان الله عليهم، وما كانوا فيه من عزّة وقوّة وعلم، أدركنا مقدار الجهد والعمل المطلوب بذله لإعادة الأمور إلى نصابها، وقد انبرى لهذه المهمّة الشاقة عدد قليل من المسلمين المعاصرين، منهم من أصاب وأفاد ، ومنهم من أخطأ وأساء .

وعلى أيّة حال فلا يجوز لمسلم تكفير أخيه المسلم، أو التهويش على مسلم اجتهد فأخطأ (من وجهة نظره) ما دام ذلك المجتهد ينطق بالشهادتين، ولا يجاهر بكفر ولا عداء، ولا يضمر سوءاً للإسلام والمسلمين، وكل ما على العلماء فعله هو الردّ عليه، وبيان ضعف استدلاله، فإن كان مؤمناً مخلصاً حقاً رجع عن خطئه، وطلب من الله أن يغفر له .

أمّا ما يجري هذه الأيّام من تكفير كلّ مجتهد جاء برأي جديد ، أو تحريض الناس عليه، أو نهي الآخرين عن تداول كتبه، فأمور لا يصحّ اللجوء إليها بحال، لما يعقبها من فوضى وإثم، ولما يحمله ذلك من ظلم، وسوء ظنّ بالمسلمين، لأنّ الإيمان مكانه القلب ودليله العمل، ولا يطّلع على القلوب إلاّ ربّها، والشرع له الظاهر، واختلاف الأفهام معترف به شرعاً وعقلاً، وما

يبدو لك خطأً قد يبدو لغيرك عين الصواب، أما ترى أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم كان يعرف المنافقين بأسمائهم واحداً واحداً، معرفة يقينيّة مصدرها الوحي، ولم نره يوماً كفّر واحداً منهم، أو فضحه علناً، مع أنّهم كانوا أشدّ خطراً على الإسلام والمسلمين من المشركين والكافرين ، ولهم الدرك الأسفل من النار.

وعليه فلا يصحّ شرعاً تكفير الدكتور عبد الصبور شاهين، ولا الدكتور نصر حامد أبو زيد، على الرغم من تخطّيهما الخطوط الحمراء، وإتيانهما بما يمكن وصفه بالكفر، كما لا يصحّ شرعاً تكفير الدكتور محمد شحرور وتلاميذه من القرآنيين أمثال السيد سامر الإسلامبولي، والأستاذ إيهاب حسن عبده، وأمثالهما.

وإذا كان المذكورون قد أخطأوا في بعض ما اجتهدوا فيه لسبب أو لآخر، فالواجب على علماء المسلمين بيان أخطائهم لا تكفيرهم ، وعندي فإنّ خطر المقلّدين من السلفيين المعاصرين، والمشايخ التقليديين يفوق خطر المجتهدين المخطئين بكثير، لأنّ الإسلام جُعل للحياة، وهم جعلوه للموت، فأغلقوا عقولهم وصمّوا آذانهم، وجعل بعضهم أقوال علماء السلف المُتأخّرين المصدر الشرعي الأول، فعاشوا مع الأموات ، حتى صاروا رموزاً متحركة للتخلّف والموت تمشي على الأرض، شأنهم في ذلك شأن أصحاب القبور .

ولا يعني ذلك موت جميع المسلمين، ولا انعدام العلماء الواعين

المخلصين، فقد صرنا نرى بين الفينة والفينة ظهور علماء مجدّدين، قد فهموا المعنى الحقيقي للتجديد في الدين، وأنّه واجب حتمي، بل فرض كفاية ، يأثم جميع المسلمين إذا لم يقم به بعضهم، لأنّ الإسلام عزيز، والله لا يرضى لعباده الذل، وقد فهموا أن لا خلاص للمسلمين مما هم فيه إلاّ بالأخذ من رأس النبع الصافي، وهذا يعني أول ما يعني تنقية العقيدة ، وذلك بأخذها من القرآن الكريم وحده، مصداقاً لقوله تعالى: { وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله }(الشورى ١٠)، بما يعني رد كل أمر عقيدي جاء في أخبار الآحاد إذا لم يكن له أصلٌ في القرآن، ولو صحَّ سنده، ولو رواه من رواه، دون أدنى تردد .

أمّا الشريعة والعبادات فيمكن أخذها من القرآن والسنّة الصحيحة، وذلك لأنّ في السنّة ما يبيّن كيفيّة الصلاة وأوقاها، وكيفيّة الحج ومناسكه، وغيرها من أمور عمليّة تفصيليّة جاءت مجملة في كتاب الله الكريم، مصداقاً لقوله تعالى: { يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول...إلخ } (النساء : ٥٩).

ومعلوم أنّ الاختلاف في حكم شيء من الأمور العقديّة ممكن، لاختلاف الأفهام والأهواء والبيئات والمشارب، أمّا التنازع في العقيدة الواحدة فأمر لا واقع له، إذ لا يُعقل أن يؤمن مليار إنسان مثلاً بأن الله واحد أحد، فرد صمد، ثم يتنازع اثنان في هذا الأمر غير القابل للتنازع والاختلاف أصلاً .

أمّا الأحكام والعبادات فلأنّها ـــ لحكم يعلمها الله ـــ لم يفصّل القرآن حكم كل مسألة (بل اقتصر على الخطوط العريضة مع تفصيل الحكم في القضايا الخطيرة، ودخلتها اجتهادات الرسول والوحي غير المتلو، واجتهادات العلماء، وفق ظروفها ومناسباتها مع مرور الزمن) فالتنازع فيها ممكن .

ولا يعني ذلك مساواة القرآن (الذكر المحفوظ) بالسنّة (أخبار الآحاد) غثّها وسمينها، بل لا بـــدّ من اعتماد القرآن المصدر الأول، والسنّة الصحيحة المصدر الثاني، بعد تنقيحها وتنقيتها ممّا علق بها من إسرائيليات وخرافات وأوهام، وعدم الاكتفاء بصحّة سندها، أو بكونها رواها البخاري أو مسلم أو غيرهما للأخذ بها.

(انظر كتابي : " دور السنة في إعادة بناء الأمة ").

والتجديد الصحيح لا يكون بهدم البناء القديم، وإقامة بناء جديد مكانه بموجب مخطّطات جديدة، وإنّما يكون بترميم البناء القديم وتجديده وفق مخطّطاته الأصليّة، بعد الكشف عليه وفقه واقعه، وإصلاح الخلل في أساساته ، وهو ما نذرت نفسي للقيام به، راجياً الله جلّ ذكره أن يوفقني ويعينني على هذه المهمّة الصعبة ، وأعود إلى كتاب" أبي آدم" هذا، الذي حاول فيه مؤلفه الدكتور عبد الصبور شاهين الفصل بين البشر والإنسان، وأنّهما شيئان مختلفان، فأخفق وفشل فشلاً ذريعاً كما فشل من قبله الدكتور محمد شحرور عندما حاول الفصل بين الكتاب والقرآن، وإذا كنت قد عمدت في

ردّي على شحرور إلى نقل فقرات من كتابه والردّ عليها، فقد رأيت هنا نقل كتاب عبد الصبور شاهين كاملاً، والردّ عليه عند كل مناسبة أرى ضرورة للتعقيب أو الرد ، وجعلت كلامي يبدأ بكلمة : أقول، وجعلته بين قوسين هكذا : [أقول : ......] مع وضع خط تحته .

وغرضي من ذلك إطلاع القارئ على إيجابيات الكتاب جنباً إلى جنب مع سلبياته، إنصافاً لمؤلّفه الدكتور عبد الصبور، وعقل القارئ ، وعليه فلم أكن بحاجة إلى تقسيم الكتاب إلى فصول أو أبواب، بل أبقيته على ترتيبه الأصلي .

وقد بذلت جهدي في إظهار الحق، بحسب علمي، فإن وفقت فذلك بفضل الله تعالى ومنّه وكرمه، وإن أخطأت فمنّي ومن الشيطان ــ أعوذ بالله منه ومن شرّه ــ وقد دفعتني إلى كتابة هذا الردّ أمورٌ كثيرة، أذكر منها :

١ ــ ما رأيته وسمعته على شاشة التلفاز من عنجهيّة الدكتور عبد الصبور وخطئه، وهو يتّهم منتقديه بالجهل والجنون، خاصّة في ردّه على الشيخ البدري حفظه الله، ولا يعني ذلك أنني أتّفق مع الشيخ البدري على تكفير الدكتور عبد الصبور، لأنّه يَحرُم على المسلم تكفير أخيه المسلم ما دام ينطق بالشهادتين.

٢ ــ أداء الواجب في الدفاع عن دين الله الحق، في زمن شحّ فيه العلماء الواعون المخلصون، ولأجل الأجيال القادمة، ومعذرة إلى ربكم

٣ ــ بيان حرمة تكفير المسلمين بعضهم بعضاً(وهو أمر خطير) لمجرّد

الاختلاف في مسألة اجتهاديّة، وهو ما نراه شائعاً هذه الأيام دون خوف من الله، ولا وازع من دين ولا ضمير، وقد قال صلّى الله عليه وسلّم : " **إِذَا كَفَّرَ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا** "(رواه مسلم رقم ٩١).

وقد سميت كتابي هذا "آدم الإنسان" (أبو البشر)، وقد حرصت أن يكون ردّي علميّاً، وشاملاً ما أمكن، ليكون فيه فصل الخطاب في هذه المسألة، والله وليّ التوفيق، هو مولانا، فنعم المولى ونعم النصير .

المؤلّف

مقدمة (الدكتور عبد الصبور شاهين) :

قديماً .. قديماً .. قبل أن يخلق الزمان .. كان الله ولا شيء معه .

ثم أراد الله أن يخلق الخلق ، أو الكون ، فقال : كن ، فكان ما أراده الله زماناً ، ومكاناً .. سماوات وأرضين ، ومجرات ، ونجوماً وكواكب ، ودواب .. وما لا نعلم من الموجودات التي أنجزتها القدرة الكنيّة .

ثم أراد الله أن يوجد المخلوق العاقل المؤهل للمعرفة .. فكان الإنسان .. ولعل هذا هو المعني بما جاء في الحديث القدسي الذي حفظناه في صغرنا ، والذي يقول الله عزّ وجل فيه عن نفسه : (كنت كنــزاً مخفياً ، فأردت أن أُعرف فخلقت الخلق ، فبي عرفوني) ــ أو كما قال ..

[أقول: هذا حديث يُردُّ متناً(دراية)، علماً بأنني لم أجده في الكتب التسعة، ولا في كتاب الأحاديث القدسيّة] فأمّا الزمان والمكان فقد خلقا لتحديد ماهيّة الأشياء، وقد جعلهما الخالق سبحانه على مرتبتين : غيب وشهادة، وإذا كان عالم الغيب قد احتجب وراء أستار الزمان والمكان، لا يعلم حقائقه إلاّ موجده سبحانه ــ فإنّ عالم الشهادة يحمل في تفاصيله ملامح ما مضى من الغيب النسبي وهو أيضاً دال على وجود الخالق .. الغيب المطلق .. أو غيب الغيب ، وهكذا نرى حقيقة وجود الله في تصاريف قدرته :**{فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها}**(الروم : ٥٠) .. أي : كأننا ــ وقد احتجب عنا ذو الجلال ــ نستطيع أن نستجلي وجوده في النظر إلى آثار رحمته .. يكفينا بعض آثار هذه الرحمة لنوقن بوجوده سبحانه ، أمّا الرحمة فلا سبيل إلى النظر إليها ، لأنّها صفة من صفات الله **{الرحمن الرحيم}**، ولعل

ذلك بعض معنى الحديث : (جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل إلى الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه).

[أقول : هذا حديث صحيح سنداً، وقد جاء في مسند أحمد برقم ١١١٠٤ــ ديسك الكمبيوتر، الكتب التسعة].

إنّ كل ما في كيان الإنسان ، وواقعه ، وزمانه، ومكانه هو من آثار رحمة الله ، وحسب الإنسان أن ينظر في نفسه ليستيقن بوجود خالقه ، وليتبيّن آثار رحمته في خلقه وتسويته وتزويده بالنفخة العلويّة التي صار بها متميّزاً عن سائر المخلوقات المشاركة في الحياة الأرضيّة .

ونحن نخطئ أحياناً حين ننظر إلى الحياة فلا نرى منها غير ذواتنا.. نحن الأناسيّ فأمَّا الطير، والحيوان، والحشر، وما ضمّه عالم البحار ــ فكلّ ذلك مجرد كائنات متحرّكة، تظل تتحرّك حتى يخمدها الإنسان لينتفع بها، أو تلقى مصيرها المحتوم فتبيد، بمشهد من غطرسة الإنسان الذي يتربّع على عرش السيادة على غيره من الكائنات .. {**وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**} .

إنّ القرآن لا يشجّع النظرة المستعلية التي تحبس إدراك الإنسان داخل جدران ذاته،وهو يفتح أمام النظر الإنساني نافذة رحبة لرؤية غيره بقدر ما يرى نفسه، والله يقول:{**وما من دابّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم**} (الأنعام :٣٨) فكلّ ما خلق الله من الدواب ..كبر أم صغر، هو من الأمم التي خلقها الله، وألزمها بسنن حياتها ومصيرها، بل وعلّمها ما هي بحاجة

إليه في بقائها واستمرارها وعلاقاتها بالأمم الأخرى من الدواب، وجاءت في ذلك إشارة القرآن :{ **ألم تر أنّ الله يسبّح له من في السماوات والأرض والطير صافّات كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون**} (النور:٤١)، وهي إشارة تثبت لعوالم الطير والحشر، والحيوان..وعلى وجه الإجمال : كلّ من له حياة تثبت لها العلم والصلاة والتسبيح،وهو أمر أكّدته الآية الثالثة : {**وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم**} (الإسراء :٤٤) .

[أقول(جواد) : آيات القرآن تدلّ على تعليم الله تعالى، أو إلهامه الأشياء الصلاة والتسبيح فقط، أمّا العلم فلم يُعطه الله تعالى إلاّ للعقلاء من خلقه، وهم الملائكة والإنس والجنّ فحسب، فيما نعلم، قال تعالى :{**إنّ الله وملائكته يُصلّون على النبي يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً**} (الأحزاب : ٥٦) ، ولا دليل على أنّ البهائم والجمادات عندها علم].

ومن المعلوم أنّ أمم الحيوان والطير قد سبقت في وجودها وجود الإنسان على الأرض ، وحسبك من ذلك إشارة القرآن إلى الغراب، الذي علّم ابن آدم القاتل كيف يواري سوءة أخيه، ولكن وجود هذه الكائنات لم يشغل الإنسان، لأنّه لا يمثل في نظره مشكلة ..

فأمّا وجود الخليقة البشريّة فهو المشكلة الكبرى التي تواردت عليها الرؤى وتواترت الاجتهادات .. بدءاً من الرؤية الإسرائيليّة، وقد كانت ذات حظ عظيم من حيث انتشارها، وتفردها على الساحة الفكريّة، حتى وجدنا أكثر المفسرين للقرآن يرددون ما ذكرته الإسرائيليات ترديداً حرفيـــاً .. دون أدنى

محاولة تعرض مضمونها على العقل، وتغربل ما حفلت به من خرافات وأساطير.

وإلى القارئ جوهر القصة كما تلقيناها عن القدماء ، وكما رواها صاحب قصص الأنبياء المسمى بالعرائس (ص١٦ـــ١٧ـــ ط . شقرون) :

(قال المفسرون بألفاظ مختلفة ، ومعان متَّفقة : إن الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه الصلاة والسلام أوحى الله إلى الأرض : إني خالق منك خلقاً، منهم من يطيعني، ومنهم من يعصيني ، فمن أطاعني منهم أدخلته الجنّة ، ومن عصاني أدخلته النار ، ثم بعث إليها جبريل عليه السلام ليأتيه بقبضة من ترابها ، فلما أتاها جبريل ليقبض منها القبضة قالت له الأرض : إني أعوذ بعزّة الله الذي أرسلك أن لا تأخذ مني شيئاً يكون فيه غداً للنار نصيب ، فرجع جبريل عليه السلام إلى ربه ولم يأخذ منها شيئاً ؛ قال : يا رب ، استعاذت بك فكرهت أن أقدم عليها .

فأمر الله عزّ وجلّ ميكائيل عليه السلام فأتى الأرض فاستعاذت بالله أن يأخذ منها شيئاً، فرجع إلى ربه ، ولم يأخذ منها شيئاً .

فبعث الله تعالى ملك الموت فأتى الأرض ، فاستعاذت بالله أن يأخذ منها شيئاً ، فقال ملك الموت : وإني أعوذ بالله أن أعصي له أمراً .

[أقول: هذه رواية تُناقض القرآن، إذ من المعلوم من القرآن أنّ الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون ، فكيف يُعقل أو يُقبل أن يعود الملكان الأوّلان دون تنفيذ أمر الله ؟! بما يؤكّد أنّها رواية من الإسرائيليات كما قال الدكتور] فقبض قبضة من زواياها الأربعة .. من أديمها الأعلى، ومن سبختها ، وطينها ، وأحمرها وأسودها وأبيضها ، وسهلها وحزنها ، فكذلك

كان في ذريّة آدم الطيب والخبيث ، والصالح والطالح ، والجميل والقبيح ، ولذلك اختلفت صورهم وألوانهم، قال الله تعالى: {**ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم**} ثمّ صعد بها ملك الموت إلى الله تعالى فأمره أن يجعلها طيناً ويخمّرها، فعجنها بالماء المر والعذب والملح ، حتى جعلها طيناً ، وخمّرها [الله تعالى يقول : {**لمَا خلقتُ بيدي**}أي أنَّ الله تعالى لم يوكل ملكاً ولا غيره بخلق آدم، بل خلقه بنفسه، سبحانه] فلذلك اختلفت أخلاقهم .. ثم تركها أربعين سنة حتى صارت طيناً لازباً ليناً ، ثم تركها أربعين سنة حتى صارت صلصالاً كالفخار ، وهو الطين اليابس ، الذي إذا ضربته بيدك صلصل ... ثم جعله جسداً ، وألقاه على طريق الملائكة التي تهبط إلى السماء ، وتصعد منه أربعين سنة ، فذلك قوله تعالى : { **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً** }.

[أقول : هذه الآية لا محلّ لها هنا، فهي متعلّقة بكلِّ إنسان في طور العلقة أو المضغة، وهو في رحم أمّه، أمَّا الدليل هنا فقوله تعالى:{**أولا يذكر الإنسان أنَّا خلقناه من قبل ولم يكُ شيئاً**}(مريم:٦٧].

قال ابن عباس :" الإنسان هو آدم ، والحين أربعون سنة ، كان آدم جسداً ملقى على باب الجنّة " [أقول : هذا كلام لا سند له، فما أدرانا إن كان قاله ابن عبّاس أم أنّه مكذوب عليه ؟ ناهيك أنّ قول ابن عبّاس ليس مصدراً شرعيّاً].

وفي صحيح الترمذي بالإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسير أول البقرة: (أنّ الله خلق آدم بيده من قبضة قبضها من جميع الأرض ..

ثم ألقاه على باب الجنّة فكلّما مرّ عليه ملأ من الملائكة عجبوا من حسن صورته وطول قامته ، ولم يكونوا قبل ذلك رأوا شيئاً يشبهه من الصور ، فمر إبليس فرآه فقال : لأمرٍ ما خُلِقْتَ، ثم ضربه بيده فإذا هو أجوف ، فدخل فيه وخرج من دبره ، وقال لأصحابه الذين معه من الملائكة : هذا خلق أجوف .. لا يثبت ولا يتماسك .. إلخ) .

على هذا مضت كل كتب التفسير تقريباً ، وكأنها تنقل من مصدر واحد مع انطواء الرواية على كثير من صور السذاجة .. مثل أن يُقال : إنّ خلق آدم تمّ في السماء ، وإنّ ملك الموت هو الذي استطاع أن يأخذ التراب من الأرض وأن يعجنه ويخمّره ، فلما خلقه الله أو صوّره ألقاه على باب الجنّة ... ويستمر الكلام في هيئة (سيناريو) .. يصف لنا ما جرى في ذلكم الأزل الآدمي ، فيجعل التراب خليط من ألوان الأرض ، ليكون أبناء التراب على ألوانها المختلفة ، وخليطاً من أنواع التراب إشارة إلى تنوع الأخلاق...وهكذا ...

[أقول : أتّفق هنا مع الدكتور أنّ هذا الكلام غير مُقنع، ولا دليل عليه] .

كل ذلك مضى في الغيب، فكيف اطّلع عليه هؤلاء القصّاص من بني إسرائيل؟! وكيف سلّم العقل الإنساني لحكاياتهم بهذه البساطة؟ حتى اختصرت المسافة بين الله في ملكوته الأعلى وبين خلقه من الملائكة، والشيطان ، إلى أن جاء دور آدم ؟

إنّ كل ذلك صار يمثل أمام العقل الحديث مشكلة خطيرة ، نتيجة التصادم بين معطيات القصّة القديمة، ومعطيات العصر الحديث ، وهو ما ظلّ يخامر عقلي طيلة ربع قرن من الزمان ، أو يزيد ، في محاولة لفهم النصوص التي

جاءت في القرآن الكريم ، وهي قطعيّة ..تروي وقائع قصّة الخلق، وأيضاً للتوفيق بين التصوير القرآني ، والاتجاه العلمي في تصوير الحياة البشريّة على هذه الأرض ، ولا حرج علينا في هذا ما دمنا نرعى قداسة النصوص المنـــزّلة، وما دمنا لا نخالف معلوماً من الدين بالضرورة ، وما دمنا نقدّم رؤية عقليّة تحترم المنطق ، وتستنطق اللغة من جديد ، وتدعم إيمان المؤمنين بما ينطوي عليه كتاب الله من أسرار ، قد تكون خفيت عن بصائر ذوي التمييز، ثم أذن الله سبحانه لبعض السرّ أن ينكشف ، وللرؤية أن تنجلي وهو ما نؤمّل أن نكون قد حققناه في هذا الكتاب.[أقول : نعم هذه المسألة من المعلوم من الدين بالضرورة ، ويكفر من يُخالف فيها إذا كذّب القرآن ، أمّا من اجتهد فيها فأخطأ فيأثم، لاجتهاده في مورد النصّ المحكم، ولخطئه ، ومعلوم أنّ الخطأ حتميّ في مثل هذا الاجتهاد الممنوع شرعاً وعقلاً ، لأنّ النصّ المحكم له معنى واحد ، أي أنّه لا يقبل الاجتهاد أو التأويل بتاتاً].

ليست هذه المحاولة الوحيدة التي تناولت قصّة الخلق ، فقد شغلت القصة عقول الفلاسفة والعلماء في عصور مختلفة ، وبيئات مختلفة كذلك ، ويكفي أن نشير هنا إلى رؤية ابن طفيل قديماً في قصّته عن (حيّ بن يقظان)، كما نذكّر بنظرية (تشارلز داروين) حديثاً عن نشأة الأنواع .

[أقول : ليس من العلم أو الشرع أو العقل الإشارة أو الاستناد إلى الأساطير والنظريّات، ونحن بصدد موضوع ديني علمي، لا يصحّ الإستدلال فيه إلاّ بأدلّة قطعيّة، لها واقع حقيقي، ولا بأس أن أنوّه هنا بما جاء في كتابي:" القرآن وأوهام القراءة المعاصرة "(ص ١٨٨) ـــ الذي رددت فيه على الدكتور

محمد شحرور ـــ في هذه المسألة (مع بعض التصرُّف) تحت عنوان : "خلق الإنسان" :

يقول المؤلّف (الدكتور محمد شحرور) : بدأت الحياة من نطفة واحدة خليّة وتطوّرت بعمليّة جدليّة أدّت باستمرار إلى تغيّر الشكل حتى ظهر البشر غير العاقل، ثمّ الإنسان العاقل، وهذا ما وضّحه قوله تعالى :{**وفي خلقكم وما يبثّ من دابة آيات لقوم يؤمنون**} (الجاثية: ٤).

أقول(جواد) : كيف يمكن فهم هذا والمؤلّف يناقض نفسه في كلّ مرّة تقريباً ؟ أليس هو من قال في بداية كتابه : لا ترادف في اللغة ؟ فكيف يمرّ على هذه الآية دون التوقّف عند فصله تعالى بين خلق البشر وبثّ الدواب ؟! ناهيك عن واو العطف في "وما" والعطف يُفيد التغاير،"وفي خلقكم وما يبثّ من دابة" هل يُفهم منها بثّ البشر من الدواب أو مع الدواب ؟ قطعاً لا ، لأنّ الله تعالى قال : "وفي خلقكم" أي أيّها البشر ـــ يا بني الإنسان ـــ يا بني آدم ، ثمّ قال : "وما يبثّ من دابة" والعطف يدلُّ على المُغايرة، ليميّز بين نوعين من مخلوقاته الحيّة ـــ النوع العاقل (الإنسان) والنوع غير العاقل (الدواب) ـــ وفي اعتقادي فإنّ هذه الآية وحدها تكفي لرد قانون التطوّر والارتقاء المزعوم ، وبيان فساده لأنّ قوله:"وما يبثّ من دابة" فيه تمييز بين أنواع كثيرة مختلفة من الدواب كلّها من بثّ الله، وذلك يؤكّد تمايزها، وهو ما أثبته العلم مؤخّراً من أنّ كل فصيلة حيوانيّة أو نباتيّة ما هي إلاّ أمّة أمثالكم، فالنمل أمّة، والنحل أمّة، والطير أمم ..إلخ. وكلّ أمّة لها خواصّها وصفاتها الوراثيّة الثابتة، منذ خلقها الله على الأرض حتى قيام الساعة، وكل ما عدا هذا الفهم باطل.

أمّا آخر أخبار نظريّة داروين هذه فهي : "حصل عالمان على جائزة نوبل للعام ١٩٩٣م لأبحاثهما في فصل الجينات(الهندسة الجينيَّة) وكشفهما أنَّ لكل نوع من المخلوفات الحيَّة حمض نووي مُختلف وخاص ، وقد هدم ذلك نظريّة النشوء والارتقاء ، وأبطلها إلى الأبد].

وأول ما اعترض ابن طفيل من المشكلات : (مشكلة خلق الإنسان ، أو كيف ظهر أول إنسان على وجه الأرض) .. يقول الأستاذ أحمد أمين في كتابه (حي بن يقظان ــ ص٢٣ ــ ط . دار المعارف) عن ابن طفيل : (إنه لم يكن يعرف بالضرورة رأي داروين الذي يرى أنّ أنواع المخلوقات متصل بعضها ببعض ، وأن ليس الإنسان إلاّ حلقة من هذه السلسلة.. سبقته حلقات أخرى، إلى أن انتهت بالإنسان.

[أقول : نظريّة داروين انهارت وبان عوارها، وهذا أمر لا يُخالف فيه الدكتور عبد الصبور ، والقول " بأنّ الإنسان ما هو إلاّ حلقة من سلسلة سبقته حلقات أخرى، إلى أن انتهت بالإنسان"، لا دليل عليه، بل هو نوع سفسطة ، وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى لاحقاً] .

أمّا عند ابن طفيل فرأيان .. كل منهما يمكن أن يكون .. الأول : أنّه نشأ في جزيرة من جزر الهند ، تحت خط الإستواء ، تولّد فيها الإنسان من غير أم ولا أب ، لأن تلك الجزيرة أعدل بقاع الأرض هواءً وأتمّها، لشروق النّور الأعلى عليها استعداداً، فتأثرت هذه الجزيرة بأشعة الشمس، وتخمّرت الطينة الصالحة على مرِّ السنين والأعوام ، وامتزجت القوى ، وتعددت وتكافأت . وهذا ما ذهب إليه بعض الفلاسفة من جواز التولّد الذاتي الطبيعي . ويرى ابن

طفيل رأياً آخر : أنّ حيّ بن يقظان لم يتولّد من غير أب ولا أم ، وإنّما ولد من أب وأم ، وكانت أمه هي أخت الملك ، خافت من الملك فقذفته في اليمّ، وجرفه المدُّ إلى جزيرة أخرى حيث التقطته ظبية كانت قد فقدت ابنها ، فحنت عليه ، وألقمته حلمتها ،وأرضعته لبناً سائغاً حتى ترعرع. فهذان الرأيان يمثلان رأي الفلاسفة القدماء ، فبعضهم يرى إمكان التولد الذاتي إذا اعتدلت الطبيعة ، وتم الاستعداد من تخمر ونحوه ،وبعضهم يرى أنّ الإنسان لا يمكن أن يتولد إلاّ من إنسان) .

ويستطرد الأستاذ أحمد أمين استكمال رحلة (حي بن يقظان) فيقول : (إنه حنا على الظبية ، لأنّها أرضعته لبنها ، وعطف عليها كما يعطف على أمه وما زال مع الظباء على هذه الحال ، يحكي نغمتها بصوته ، ويحكي ما يسمع من أصوات الطير ، وأنواع سائر الحيوان .. يحاكيها في الاستئلاف ، والاستدعاء ، والاستدفاع .

ولما قلدها في هذه الأصوات المختلفة باختلاف هذه الأنواع ألفته وألفها..) وبذلك تعلّم الإنسان من تقليد الحيوانات والطيور...إلخ .

ومن الواضح أنّ ابن طفيل في رأيه الأوّل استخرج الإنسان من الطين المخمّر، وهو ما ذكره القرآن في خلق البشر : **{من صلصال من حمأ مسنون}**.

واستولده في تصوره الثاني من أب وأمّ، على ما سنرى من وجود الإنسان وهو ما لا يمكن أن يتصوّر في وجود الخلق الأوّل ، وافترض أنّ أصل اللغة هو تقليد الإنسان لما حوله من أصوات طبيعيّة أو حيوانيّة أو طيريّة .. وهو أمر

ليس بعيداً عما يقول به الآن كثيرون من علماء اللغة ، ولا جديد لابن طفيل إلاّ في صوغ قصة الظبية، وتصور علاقتها بالطفل(حيّ) وقد أخذوا قصتهم عن (روبنسون كروزو) الذي ألقت به الأمواج إلى جزيرة مهجورة، وهناك نشأ وتعامل مع الكائنات تبعاً لحاجاته وضروراته ، وليس روبنسون هذا سوى حي بن يقظان.

[أقول : هذا كلام روايات لا علاقة له بالعلم ، ولا عبرة به]

لقد كان جلّ اعتمادنا في عرض قصة الخليقة على استنطاق آيات القرآن ، باعتباره المصدر الأول والأوثق الذي ينبغي اعتماده في هذا المجال ، واستعنّا بقليل من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما ساعدنا على جلاء المعنى القرآني ، وكان التزامنا دائماً بإقرار جملة من المبادئ الأساسيّة التي تقوم عليها القصّة ، وهي :

الأرضية : فحياة آدم وموته، وما وقع بينهما ..كل ذلك من وقائع الأرض وأحداثها.. تسليماً بحقيقة قررها القرآن في هذا الصدد في آيات كثيرة، مثل قوله تعالى : {**والله أنبتكم من الأرض نباتاً**} ، وقوله : { **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** } .

الترابية : فقد خلق الله الخلق من التراب الأرضي ، وعناصره المعروفة .. لا فرق في ذلك بين مؤمن وكافر ، ورجل وامرأة ، وهو ما قررته آيات كثيرة من مثل قوله : { **إنا خلقناكم من تراب** }، وقوله : { **أكفرت بالذي خلقك من تراب** }، وقوله : {**إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**}.

البشرية : وهي حقيقة بدأ بها وجود الإنسان، كما تقرّر في خطاب الله سبحانه للملائكة .. قال : { **إني خالقٌ بشراً من طين** }، وقد كان البشر في نظرنا نقطة البدء في وجود الإنسان الذي خلق من سلالة من طين .

[أقول : الحقيقة القرآنيَّة تقول: بدأ الله خلق أبو البشر (آدم) الإنسان من طين، بل خلقه من سلالة من طين، ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين] .

الربّانية : بما ميّز الله به الإنسان من النفخ فيه من روحه .. { **ونفخت فيه من روحي**}، وبما طلب منه أن يُحقق الربانية بإخلاص العبوديّة لوجهه سبحانه : {**وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون**}، و{ **ولكن كونوا ربانيين**} ، ولهذه الربانيّة أبعاد في حياة الإنسان لا نهاية لها .

وهذا هو ما يُلخص حقيقة الإنسان وتعريفه بالاعتبار الوجودي والعلوي فهو: (مخلوق أرضي ترابي بشري ربّاني)، أمّا كونه (حيواناً ناطقاً) فذلك هو التعريف الذي وضعه المناطقة باعتباره ضمن حركة الحياة متميزاً عن غيره من المتحركات الأرضيّة [لا يصح حشر الإنسان مع الحيوانات رغم اشتراكه معها في صفة الحياة]

فإذا كان الذين فكروا في هذه القصة متّفقين على هذه المبادئ الأساسيّة ؛ فإنّ اختلافهم لن يعدو أحياناً بعض التفاصيل التي لا يضر مثلها في تصور الإطار العام للقصة، وإن كانت هناك تفاصيل أخرى لم يتطرّق إلى مناقشتها السابقون .. تفرّد هذا العمل بمناقشتها ، واستخراج نتائج حاسمة منها .. أرجو أن يرضاها القارئ الذي يتتبع خيوطها.

وهنا قصّة لا بدّ من تسجيلها ؛ فقد تفضل الصديق الكريم الأستاذ

الدكتور محمد هيثم الخياط ـــ عضو مجمع اللغة العربيّة في الوطن العربي ـــ بإهدائي نسخة مصوّرة من كتاب بعنوان: (آدم عليه الصلاة والسلام) من تأليف الأستاذ بشير التركي .. أحد علماء تونس ، وكان الدكتور هيثم قد حضر الدرس الحسني الذي ألقيته بين يدي جلالة الملك الحسن الثاني في رمضان ١٤١٧هـــ عن (رؤية في قصّة الخليقة) وتذكر أنّه رأى قبل ذلك كتاباً في الموضوع في تونس لأحد المفكرين المجتهدين ، فطلبه فلم يجده في المكتبات ، ولكنه عثر على نسخة منه عند أحد أصدقائه ، فصوّر النسخة ، وتفضّل بإرسالها إلي ـــ جزاه الله كل خير ـــ فقد شعرت عند تسلمي رسالة الصديق أنَّ العلم رحم بين أهله، وهو ـــ أكرمه الله ـــ قد وصل بذلك تلك الرحم ، وأهدى إلي قدراً من المعرفة كنت بحاجة إلى مطالعته .

غير أنّي لم أجد مناسبة لإقحام آراء الأستاذ التركي في معالجتي للجانب العلمي من المشكلة، فقد كنت انتهيت فعلاً من رقمها على (الكمتور) ، ورأيت أن أقدّم في هذه المقدّمة خلاصة لما جاء عنده في هذا الصدد .. وفاء بالواجب العلمي ، وعرفاناً بفضل الدكتور هيثم الخياط ، وإلى القارئ موجزاً لما جاء في الكتاب :

"لقد ربط المؤلف معالجته لقصة آدم برأي له في بلدة (المهدية) ، وهي مدينة على الشاطئ الشرقي التونسي ، وهي مركز سهل أرضي شاسع جداً ، فعمق البحر في شرقها لا يبلغ مائة متر ، على بعد مائة وخمسين كيلو متراً ، وقد ذكر المؤلف وصفاً تفصيلياً للمهدية يرشحها لتكون منشأ الحياة البشرية منذ ملايين السنين (ص١٣)، ثم ذكر في نفس الصفحة أنّه (بعد أن انقرض

البشر خلق الله آدم في الجنة ، ثم أنزله على الأرض يحمل السبع المثاني ، وهو الرصيد الوراثي المادي ، وهو المقصود من قوله تعالى :{ **ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم** }.

[أقول : معلوم أنّ المخاطب بهذه الآية هو النبي محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم ، فهو من البشر ، أي من نسل آدم أولهم وأبوهم ، والقول بانقراض البشر قبله يتناقض مع محكم القرآن ، التفاصيل تتبع..] .

والذي نلاحظه هنا أنّه فصل بين آدم والبشر ، فوجود آدم كان بعد انقراض البشر، ولا ملاحظة لنا على ارتباط آدم بالسبع المثاني، فللمؤلف رأيه الذي يؤمن به.

وذكر في ص ٦٤ : أهم الموجات البشريّة ، وهي أربع :

الأولى : من أربعة مليارات إلى مليار من السنين ، وهي فترة عاش خلالها بشر يسمى (بشر الجنوب) (الأسترالوبتيك)، ويمتاز بأنه أول من صنع الآلات الحجرية، حين استطاع ان يحرك إبهامه في مواجهة الأصابع الأربع ، خلافا" لغيره من الحيوانات ، فاستطاع القبض على الأشياء .

[أقول : لم أكن أريد التعليق على كلام وآراء الأستاذ التركي غير العلميّة هذه لولا ما أعتقد وجوده من خطأ في قوله :"من أربعة مليارات إلى مليار من السنين " إذ ربما قصد من أربعة ملايين إلى مليون من السنين ، ويؤكّد ذلك ما جاء في الفقرة التالية ، ونزوله من مليار إلى مائة وخمسين ألف سنة ، إذ الفرق شاسع جداً ، ولو قال : من مليون بدلاً من مليار(ألف مليون) إلى مائة وخمسين ألف سنة، لكان ذلك أقرب إلى المنطق العلمي المعقول ، وحتى قوله

بوجود بشر على الأرض صنعوا آلات حجريّة قبل أربعة ملايين سنة فهو أقرب إلى الخرافة منه إلى الحقيقة، إذ لا دليل على أنّ المخلوقات التي عاشت على الأرض قبل آدم صنعت آلات حجريّة].

والثانية : من مليار إلى مائة وخمسين ألف سنة ، وعاش خلالها جيل البتكانيروت أو البشر القرد ، وكان منتصب القامة ، وهو البشر الواقف، وهو الذي اهتدى إلى النار .

[أقول : كلمة "بشر" لا واقع لها هنا ، لأنّ القرد لا ينطبق عليه معنى كلمة "بشر" لغة ولا شرعاً، فآدم الذي خلقه الله بيديه (بنفسه) هو أول بشر درج على الأرض، وكلام المُؤلِّف هنا لا دليل عليه].

والثالثة : من مائة وخمسين إلى أربعين ألف سنة، وقد عاش خلالها الإنسان النياندرتال ، وهو بشر الشّعور ، وفي نهاية عهده كان (آدم) الذي علمه الله الأسماء ، فهو يتصوّر الأشياء ، ويرمز لها بالكلام ، وتلك هي البداية الثقافيّة ، التي غرز الله مكوناها في فطرته ، وجعلها في خلاياه الوراثيّة.

[أقول : جميع الأقوام أو المخلوقات ــ قريبة الشبه بالإنسان ــ التي عاشت على الأرض قبل آدم عليه السلام لم تكن عاقلة ولا مكلّفة ، بل كانت أمماً همجيّة متوحشة ، لا تعرف سوى الإفساد في الأرض وسفك الدماء ، وهو ما فهمناه من قول الملائكة، بما خبروه من قبل:{**أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء**}؟ وإطلاق اسم "البشر" على تلك المخلوقات التي هي أيضاً من أصلٍ طيني يناقض ما جاء في القرآن الكريم، من اطلاق اسم "البشر" على الرسل والأنبياء وأبناء آدم عموماً].

والرّابعة : من أربعين ألف سنة حتى الآن، وقد عاش فيها الإنسان (الهوموسايبيتر)، أو الإنسان العارف ، وهو الذي اهتدى إلى الكتابة .

ويسوق المؤلف حديثه بما يوحي بالتغاير بين الموجات الأربع ، وهو ـــ كما سوف يلاحظ القارئْ ـــ مخالف لما أكدناه خلال بحثنا من أن : المشروع الخلقي كان واحداً .. منذ قال سبحانه للملائكة :{ **إنّي خالق بشراً من طين** } إلى يوم النّاس هذا ، وأنّ هذا البشر قد مرّ في مراحل من (التسوية ، ونفخ الرّوح الإلهي) .. في مراحل متدرجة من حيث النضج ، وهو ما اختلفت به هويّات الأجيال ، وكل ذلك في إطار المرحلة البشريّة إلى أن كان (آدم) أول الإنسان الأول ، الذي اصطفاه الله نبيّاً ، فكان أبا الإنسان ـــ لا أبا البشر كما سيأتي.

[أقول : سوف أردّ على هذه المغالطات عند بيان حقيقة خلق آدم ـــ أبو البشرـــ عليه السلام لاحقاً ، إن شاء الله تعالى]

أمّا تقسيمات هذه المراحل أو الموجات فهو مما تختلف فيه أرآء العلماء، ومذاهبهم، ولكل وجهة ...

هذا هو ملخص ما كتبه الأستاذ بشير التركي خاصّاً بقصة آدم ، وبقية الكتاب بحث عن مناسبة بلدة (المهديّة) لتكون منشأ للخليقة منذ كانت .

وبعد ؛ فإنّ الموضوع خطير .. مثير ، وهو يحتاج إلى أن يُقرأ بمزيد من التأمل والهدوء ، دون خضوع للأفكار المتوارثة ، والحكايات القديمة ، فأخطر شيء هو أن يقرأ المرء نصاً معيناً ، ثم يهب معترضاً في تلقائيّة بعيدة عن التفكير المتعمّق ، فالغاية دائماً هي الوصول إلى ما هو حق ، وعقل ... إن شاء الله .

وإذا كانت كتابة هذا البحث قد استغرقت خمسة وعشرين عاماً ، أو تزيد فإن بضع ساعات تنفق في قراءته لا تكفي للتحاور معه ، ومناقشته ، للخروج من المأزق العقلي والثقافي التي جرّتنا إليه الإسرائيليّات .

إنَّ هذا البحث قائم على ركيزة الآيات المنـــزلة ..وهو لم يخرج قيد أنملة عن المعنى القرآني .. وهو لا يتناقض في نتائجه مع أيّ حديث صحيح في السنة المحمديّة .. أكان ذلك نصّاً أم تأويلاً. والهدف هو انتزاع العقل المسلم من براثن النقول الإسرائيليّة المحشوة بالخرافات المنافية لكل ما هو عقل وعلم ، ونور .[أقول : هذا هدف نبيل، وهو كلام يُحسب للدكتور عبد الصبور شاهين، وقد أخطأ الذين رووا تلك الإسرائيليات في كتب الحديث، وأخطأ من رجع إليها من المُفسّرين والفقهاء، ولا يعني ذلك موافقتي الدكتور عبد الصبور في هذه المسألة، أنظركتابي : "دور السنّة في إعادة بناء الأمّة"].

فـ ﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ ﴾ (الإسراء: ١٥)

و ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٦ ﴾ (المائدة:١٥، ١٦)

الباب الأول

القصَّة بين العقل والنقل

الفصـــل الأول

القصة والإسرائيليات

قصة الخلق ـــ كما أوردها القرآن الكريم ـــ مليئة بالكثير من الأسرار الخفيَّة ، والمعاني الظاهرة ، وقد تناولها المفسرون والمصنفون من زاوية أو أخرى ، وتشابهت محاولات القدماء، حين أخذ بعضهم عن بعض ، وحين جاء العصر الحديث بمعطياته الكثيرة في مجالات علم الأرض (الجيولوجيا) والإنسان (الأنثروبولوجيا) وعلوم الحياة، والأحياء (البيولوجيا) وغيرها ـــ تغيرت مفاهيم كثيرة ، وصار لزاماً على من يتصدّى لكتابة شيء عن هذه القصة أن يأخذ في اعتباره ما كشف عنه العلم الحديث من حقائق، وما قال به من نظريات.[أقول: العلم والحقائق...نعم، أمَّا النظريّات والتخمينات..فلا، وألف لا]، حتى لا يبدو متخلفاً عن موكب المعرفة المعاصرة، وذلك على الرغم من أنّ الذين حاولوا الكتابة في هذه القصة حديثاً تعاملوا معها من منطلق المسلمات القديمة، أو بمنطق اللامساس والتوفيق الحذر.

[أقول : لو اطّلع الدكتور عبد الصبور على ردّي على الدكتور محمد شحرور في كتابي:"القرآن وأوهام القراءة المعاصرة" الذي صدر عام ١٩٩٤م، وأجازه الأزهر الشريف ، لربّما كان تريّث قليلاً، أو وفّر على نفسه وعلى المسلمين هذه المعاناة، ولم يخاطر بإصدار كتابه هذا، وما يحويه من أباطيل، زادت في تشويش وبلبلة أفكار المسلمين]

إنّ هذه القصة كما وردت في القرآن الكريم تحتمل الكثير من التأويلات .

[أقول: ليس ذلك بحق، لأنّ قصّة خلق آدم نزلت في آيات محكمات لها معنى واحد فقط]، وهي حافلة بالإيماءات والإشارات ذات الدلالة التاريخيّة والزمنيّة ، ونحن هنا نستخدم المصطلح (التاريخ) بالمفهوم العام ، الذي يشمل كل ما مضى من الزمان ، محدداً كان أو غير محدد ، أي : التاريخ وما قبل التاريخ ، منذ كان الزمان بأمر الله التكويني (كن) فكان ... ولا معقب ..

[أقول: الدكتور هنا يعترف بكن فيكون، إلاّ أنّه لم يفسّرها، ولم يعطها حقّها أثناء بحثه ، بل مرّ عليها كأنّها لم تكن ، ولننظر ما يعنيه قوله تعالى : **{كن فيكون}**؛ قال تعالى: **{إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون}** (يس:٨٢)، يقول الزمخشري في الكشّاف (ج٣، ص٣٣٢) : "(إنّما أمره) إنّما شأنه (إذا أراد شيئاً) إذا دعاه داعي حكمة إلى تكوينه ولا صارف (أن يقول له كن) أن يكوّنه من غير توقّف (فيكون) فيحدث : أي فهو كائن موجود لا محالة."

ويُفهم من هذه الآية المحكمة صراحة أنّ ذلك الشيء يكون كما أراده الله فور الانتهاء من إلقاء ذلك الأمر مباشرة، وهو ما عبّر عنه بعضهم بحدوثه بين الكاف والنون، وخير ما يعيننا على فهم حقيقة ما تعنيه هذه الآية هو القرآن نفسه ، قال الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام : **{ أنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله}**(آل عمران : ٤٩) ، فهذا نبيّ الله عيسى (عليه السلام) كانت إحدى معجزاته أن يخلق (يصنع) تمثالاً من الطين على هيئة طير ، وبمجرّد أن ينفخ فيه يكون طيراً حقيقياً بإذن الله .

تُرى كم مرة قام عيسى عليه السلام بعمل تلك المعجزة في حياته، وهو يدعو قومه إلى دين الله؟ وكم من الوقت احتاج في كلّ مرة ؟ معلوم أنّه كان

يقضي بعض الوقت في صنع جسم الطائر من الطين، لكن ذلك الوقت لم يكن ليتجاوز ساعة من الزمن أو بضع ساعات، وتلك بدهيّة لأنّه كان يحدث أمام الناس (خلق الطير من الطين وإحيائه كان يتمّ في مشهد واحد)، ومجيء حرف العطف: الفاء بعد النفخ في الطين الذي يدلّ (لغة) على الترتيب والتعقيب دون تراخ، أكبر دليل على عدم وجود مدّة زمنيّة تُذكر بين النفخ والحياة، فإذا كان هذا حال عيسى الإنسان الذي يخلق بإذن الله، فما بالك والخالق هو الله نفسه، الذي له المثل الأعلى؟! وإذا ربطنا بين هذه الآية وقوله تعالى : {**إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون**}(آل عمران:٥٩ـ ٦٠) علمنا يقيناً أنّ آدم الصلصالي قد استحال بشراً حيّاً بعد تسويته وأمر الله له بقوله :"كن" مباشرة، دون أيّة مدّة زمنيّة تُذكر، في حين يظهر لنا من استخدام أداة الترتيب مع التراخي:"ثم" بعد كلمة "تراب" أنّ جسد آدم الطيني قد استغرق خلقه وتشكيله بعض الوقت مصداقاً لقوله تعالى :{**من سلالة من طين**}أي:(طين، طين لازب، صلصال من حمإ مسنون، وأخيراً من صلصال كالفخّار) فالله تعالى قد سوّى آدم، ونفخ فيه من روحه، وقال له :"كن" فكان في مشهد واحد بحضرة الملائكة الذين كانوا قد أمروا بالسجود لآدم فور تمام خلقه، وقد كان لله ما أراد :{**فسجد الملائكة كلّهم أجمعون إلاّ إبليس..**} الآية، وهذه النصوص صريحة في تكذيب وردّ ما زعمه الدكتور عبد الصبور شاهين هنا].

إنّ نظرة القدماء إلى القصة قد تأثرت بالتصور الإسرائيلي لها ، وهو الوارد في سفر التكوين ، حيث يختزل الزمان كله إلى أقل من ثلاثة آلاف سنة

تستغرق عشرين جيلاً هم المسافة بين آدم وإبراهيم ، وقد انقسمت سلسلة النسب إلى مجموعتين :

الأولى : بين آدم ونوح (وهي عشرة أجيال) .

الثانية : بين نوح وإبراهيم (وهي عشرة أجيال أيضاً) .

مع ملاحظة أنّ سياق النص يوحي بأن الأجيال العشرة الأولى قد بادت بسبب الطوفان ، ثم بدأت الإنسانية جولتها الثانية من سلالة نوح الأب الثاني لها ، من خلال أولاده الثلاثة : سام وحام ويافث (ارجع إلى سفر التكوين ــ العهد القديم) ومع ملاحظة أخرى هي : أنّ العمر الذي عاشه آدم ــ مثلاً ــ يصل في تقدير العهد القديم إلى حدود الجيل التاسع تقريباً، أي : قبل نوح بجيل واحد .

[أقول : لا يصحّ شرعاً الرجوع إلى كتب أهل الكتاب، ولا الرواية عنهم، وقد ثبت أنّ الحديث :"وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" قد رُوي عن أبي هريرة بثلاثة طرق، جميعها ضعيفة سنداً، وقد قام أحدهم بتزييف متن حديث في صحيح البخاري بأن استبدل فيه قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "وحدّثوا عنّي ولا حرج" بالحديث الضعيف أعلاه ، الذي نُسب إلى أبي هريرة ولا يخفى ما تسبَّب الأخذ بذلك الحديث المكذوب من دخول الإسرائيليات إلى كتب التفسير (أنظر كتابي:" دور السنّة في إعادة بناء الأمّة")].

لسنا هنا بصدد مناقشة معلومات العهد القديم ونقدها، فهي ذات طابع أسطوري غالباً، ولا دليل على خطئها أو صوابها ، سواء في الأسماء أو الأرقام ، وإن كانت إلى الإحالة وعدم التصديق أقرب .

ولكن الملاحظ أنّ أصحاب السير قد اعتمدوها من قبيل المسلمات ، فكرّروها دون أدنى مناقشة، أو حتى توقف، وهذا هو ابن هشام في سيرته يذكر نسب النبي صلى الله عليه وسلّم، فيصل به إلى آدم عبر سلسلة العهد القديم، فإذا بالنبي من الجيل الخمسين بعد آدم، أي : إنّ المدة من آدم إلى محمد ــ ثم إلى زماننا هذا ــ لا تزيد عن سبعة آلاف عام، هي كل ما مضى من عمر البشريّة، وهو تقدير لا يتفق مع التقديرات القائمة على الرؤية العلميّة، التي تقرّب ولا تحدد.[أقول : وأنا أتفق مع الدكتور بأنّ هذه المدد تخمينيّة، ولا دليل عليها من كتاب ولا سنّة].

وحسبنا أن ننظر في تعليق محقق السيرة الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد على ما ذكره ابن هشام من نسب الرسول صلى الله عليه وسلم : (رُوي عن عروة بن الزبير أنّه قال : ما وجدنا أحداً يعرف ما بين عدنان وإسماعيل) ..

ورُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : (إنما ننتسب إلى عدنان ، وما فوق ذلك لا ندري ما هو) ، وقد صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال ــ لما بلغ عدنان : (كذب النسابون) مرتين أو ثلاثاً .

وقد كره مالك وجماعة من العلماء أن يرفع الرجل نسبه إلى أباه [آدم]، من قِبَل أنّ هذا كلّه من باب التخرُّص والظنون، التي لا يمكن أن يوثق بها [1] .

ويلفت النظر في هذا التعليق الرواية عن ابن عباس (أنّ بين عدنان وإسماعيل ثلاثين أباً لا يعرفون) .. أي ثلاثين جيلاً ، تستغرق في المتوسط

---

[1] سيرة ابن هشام جــ١ ص١ .

ثلاثة آلاف سنة على الأقل .

فإذا رجعنا إلى حساب التاريخ للمدة من إبراهيم حتى الآن وجدناها تقترب من أربعة آلاف سنة ، وهي مدة تختلف تماماً مع ظنون النسابين ، الأمر الذي يجعلنا لا نعول كثيراً على رواية الأنساب ولا على مصادرهم الكتابية .

الفصل الثاني

النظرة العلميّة

أمّا النظرة العلمية إلى هذه المسألة فإنّها تضعنا في قلب تصور آخر ، تحسب أبعاده بمئات الألوف .. بل بمئات الملايين من السنين ، وقد جاء في موسوعة الثقافة العلميّة (صفحة ٤١٧ ــ ٤١٨) أسماء العصور الجيولوجيّة ، وآمادها الزمنية ، وهي عصور مرت بكوكب الأرض ، وقسمت إلى حقب ، بحسب معالمها السائدة ــ كما أقرّها العلماء :

حقبة الحياة العتيقة :

حقبة ما قبل الكمبري	٧١,١٢٥,٠٠٠,٠٠٠	سنة
حقبة الكمبري	٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠	سنة
حقبة الأردوفيشي	٣٧٥,٠٠٠,٠٠٠	سنة
حقبة السيلوري	٣٣٥,٠٠٠,٠٠٠	سنة
حقبة الديفوني	٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠	سنة
حقبة الكربوني	٢٥٠,٠٠٠,٠٠٠	سنة
حقبة البرمي	٢٠٥,٠٠٠,٠٠٠	سنة

حقبة الحياة المتوسطة :

حقبة الطراياسي	١٧٠,٠٠٠,٠٠٠	سنة
حقبة الجوري	١٣٥,٠٠٠,٠٠٠	سنة
حقبة الطباشيري	٩٥,٠٠٠,٠٠٠	سنة

حقبة الحياة الحديثة :

حقبة الباليوسيني	٨٠,٠٠٠,٠٠٠	سنة
حقبو الأيوسين	٥٠,٠٠٠,٠٠٠	سنة
حقبة الأوليجوسين	٤٢,٠٠٠,٠٠	سنة
حقبة الميوسين	٢٥,٠٠٠,٠٠٠	سنة
حقبة البليوسين	٨,٠٠٠,٠٠٠	سنة
حقبة البلايستوسين	٥٠٠,٠٠٠	سنة

[أقول : هذه الأرقام مجرّد تخمينات وتقديرات لم يُقرّها العلم بعد، لذلك لا عبرة بها] وكل هذه الحقب يعتبر وجود الإنسان فيها غامضاً ، ويمكن أن نتصور وجوده في شكل مخلوق فطري (خام) كالحيوان، يستخلص إدراكات شتى من الأحاسيس المختلطة التي لا تحصى [1].

[أقول: هذه الحقبات لم يكن للإنسان فيها وجود، وكل ما نعرفه عن الديناصورات (مثلاً) أنّها عاشت على الأرض زمناً، ثمّ انقرضت قبل انتهاء حقبة الحياة الحديثة هذه]

حقبة الحياة الأخيرة :

الدور الأخير ، دون تأريخ أو تقدير، وهو دور انحسار الجليد ، وقد شهد نباتات منـــزرعة، وهي حقبة الإنسان الهوموسابيتر، أو الإنسان المفكّر .

ومن الواضح أننا طبقاً لهذه المعلومات أمام أزمان متطاولة تحسب كما

---

[1] اللغة ــ فندريس / ١٢ .

نرى بعشرات المليارات من السنين، فقد بدأت حقبة الحياة العتيقة بمرحلة ما قبل الكمبري أي : منذ واحد وسبعين ملياراً وخمسة وعشرين مليوناً من السنين، فهو أطول العصور أو الحقب وأقدمها على الإطلاق في تقدير العلماء .

وبدأت حقبة الحياة المتوسطة بالعصر الطراياسي، منذ مائة وسبعين مليوناً من السنين .

وبدأت حقبة الحياة الحديثة مع بداية العصر الباليوسيني منذ ثمانين مليوناً من السنين، وتأتي مرحلة حاسمة ضمن هذه الحقبة ، هي حقبة الحياة في العصر البلايستوسيني ، وتقدر بدايتها منذ خمسمائة ألف سنة ، طبقاً لمعلومات موسوعة الثقافة العلميّة .[أقول : على الرغم من أنّ هذه الحقبات الزمنيّة لا تهمنا في شيء ، لأنّها سبقت خلق آدم أبو البشر، إلاّ أنّه لا بدّ من بيان أنّ معلومات موسوعة الثقافة العلميّة ليست كلّها علميّة ، ولا كلّها يقينيّة].

فإذا رجعنا إلى كتاب (صور من حياة ما قبل التاريخ) للمؤلفين : الأستاذ الدكتور زغلول النجار ، والأستاذ أحمد داود ــ وجدناه في (صفحة ١٤٦) يقرر أن فترات الجليد في عهد البلايستوسين دامت حوالي ستمائة ألف سنة، في فترات ثلاث : مائة ألف ، ثلاثمائة ألف، ثم مائتي ألف ، فصلت بعضها عن بعض فترات أخرى تميّزت بانحسار الزحف الجليدي ، وعندما كان الجليد ينحسر من فوق سطح الأرض كانت تكسى بغطاء خضري مزدهر، وهكذا... وقد شهد ذلك العصر ظهور النباتات والغابات ، كما ظهرت الحيوانات اللافقارية في البحار ، وانتشرت أنواع من القواقع الأرضية .

كما ظهرت بعض الحيوانات الفقاريّة من الثديات، ومنها حيوان الرنة،

والثعلب القطبي ، وانتشر بقر البحر في الأنهار ، ومرحت الأسود والضباع في الغابات ، وانتشرت الدببة في الكهوف ، وبعض الحيوانات المنقرضة ، كذلك الفيل الضخم الذي يطلق عليه (الماموث) ، وحيوان الميجاثيريوم والجلبتودون والديناصورات . وظهرت في ذلك العصر الفيلة والأحصنة والثيران بكثرة ، مع شيء من الاختلاف عما ظهر في حقبة الباليوسين ، أي : منذ تسعين مليون سنة ، والحقبة التالية لها ، وهي (الميوسين) منذ خمسة وعشرين مليون سنة ، وهي الحقبة التي شهدت ظهور بعض أنواع الطيور، كالبجع وبداية طائر البطريق ، وطيور الماء التي تشبه (أبو قردان) في العصر الحديث وغيرها ، وانتشرت الخراتيت ، والغزلان والزراف وبعض الكلاب والدببة والنسانيس والقردة، وبعض الحيوانات المفترسة كالنمور ذوات الناب .. بل إنّ العلماء السوفييت عثروا على سمكة ضخمة متحجرة في باطن الأرض ، عند مدينة خاركوف ، حددوا عمرها بأنه حوالي ثلاثين مليون سنة ، وغرابة الكشف أيضاً أنّ قشر السمكة ما زال محتفظاً ببريقه .. كشفوا عنها أثناء حفر نفق سكة حديد ، وتم نقلها إلى المتحف العلمي لجامعة خاركوف .

كل ذلك وغيره سبق ظهور الإنسان ، وقد وجدت بقاياه في الصخور القديمة ، وقيعان البحار ، والكثبان الرملية ، ويقول مؤلفا (صور من حياة ما قبل التاريخ) ـــ صفحة ١٤٨ :

(وقبل مليون سنة تقريباً ، وجدت بقايا لكائنات شبيهة بالإنسان .

[أقول: كائنات شبيهة بالإنسان، نعم..أمّا أنّهم بشر، فلا] مثل جنس (أوسترالويشكس)، والذي وجدت بقاياه في إفريقيا، وانتشر في عصر

البلايستوسين المتوسط عبر معظم قارات العالم القديم .

وبعد ذلك وجدت بقايا ما يعرف بإنسان بكين، وإنسان جاوة، وإنسان هيدلبرغ، وإنسان نياندارثال، وإنسان روديسيا ، وإنسان سوانكومب ، ويختار بعض العلماء من بين هؤلاء الأناسي إنسان هيدلبرغ باعباره الحلقة الوسطى بين الإنسان الذي يتكلم، والحيوانات التي تصيح ، أمّا الإنسان النيادرتالي فيظهر أنّه كان ذا مبادئ فكرية من اللغة الملفوظة)[1] .

[أقول : تسمية أشباه البشر من الهمج المتوحّشين بإسم إنسان لا تجعله إنساناً، ولا بشراً].

وكل هؤلاء الأناسي وجوه مختلفة لمخلوق واحد [أقول : لا دليل علمي على ذلك ، إذ كل ما قيل ويقال في هذا الأمر مجرّد تخمين وفرضيّات، لا تمتّ إلى العلم بصلة] كان يتنقل من مرحل إلى مرحلة في تسوية الخالق له ، فكلما مضت مرحلة من التسوية تغيرت بعض أوصافه، وأفرده الباحثون في الجيولوجيا والأنثروبولوجيا بتسمية ، وقد وجدت تلك البقايا بصورة ناقصة ونادرة ، مما يجعل معلوماتنا عن هذه المخلوقات الشبيهة بالإنسان، بعيدة كل البعد عن الكمال [أقول: يحاول الدكتور إيهام القارىء أنّ تلك المخلوقات الشبيهة بالإنسان هم البشر أبناء آدم الأول ، الذي خلقه الله من الطين، ثمّ حسّنه وطوّره، ورقّاه خلال ملايين السنين، حتى كان آدم أبو الإنسان بعد انقراض أجداده البشر المتوحشين ، وهم بموجب تقديرات المؤلف العشوائيّة اللاعلميّة واللاعقليَّة يُعدون بمئات الآلاف، كل واحد منهم نسخة محسّنة عن آدم الأوّل

---

[1] اللغة ــ فندريس ــ تصدير هنري برجسون .

وهو كلام أقرب إلى الشعبذة !!!].

وأول كائن إنسي له المميزات التشريحية للإنسان المعاصر، وله صفاته من الذكاء والقدرة على التعبير عن نفسه هو (إنسان كرومانيون) والذي وجدت بقاياه في جنوب فرنسا ، في كهوف ترك آثاره على جدرانها رسوماً لبعض الحيوانات التي اصطادها ، يتضح منها أنّ هذا المخلوق تمتع بقدر من الذكاء يربطه بالإنسان الحالي .

وأقدم بقايا لإنسان كرومانيون ترجع إلى حوالي ثلاثين، إلى خمسة وثلاثين ألف سنة مضت ، وهذه الفترة تعتبر أقدم من فترات التاريخ المسجّل .

[أقول : أعلن علماء بريطانيون مؤخراً أنّهم وجدوا آثاراً في إفريقيا تدل على آدم نفسه ، وقدّروا أنّه عاش هناك قبل مائة ألف سنة على أكثر تقدير، وفي كلّ يوم يطلع علينا فريق من العلماء بتقرير ينقض ما سبقه ، فالقول بأنّ تلك التقارير تستند إلى العلم ، ليس من العلم في شيء].

هذه النماذج التي عثر عليها من بقايا الإنسان على الأرض تمتد كما رأينا منذ ما قبل مليون سنة ، وهي تؤرخ لمسيرة هذا المخلوق حتى عهد قدّره العلماء بخمسة وثلاثين ألف سنة .[أقول : لا دليل على وجود بشر أو إنسان قبل مليون سنة ، بل إنّ جميع المكتشفات تدل على وجود أقوام أو مخلوقات هياكلها العظميّة تشبه من بعض الوجوه أبناء آدم، ونحن نعلم أنّ الله تعالى خلق مئات آلاف الأنواع ، وكل نوع تختلف جيناته عن الآخر (خذ مثلاً : القطّ والفهد والنمر)، وقد ثبت أخيراً استحالة خروج نوع من نوع آخر، إذ باكتشاف الحمض النووي أل (د.ن.أ)سقطت إلى الأبد نظرية داروين،

وسقطت معها نظريّة عبد الصبورشاهين هذه].

وقد نشرت جريدة الوفد في (٦/١٠/١٩٩٦) أنّ الإنسان الأول عاش أيضاً في جبل طارق في عدة كهوف عثر عليها هناك ، وأنّ ذلك كان منذ ما يقرب من ثلاثين ألف سنة .

ومع ذلك فقد نفاجأ بوجود أحافير تدل على أن ظهور الإنسان كان أقدم من هذا التقدير، فما زالت الأرض محتوية على شواهد دالة على بدء الخلق وكيفيته ، ولن يبلغ الإنسان مبلغ الحقيقة إلاّ إذا داوم على البحث، واستمر في السير تفتيشاً عن شواهدها وأدلتها، وهو ما أمرت به الآيتان القرآنيتان :{ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق**}(العنكبوت :٢٠)، و{**وفي الأرض آيات للموقنين** } (الذاريات : ٢٠) .

وكل ما سجله العلم من مراحل الحياة على الأرض هو ولا شك من معطيات البحث والسير فيها، فهي خطوات في الطريق الصحيحة، تهدي الإنسان إلى أصله ومنشئه، عبر تلك الآماد السحيقة .. لقد كانت تلك الآماد ـــ ولا شك ـــ هي مقدمات لخلق الإنسان ..{ **في أحسن تقويم** } (التين : ٤) أي : إنّ خلق الإنسان كان إرادة سابقة أزلاً على وجود الأرض ذاتها ، قبل مليارات السنين[أقول : من قال هذا؟ وأين الدليل عليه من كتاب الله ؟! لا دليل]. ثمّ كانت الأرض ، وكان ما مرّ بها من عهود سحيقة يعجز العقل عن تصورها، وهو التمهيد الإلهي لظهور السلالات البشرية، [أقول : لا يوجد نصّ واحد في القرآن الكريم، أو في السنّة يقول بالسلالات البشريّة بصيغة الجمع بتاتاً]، الذي تضاربت الآراء في توقيته ، فليس من هذه العهود ما يعتبر حقيقة

مطلقة .. بل هي جميعاً آراء نسبية ، تتفق في الحد الجامع بينها ، وتختلف في العهود والحقب ، ولا سبيل حتى الآن إلى معرفة متى كانت بالضبط بداياتها ونهاياتها .

وأكبر دليل على نسبيّة المعلومات المدونة في المراجع العلمية حول الإنسان وعصر ظهوره على الأرض (قبل مليون سنة) ـــ ما أعلنه مؤخراً أحد العلماء الأنثروبولوجيين، من أن وجود الإنسان كان أسبق مما سقناه نقلاً عن موسوعة الثقافة العلمية ، وعن كتاب (صور من حياة ما قبل التاريخ) وهو خبر لم ندهش له، ونحن نؤمن بنسبية الصدق في معطيات العلم الحديث ، وبخاصة في هذا المجال .

لقد نشرت جريدة الأهرام في عددها الصادر صباح الأربعاء (١٩٧٢/١١/٨) : (أنّ البروفيسور ريتشارد ليكي أحد علماء الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) .. أعلن في كينيا أنّه تمّ اكتشاف بقايا جمجمة يرجع تاريخها إلى مليونين ونصف مليون عام ، وتعد أقدم أثر من نوعه للإنسان الأول.

[أقول: بل هي بقايا جمجمة ، ونسبتها للإنسان الأول كلام في الهواء، إذ ما أدرانا أنّها لم تكن لقرد قريب الشبه بالإنسان، أو أنّها كانت لأحد الهمج المتوحّشين المفسدين في الأرض، الذين عرفتهم الملائكة قبل خلق آدم، وهو ما نفهمه صراحة من قوله تعالى : { **إذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبِّح بحمدك ونُقدِّس لك**}(البقرة :٣٠) ؟! فكيف قدّر الملائكة أنّ هذا الخليفة الجديد سوف يُفسد في الأرض ويسفك الدماء ؟ وإذا علمنا أنّ الملائكة لا يعلمون الغيب،

وأنّه قد ثبت فيما بعد أنّ آدم وأبناءه بمجملهم لم يكونوا من المفسدين في الأرض، ولا كان همّهم وديدنهم سفك الدماء، حقّ لنا أن نسأل : من أين جاءت الملائكة بهذه المعلومة ؟! وإذا علمنا أنّ الملائكة لا يكذبون، لم يبق أمامنا سوى تفسير واحد : هو أنّ الملائكة قد علموا ذلك ممّا رأوه وخبروه من أعمال المخلوقين من طين السابقين، الذين خلفوا في الأرض قبل خلق آدم عليه السلام، بما يؤكّد أنّ تلك المخلوقات الهمجيّة المتوحّشة لم تكن بشراً، ولا تمت إلى آدم ، أو البشر بصلة].

وقال العالم : (إنّ هذا الاكتشاف يمتد في قدمه مليون عام عن أقدم أثر أمكن العثور عليه حتى الآن ، وقد تم اكتشاف عظام الجمجمة ،مع عظام لساق بشرية ترجع إلى نفس الحقبة من التاريخ ، في جبل حجري، في صحراء تقع شرق بحيرة رودلف في كينيا) .

وقال العالم : (إنّ هذا الأثر يمكن أن يقلب النظريات القائمة بشأن تطور الإنسان عن أجداده في ما قبل التاريخ ، وكيف ؟ ومتى ؟) .

وقد قدّم ريتشارد ليكي ، وهو مدير المتحف الوطني في كينيا ــ تقريراً عن اكتشافه إلى الجمعية الجغرافية الوطنية في واشنطن ، وقال : (إنّ نظريات التطور الحالية ــ وعلى رأسها نظرية داروين ــ تفيد أنّ الإنسان تطور من مخلوق بدائي، كانت له سمات بدنية شبيهة بسمات القرد ، وأنّ أقدم أثر للإنسان كمخلوق منتصب يسير على رجلين وله مخ كبير ــ يرجع إلى نحو مليون سنة) ، هذا في حين أنّ الكشف الجديد يدلّ على أنّ المخلوق الإنساني المنتصب ذا الساقين لم يتطور عن المخلوق البدائي الذي يشبه القرد ، بل كان

يعاصره منذ أكثر من مليونين ونصف مليون عام ، وإنّه يمكن على هذا الاعتبار استبعاد المخلوق البدائي الأول على أساس أن الإنسان انحدر من سلالته.

[أقول : لم يثبت أنّ أحداً من البشر عاش قبل ملايين السنين]

وذكرت الجمعية الجغرافية في تعليق لها على هذا الكلام : (أنّ نظرية ليكي تقوم على أساس أنّ المخلوق البدائي الأول، واسمه العلمي (أوسترالوبشيكوس) وكان أساساً من أكلة النباتات، وقد وصل إلى مرحلة تطوُّرِيَّة مسدودة، بينما استطاع الإنسان الذي استخدم اللحم في غذائه ، وتمكن من صناعة الأدوات الحجرية ـــ أن يبقى على قيد الحياة).

وأكد ليكي في تقريره : (أنّه أمكن إعادة بناء جمجمة من شظايا العظام التي عثر عليها، وأنّه بالرغم من أنّ هذه الجمجمة لا تشبه جماجم الجنس البشري المعروف حالياً، إلاّ أنّها تختلف كذلك عن جميع أشكال الجماجم التي عثر عليها للإنسان الأول ، وبذلك لا تتفق مع أي نظريات حاليّة عن تطور الإنسان).

[أقول : واضح من ذلك أنّ تلك الجمجمة لمخلوق غير معروف لنا، عاش وانقرض منذ ملايين السنين، والقول إنّه كان من البشر ينقصه الدليل، وهيهات، ناهيك عن اختراع الدكتور عبد الصبور شاهين لمرحلة تطوُّرِيَّة مسدودة، ما أنزل الله بها من سلطان].

وواضحٌ أنّ الفرق الزمني هائل بين هذا الرأي ، وما تقوله نظريّة داروين . كما أنّ الفرق هائل أيضاً في جوهر التصوّر للإنسان الأول بين النظريتين ، فهو عند داروين يمشي على أربع منذ مليون سنة، ثم انتصبت قامته، وعند ليكي

يمشي منتصب القامة منذ مليونين ونصف المليون من السنين، وأنه كذلك منذ كان.[أقول : أقصى ما يمكن وصف هذه النظريات به هو أنّها شبه علميّة ، أمّا الحقيقة العلميَّة القاطعة في هذه المسألة فقد جاءت في القرآن الكريم ، كلام ربّ العالمين : {إني خالق بشراً من طين}، وقوله تعالى مُخاطباً الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم: {قل إنَّما أنا بشر مثلكم} (الكهف: ١١٠)].

فإذا رجعنا إلى ما أورده المؤلّف سيد أحمد الكيلاني في كتابه عن (نظريّة داروين بين التأييد و المعارضة ـــ صفحة ٢١) حين قال: (وقد أذاع البروفيسور جوهانس هورذلر ـــ العالم الذري في سمنتبال بسويسرا ـــ بياناً في مارس ١٩٥٦ ـــ عارض فيه نظرية داروين بشدّة ، وقال : إنّه لا يوجد دليل واحد من ألف على أنّ الإنسان من سلالة القرد، وإنّ التجارب الواسعة التي أجراها دلّت على أنّ الإنسان منذ عشرة ملايين سنة، وهو يعيش منفرداً ، وبعيداً جداً).

وأضاف إلى ذلك : (أنّ الهياكل التي درس عليها تؤكّد نظريته ، وقد قدم البروفيسور المذكور للمتحف الطبيعي بمدينة "بال" قطعة من الفحم بداخلها قطعة من فك إنسان يرجع تاريخها إلى عشرة ملايين سنة، وهذا هو التاريخ الذي أمكن الحصول فيه على هياكل آدميّة) [أقول: قد يكون ذلك الفك لمخلوق شبيه بالإنسان، عاش على الأرض وانقرض قبل خلق آدم بملايين السنين ، وقد تكون قطعة الفحم تلك قد تعرّضت لظروف استثنائيّة من الضغط والحرارة أدّت إلى التسريع في تكوّنها، وقد تكون حسابات الدكتور خاطئة، وقد ..وقد..إلخ. فهل هذا التكهُّن من العلم الذي يُتوصّل به إلى حقائق

علميّة قطعيّة يقينيّة ؟! عجبي !].

وبتاريخ ٣١ مارس ١٩٥٦ أعلن في أميركا أنّ الدكتور (رويتر) ـــ المشرف على الأبحاث بجامعة كولومبيا ـــ قد أيّد البروفيسور هورذلر في وجهة نظره ، واعتبرت نظريّة داروين بذلك رأياً لا يستند إلى أي دليل علمي، وأنّ الكائنات إنّما خُلقت مستقلة الأنواع، استقلالاً تاماً، فمنها الإنسان الذي يمشي على رجليه ، ومنها الدّواب التي تمشي على أربع ، ومنها الزواحف التي تمشي على بطونها .

وإذا كان سياق الداروينية يقرر أنّ القردة خلقت هكذا مستقلةً عن الأنواع الأخرى قبلها، فما الذي يجعلها أصلاً لنوع الإنسان في فرضيّة داروين على حين أنّ الأقرب إلى المنطق هو أنّ القدرة التي خلقت نوع القردة التي تمشي على أربع قد خلقت نوعاً آخر يمشي منتصباً على رجلين، وهو الإنسان، وهي القدرة التي أوجدت ملايين الأنواع من المخلوقات المتحرّكة ، لكل نوع عالمه وقدراته ، وبدايته ونهايته ، فالكل صادر عن قدرة مطلقة واحدة ، تماماً كما حدّث القرآن عن وحدة الأصل ، واختلاف الشكل في قوله تعالى : **{والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنة ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء}** (النور: ٤٥) .

نحن إذن أمام جملة من النظريات المشتجرة والمتعارضة ، التي تركز كلها على تاريخ وجود الإنسان ، وأصل هذا المخلوق ، وهي كلها تؤكد نسبيّة المعلومات التي تضمنتها ، ولكل واحدة منها أدلتها التي تستند إليها في تقرير جوانب التصوّر الزمنيّة والخلقيّة ، ولا ريب أنّ في كل منها شيئاً من الحقيقة ،

وأشياء من الخيال تصبُّ في بحر الضلال، حفاظاً على نسبية المعلومات والنّظريّات في دلالتها على جوهر الحقيقة، الذي يتراوح حتى الآن ما بين مليون سنة وعشرة ملايين من السنين .

[أقول وأكرر: لم يكن للبشر وجود في تلك الأزمنة السحيقة ، وكلام الدكتور هذا ليس من العلم في شيء ، ولا دليل عليه يُعتدّ به]

ومن أواخر ما نشرته جريدة الأهرام في هذا الشأن ، خلال شهر يونيو ١٩٩٦ ما تضمنه بحث علمي آخر في بريطانيا ـــ قد يكون دليلاً آخر لهدم نظريّة داروين القائلة بأنّ الإنسان أصله قرد، أو منحدر من إحدى سلالات القردة العليا، تحدّى العلماء البريطانيّون الرأي العلمي السائد بأنّ الإنسان الأول كان يمشي معتمداً على يديه ورجليه ، مثل الشمبانزي.

وقال العلماء في جامعة ليفربول البريطانية : (إنّ الرأي الأرجح هو أنّ الإنسان الأول كان يسير منتصب القامة ، تماماً مثل الإنسان اليوم ، وأوضحوا أنّه لو كان الإنسان القديم يسير منحنياً ـــ كما تُصوّر ذلك بعض النظريّات العلميّة ـــ فإنّه لم يكن من الممكن أن يعتدل في قامته ، ويسير كما هو الآن أبداً) .

وأشار العلماء إلى أنّهم أخذوا أحجام الإنسان القديم ومقاساته من هيكل كائن شبيه بالإنسان ، وهو المعروف بِاسم (لوسي) الذي عُثر عليه في أثيوبيا ويرجع إلى ثلاثة ملايين عام مضت ، ثم استخدموا الكمبيوتر في تطوير إنسان آلي صناعي (روبوت) لكي يكون نموذجاً لكيفية تحرك (لوسي) ، وأوضح العلماء أنّ التجارب أثبتت أنّ (لوسي) ـــ وهي أنثى ـــ لم تكن لتتطوّر

وتمشي منتصبة القامة بعد ذلك، وقال الدكتور روبن كرمبتون، أحد المشاركين في البحث : إنّ ذلك يعني أنّ النظريّات العلميّة التي تُظهر الإنسان القديم يمشي في وضع منحنٍ في حاجةٍ إلى إعادة كتابة ، وأشار إلى أنّه ما إن بدأ الإنسان يقف على قدمين ، فإنّه كانت هناك ضغوط قويّة لكي يسير ويقف منتصباً .

وأوضح أنّ المشي بشكل منتصب يساعد الإنسان على التنفس بشكل جيّد مشيراً إلى أنّ قرود الشمبانزي عندما تمشي منحنية فإنّها تسير لوقتٍ قصيرٍ للغاية ، لأنّ هذا الوضع لا يساعدها على التنفس الصحيح .. بل يصيبها بالإجهاد . وقال : إنّ هذه القرود بعد خمسين خطوة فقط من المشي في انحناء تسارع بالجري ، بعكس الإنسان القديم الذي يُظهر علم الآثار أنّه كان يمشي لأكثر من مائتي كيلومتر ، وهذه المسافة لا تتم في حالة إنحناء .

وهذا الرأي يلتقي في تقديره الزمني تقريباً مع تقدير البروفيسور ليكي بناءً على جمجمة كينيا ، غير أنّ مرتكز الاستدلال لم يكن البحث في عمر الأُحفورة بل قام على مناقشة القدرة على المشي منتصباً أو منحنياً لدى القردة والإنسان ، كيما يصل في النهاية إلى رفض نظريّة داروين ، بأسلوب التقنية المعاصرة .

وغني عن البيان أنّ كل الجهود العلميّة حتى الآن تنصب على معارضة داروين فيما ذهب إليه ، وأنّ ما قدمناه لم يكن سوى بعض العينات التي جهد فيها العلماء ليدحضوا مذهب النشوء والإرتقاء .. حتى إنّنا نستطيع أن نقول : إنّ نظريّة داروين قد صارت لكثرة ما تعرّضت له من نقد ـــ مجرّد مقولة هشّة .. لا تعني شيئاً في مجال البحث عن أصل الإنسان، وإن قدمت الكثير في مجال

(البيولوجيا) أو علم الأحياء [أقول: قول الدكتور شاهين هنا هو الحق الموافق للقرآن، فالله تعالى لم ينفخ من روحه في آدم حتى جففه تماماً{**من صلصال كالفخّار**}وذلك وحده يكفي لإبطال، بل نسف نظريَّة داروين]. وتبقى حقيقة واحدة ، نكررها دائماً ، هي نسبيّة التقديرات العلميّة التي حاولت التأريخ لبداية وجود الإنسان على الأرض في أي شكل من أشكال الوجود .

لقد سقطت إذن فكرة (التطوّر الخالق) ونقول : (فكرة) ولا نقول : (نظريّة) رغم أنّ النّاس قد فتنوا بهذه النظريّة لعدة عقود من الزمن .. سقطت بكل ما ارتبط بها من أفكار أخرى ، وانتصرت حقيقة (الخلق المستقل) التي قرّرها الدّين كما أكّدها العلم ، فما كان الإنسان إلاّ بشراً منذ كان [أقول : نعم الإنسان بشر وآدم هو أول إنسان، وهو أول بشر، بل أبو البشر] وما كانت السمكة إلاّ سمكةً في عالمها المائي، وكلّ ذلك لم يكن إلاّ طبْقاً للمشيئة الإلهيّة المطلقة وإنجازاً للقدرة الكنيّة [1] .

وهنا يطرأ سؤال ، ربّما يبدو سابقاً لأوانه في سياق هذا البحث ، وهو : هل كان وجود هذه الخليقة البشريّة مشروعاً واحداً على الأرض، أرادته القدرة الإلهيّة ؟ وتابعته في مراحله المتطاولة ؟ أم كان مجموعة من المشروعات المتقاطرة على الساحة الأرضيّة عبر الوجود الزمني الهائل؟ وكان آدم آخر هذه المشروعات ؟ [أقول : لا دليل على وجود مثل تلك المشروعات في الكتاب أو السنّة ،أو الواقع، ولا أرى مصدرها سوى خيالات وأوهام الدكتور عبد

---

(١) نسبة نقول بها أخذاً من قوله تعالى :{ إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون} (يس ٨٢) .

الصبور، أصلحه الله، وغفر له].

ذلكم هو ما سنحاول بيانه فيما يلي من الحديث .

غير أنّنا نقرر هنا رأياً يراودنا ، ونحن نخوض هذا اليم ، أو الخضم من المعلومات والتقديرات المتراوحة بين سبعة آلاف سنة ، وعشرة ملايين من السّنين ، والذي نريد أن نقوله إجمالاً : هو أنّ الخالق العظيم خلق هذا الكون الهائل حين قال : (كن) فكان .

[أقول : الله تعالى يخبرنا خبراً صادقاً أنّه خلق السماوات والأرض في ستّة أيام، ثمّ استوى على العرش ، فإذا كان خلق الكون كلّه لم يستغرق سوى ستّة آلاف سنة (قمريّة) لحكم الله يعلمها، وقد أخبرنا جلّ وعلا أنّ خلق السماوات أكبر من خلق الناس، وكان أن خلق السماوات السبع في الفي سنة ممَّا نعد، فكيف يُريد الدكتور عبد الصبور من المسلمين أن يصدّقوا بدعته ، بل لوثته هذه التي تقول : إنّ خلق آدم كان عدّة مشاريع متقاطرة استغرقت ملايين السنين ، فأيّ علم هذا الذي يخالف المعقول والمنقول؟! قال تعالى: {لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون} (غافر: ٥٧) فهذه الآية، وقوله تعالى: {وقضاهنَّ سبع سماوات في يومين} (فُصّلت :١٢) تكفيان لردّ مزاعم الدكتور عبد الصبور بشكل قاطع ونهائي].

أجل .. كان ما كان ويكون ما سيكون ... كان الماضي والحاضر والمستقبل، كانت الدنيا بكل مكوناتها، وكانت الآخرة بجنتها ونارها وخلودها وما يتضمنه ذلك من بعث وحشر وحساب .

كان كل ما كان ، وما يكون ، وما سيكون ، في إطار من الزّمان المطلق

والمشيئة المطلقة ، و الإنكشاف المطلق ، فليس ـــ بالنسبة إلى الخالق ـــ قيود من الزمان ، أو المكان ، أو أيّة عوامل أخرى ، أمّا الإنسان فهو نقطة في بحر الحقيقة .. نقطة محكومة بالزمان والمكان ، وحدود الإدراك ـــ كما أراده الله .

وقد خلق الله هذا الإنسان ليكون سيّداً في الكون الفسيح ، الذي يتزايد ضخامة واتساعاً أو امتداداً، دون توقف .. بأسرع من سرعة الضوء [عجبي!]

ثم جعل الله سبحانه وتعالى لهذا الكون نهاية، كما أنّ له بداية ، وحين تحين هذه النّهاية سوف تتغيّر معالم الكون كله كما قال سبحانه : {**إذا الشمس كوّرت . وإذا النّجوم انكدرت** ...} (التكوير : ١-٨) ، وقال تعالى: {**يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات**}(إبراهيم : ٤٨) هل يُعقل أن يكون هذا الملك والملكوت من أجل خليقة لا تدوم أكثر من عشرة آلاف سنة ؟! أو بتعبير أدق: لا تدوم أكثر من عشرة أيّام – بحساب الزمان الإلهي الذي يقرر: { **وإنّ يوماً عند ربك كألف سنةٍ مما تعدون** }إلخ ؟

[أقول: لو جاء هذا السؤال بعد قيام القيامة، وانتهاء خلافة بني آدم على الأرض ، وصحّ زعم الدكتور أنّ آدم عاش على الأرض قبل عشرة آلاف سنة فقط ، لوافقناه، وقبلنا مزاعمه ، ولكن هيهات !! ثمّ ما أدرى الدكتور أنّ الله لن يخلق مخلوقات أخرى تخلف في الأرض بعد استقرار بني آدم في الجنّة أو النار؟! وقد أخبرنا تعالى أنّه سوف يبدّل الأرض غير الأرض والسماوات ، لا إفنائها ، بل تبديلها فقط ؟!].

وهب أنّ ذلك الزمان امتد إلى مليون سنة ، أو حتى عشرة ملايين ، فإنّ

ذلك لا يعدو أن يكون بضعة آلاف من الأيّام الإلهية .. ولله المثل الأعلى .

[أقول : هذه الأسئلة وأمثالها لا أحد يملك الإجابة عليها إلاّ الله وحده ، أمّا القرآن فقد أشار إلى وجود مخلوقات طينيَّة الأصل همجيّة عاثت في الأرض فساداً قبل خلق آدم، وما يدرينا ما إذا كان الله تعالى سيخلق أقواماً غيرنا (ليسوا على شاكلتنا) يعيشون على الأرض بعدنا ، بعد أن تُبدّل الأرض غير الأرض والسماوات ؟! فالله تعالى فعَّالٌ لما يُريد، وله الحكمة البالغة، سُبحانه].

إنّ ملك الله عظيم ..

وإنّ شأن الله أعظم ..

ولهذا الإله – تقدست أسماؤه، وتعاظمت آلاؤه – سجدت الأجساد والأرواح ، وعنت الوجوه والعقول:{**وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلاّ همساً**} (طه: ١٠٨) ومن أجل هذا كان موعد النهاية سرّاً مكنوناً لا يعلمه إلاّ هو .. إنّه موعد الزلزال الكوني الذي يضع النهاية لرحلة ملايين السنين .. {**إنّهم يرونه بعيداً. ونراه قريباً**}(المعارج : ٧-٦) ويكفي أن نردد هنا قول الله سبحانه : { **يأيّها النّاس اتقوا ربكم إنّ زلزلة الساعة شيْ عظيم**} (الحج :١) .

[أقول : لقد ركب الدكتور عبد الصبور هنا مركباً صعباً، وسأل أسئلة لا أحد يملك لها جواباً شافياً وافياً، والقرآن قد أجمل قصّة خلق آدم تارة، وبسطها تارة وأطواراً، ولم يبيّن لنا منها إلاّ القدر الذي نحتاج إليه، وليس من العلم أو العقل أو العدل في شيء الربط بين قطعي القرآن ــ وهو حقٌ يقيني ــ وتخمينات بعض علماء الطبيعة والأحافير ممن لا يؤمنون بالقرآن، ولا يملكون الدليل العلمي اليقيني على صحّة تقديراتهم تلك] .

الإنسان بين العلم والقرآن

مرّة أخرى نكرّر، ولا نمل التكرار :

لا بُدّ أن نسلّم بأنّ مُعطيات العلم ليست حقائق مطلقة في أغلب الأحيان .. بل هي رؤى نسبيّة، من حيث أنّ العقل الذي يتوصّل إليها مرهَن بقيود من البيئة، والزمان، والقدرات الذاتيّة ، والدلائل المتاحة ... إلخ.

أمّا القرآن وهو الكلمة النهائيّة في الخطاب ما بين السماء والأرض، أو ما بين الأعلى والأدنى ـــ فإنّه ولا شك يقدّم للعقل الإنساني الحقائق النهائيّة في الموضوع .

[أقول : تُرى إذا لم يقدّم لنا القرآن هذه الحقائق فهل نشك فيه أم ماذا ؟ وهل اشترط القرآن على نفسه تقديم تلك الحقائق ؟! وهل في القرآن الكريم دليلٌ واحد على أنهّ كتاب متخصّص بعلوم الأرض أو الأحافير؟ وكلنا يعلم أنّه كتاب هداية ، أنزله الله تعالى رحمة للعالمين ، فلا هو كتاب كيمياء، ولا كتاب جغرافيا ولا هو كتاب فلك، أو غيره، قال تعالى: {**ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء**} (النحل:٨٩) و"كلّ شيء" هنا تعني كلّ أمر يتعلق بالعقيدة والشريعة والأخلاق والمُعاملات، مما يمكن أن يتيه العقل البشري فيه، أو مما يمكن أن يختلف الناس فيه، ويشتجروا عليه ، بما جعل من القرآن الكريم دستور حياة ، من التزمه عزّ وسعد في الدنيا ، وفاز بالجنّة في الآخرة ، ومن كفر به أو هجره تنكّد وتعس في الدنيا، وباء بغضب من الله ، وسوف يدخل جهنّم في الآخرة].

ولكنّ الأجيال تتفاوت في فهم النصّ المقدّس ، حتى ليبدو ما استخرجه

الفكر الديني ــ حتى الآن من النصوص ــ مناقضاً للعلم ، ولا سبيل إلى تحقيق اللقاء بينهما [أقول : إنّ عدم فهم علماء السلف المُتأخرين لما أنزل في القرآن في هذه المسألة ــ لاعتمادهم على الإسرائيليات وخرافاتها، ونبذهم منهج التفكير العلمي العقلي ، حتى جاءت أقوالهم مناقضة للعلم ــ لا يعني بالضرورة أنّ القرآن جاء بما يناقض العلم ، وإذا كان من المستحيل التوفيق بين ما جاءت به الإسرائيليات وما جاء في القرآن، فليس من المستحيل، ولا من الصعب بيان موافقة القرآن للعلم الحق في هذه المسألة وفي غيرها، لا بطريقة الدكتور الملتوية هذه ، وإنّما بأدلّة علميّة مدعّمة بالأدلّة الصريحة من آيات القرآن المحكمات ــ التفاصيل تتبع ــ].

ونحن ــ بادىء بدء ــ نقرر أنّ التناقض بين القرآن وما توصّل إليه العلم من حقائق نهائيّة مستحيل .[أقول : هذا قولٌ حق، ولكن هل توصّل العلم إلى حقائق نهائيّة في مسألة خلق آدم ؟! وأين ومتى حصل ذلك ؟!] وإنّما يأتي التناقض من جهة أنّ العلم لم يستقر بعد على برّ الحقيقة الكاملة، بل ما زال يدور في إطار النظريّات الظنيّة الدلالة ، إلى جانب أنّ التناقض قد يأتي من ضعف التفكير الذي تتّسم به معالجة الأفكار.

[أقول : الحمد لله أنّ الدكتور قد أجاب على سؤالي بما يُعدّ شهادة منه على نفسه بالتناقض، وإلاّ فما معنى البحث والمقارنة بين قطعي الثبوت والدلالة (القرآن المُحكم) الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلم لم يستقر، ولم يقدّم الحقائق النهائيّة بعد ؟! أليس هذا من ضعف التفكير أيضاً ؟!]

ولننظر ــ مثلاً ــ إلى الجمود الذي اتّسم به التفكير الديني حين توقّف

عند القول بالبداية الآدميّة للحياة على الأرض ، وهي بداية قُدّرت في حدود عشرة آلاف عام ، وهو تقدير متواضع في مقابل القول بأنّ بداية الحياة الإنسانيّة تراوحت ما بين مليون سنة، وعشرة ملايين من السنين.

[أقول : التقديران في الحالتين لا علاقة للقرآن ولا للعلم والحقائق النهائيّة بأيّ منهما، فالتقدير الأول خطأ، ومصدره الإسرائيليات كما اعترف بذلك الدكتور، والتقدير الثاني مجرّد نظريّات وتقديرات لبعض العلماء لم تستقر، ولم تصل درجة العلم بعد ، باعتراف الدكتور نفسه.] .

هذا بون شاسع بين التقديرين ، وهل من سبيل إلى لقاء بينهما ؟

نحن نرى أنّ ذلك ممكن من خلال فهم واعٍ للنّصوص القرآنيّة ..فهم يخرج عن المذهب التقليدي الذي التزمت به التفاسير كلّها، ويسعى إلى استنطاق النظم القرآني، ما دام هناك إمكان لالتقاء العلم بالقرآن.

[أقول : هنا بدأ الاستعباط العلني، فالدكتور قد شطب كل مقدّماته عن العلم غير المستقر، الذي لم يقدّم حقائق نهائيّة بعد، ليقول:"لالتقاء العلم بالقرآن"!! تُرى لو أنّ عالماً نقض كلام الدكتور هذا ، وأثبت عدم التقاء القرآن مع تقديرات العلماء المتفاوتة هذه ــ وهو فعلاً يتناقض معها ــ فهل نكذّب القرآن لا سمح الله ؟! أم هل يعني عدم التقائه معها عدم التقاء العلم بالقرآن ؟! وهل قدّر الدكتور عبد الصبور مقدار وحجم التشكيك والبلبلة الفكريّة التي سيحدثها كتابه المسخ هذا ؟].

ولسوف نحاول السير مع القرآن في حديثه عن الإنسان والخلق ، منذ الآيات الأولى التي استهل بها الوحي المحمّدي ، وسيراً مع هذا الوحي إلى

شاطىء الحقيقة القرآنيّة .

لكن ـــ قبل أن نشرع في هذا العرض نحب أن نقدم نوعاً من الأحافير، أو الأعاجيب التي أشارت إليها المراجع العربيّة ، وهي ذات دلالة ومغزى ، يخدم سعينا لتحقيق إمكان اللقاء بين العلم والقرآن ، وإن غلب عليها طابع المبالغات وأسلوب الأساطير.

[أقول : يا أسفي على العلم وأصحابه ، فالدكتور شاهين بعد اعتماده العلم الناقص، أو الذي لم يثبت بعد أنّه علم باعترافه ، يريد الاستعانة بأقوال لا سند ولا واقع لها، بعد اعترافه أنّها مُبالغ فيها، وأنّها جاءت بأسلوب الأساطير!!].

الفصل الثالث

نظرة القدماء إلى وجود الخليقة

إذا كان علماء السلف قد اتفق جمهورهم على أنّ آدم هو أول الخليقة ، وأول ما خلق من تراب [أقول : لا أدري من أين جاء الدكتور ب "أول ما خلق"؟ نعم آدم خُلق من تراب، وهو عاقل لا يصحّ نعته بـِـ "ما" التي تُستخدم في اللغة لغير العاقل، والقرآن لم يقل إنّ آدم أول مخلوق من التراب، فمن هو الجمهور الذي اتفق على ذلك ؟ومنذ متى كان رأي الجمهور مصدراً شرعيّاً ؟! ولماذا لم يوثّق الدكتور معلوماته إن كان يملك ما يحتجّ به، بدلاً من طريقة المشعبذين هذه ؟!] فإنّ بعضهم قد ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ، فتصوّروا لهذه الخليقة وجوداً ممتداً في أعماق الزمان، قبل آدم ،ربّما إلى ملايين السنين، والمهمّ أن أحداً ممن قال بهذا المذهب لم يلق نكيراً من الفريق الآخر.. بل عاشت الآراء المتناقضة جنباً إلى جنب ، حتى تلقيناها ورأينا كيف أنار الله بصيرة الأقدمين فامتدت رؤيتهم إلى أعماق الغيب قبل التاريخي على هذه الأرض، وتنوّعت رؤيتهم تبعاً لاختلاف التخيلات، وما نحسب أنهم اعتمدوا على شواهد ماديّة .. بل هي محض تخيلات هداهم إليها تأملهم المنطقي في أحوال الدنيا..(ذكر المسعودي في كتابه عن بعض العلماء: أنّ الله سبحانه وتعالى خلق في الأرض قبل آدم ثمانٍ وعشرين أمة على خِلَقٍ مختلفة ، وهي أنواع :

منها ذوات الأجنحة ، وكلامهم قرقعة .

ومنها ما له أبدان كالأسود ، ورؤوس كالطير ، ولهم شعور وأذناب ، وكلامهم دويٌّ .

ومنها ما له وجهان ، واحد من قبله، وآخر من خلفه ، وله أرجل كثيرة، ومنها ما يشبه نصف الإنسان بيدٍ ورجل، وكلامهم مثل صياح الغرانيق [1]

ومنها ما وجهه كالآدميّ، وظهره كالسلحفاة، وفي رأسه قرن، وكلامهم مثل عوي الكلاب .

ومنها ما له شعر أبيض ، وذنب كالبقر .

ومنها ما له انياب بارزة كالخناجر ، وآذان طوال.

ويُقال : إنّ هذه الأمم تناكحت، وتناسلت حتى صارت مائة وعشرين أمة (المستطرف/٣٩٨) .

هذه صورة من تفكير الأقدمين أو تخيلاتهم عن الماضي السحيق قبل هذه الخليقة فقد لفقوا أشكالاً من المخلوقات لا دليل على أنها وجدت إلاّ في الاحتمال الخيالي ، ومع ذلك يبقى ــ بعد استبعاد ما لا دليل عليه من الأشكال ــ إن الأرض كانت معمورة قبل آدم ، سواء بمثل تلك الأصناف ، أو بأصناف أخرى كالديناصورات ، أو الماموث ، أو بآدم آخرين قبل آدم ــ أبينا ــ على ما قرره بعض العلماء ، أي : إن آدم لم يكن أول مخلوق عاقل على هذه الأرض .

[أقول :آدم كان أول مخلوق عاقل على الأرض، بدليل نفخ الله الروح فيه

---

[1] الغرنوق : طائر مائي أبيض طويل الساق جميل المنظر ، له قنـــزعة ذهبية اللون ، والجمع : غرانيق .

وحده من دون خلق الله، والعقل إحدى مظاهر أو نتائج نفخ الروح، أمّا أنّ الأرض كانت معمورة بمختلف المخلوقات قبل خلق آدم عليه السلام، فصحيح، أمّا الأوادم الآخرين قبل أبينا آدم فلا دليل على وجودهم، وكل ما ذكره علماء الأحافير يدلّ على وجود مخلوقات شبيهة بالإنسان، وقد جاء ذلك في كلام الدكتور نفسه في الصفحات ٢٨، ٣٠، ٣٥ ،٣٧ من كتابه هذا ، فما هذا التناقض؟! وما معنى قول الدكتور: على ما قرّره بعض العلماء ؟! وأين تقريرهم العلمي ذاك ؟ ومتى كان ؟!].

ومن المؤكد أنّ أمماً كثيرة من المخلوقات كانت موجودة قبل ظهور الإنسان كأمم الطير، والحيوان ، والنبات ، وهي كلها أمم بنص الآية الكريمة {**وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم**}(الأنعام : ٣٩) ، وإذا كان النصّ صريحاً في دواب الأرض والطير ـــ فإنّ النبات في نظر العلماء كائن نام ، على اختلاف أشكاله وفصائله، والآية الكريمة التي تشير إلى حقيقة مذهلة حين تأتي فاصلتها :{ **ثمّ إلى ربّهم يُحشَرون** }، وفي ذلك جملة من المناقشات ، حفلت بها كتب التفسير .

أما عن اهتمام العلماء بالتفتيش أو بملاحظة ما يجدون صدفة في الأرض ، ومتابعة آثار الأحياء فيها ، واستدلالهم بشواهدها على معالم الحياة البشرية وعهودها السحيقة. [أقول : هذه هي المرّة الأولى ـــ في كتابه ـــ التي يصف فيها الدكتور الحياة قبل آدم بالحياة البشريّة ـــ هكذا دون أدلّة، ودون مقدمات ـــ وكأنّه يخاطب قوماً من السذّج الذين سيقبلون كلامه هذا دون نقاش !] ـــ فذلك أمر لم تتوافر أدواته للأقدمين ، ولا تهيأت أسبابه إلاّ في عصرنا الحديث

مع تطور علوم الأرض (الجيولوجيا) والإنسان (الأنثروبولوجيا) ، والأحافير (الميثولوجيا) ، والتحليلات الكربونية .... وغيرها .

ولكن كان للأقدمين فكرة عن الإنسان القديم.

[أقول : لا دليل على وجود إنسان قبل آدم عليه السلام، وعليه فهذه التسمية خاطئة ومردودة على صاحبها] ولم تكن أفكارهم تذهب في تقدير تاريخ الحياة على الأرض إلى أبعد من حديث القرآن عن آدم ونوح ، وعاد وثمود ، وقوم إبراهيم وقوم لوط . إلخ .

وهذه عهود قريبة نسبياً كما سبق أن قررنا ، وهي لم تتجاوز ثلاثين ألف عام ، وهم معذورون قطعاً فيما ذهبوا إليه.

[أقول : لم يرد في القرآن الكريم قبل كم من السنين خُلق آدم ؟ ولا متى وقع طوفان نوح ؟ ونسبة هذه التواريخ والأزمان إلى القرآن زوراً وبهتاناً فيها الدليل على أنّ الدكتور عبد الصبور قد تمادى كثيراً].

وقد اعتمد بعضهم على مشاهداته لقطع من العظام وبقايا هياكل عظمية ، وحاولوا تفسيرها ووصفها بقدر ما رزقوا من القدرة على تصور حياة الماضين وأوصاف هيئاتهم الجسمية، وهي تبعد كثيراً عن الواقع الذي تصفه الأحافير التي عثر عليها العلماء في عصرنا، ولو أنّ هذه الأحافير التي وصفها السلف — وجدت الآن لتغيرت فكرتنا عن الإنسان ، في عهوده السحيقة ، لكن المشكلة أنّ شيئاً من هذه الأحافير لا وجود له الآن، ولئن صحّ أنه وجد ، فهو وجود مقرون بالمبالغة والتزيد ، حتى حجبت الحقيقة ، وضاعت معالمها ضياعاً نهائياً .

ولنذكر عينة من هذه الأخبار ، يذكر مؤلف كتاب (المستطرف في كل

فن مستظرف): (قال الشيخ عبد الله ، صاحب كتاب تحفة الألباب : دخلت إلى باشقرد فرأيت قبور عاد، فوجدت سن أحدهم طوله أربعة أشبار وعرضه شبران، وكان عندي في باشقرد نصف ثنية أخرجت لي من فك أحدهم الأسفل فكان نصف الثنية شبران، ووزنها ألف ومائة مثقال، وكان دور فك ذلك العادي سبعة عشر ذراعاً، وطول عظم عضد أحدهم ثمانية أذرع ، وعرض كل ضلع من أضلاعهم ثلاثة أشبار) [أقول : لولا أنني ألزمت نفسي بالردّ على كتاب الدكتوركاملاً منذ البداية لما ذكرت هذه الخزعبلات، التي تُضحك ، بل تُرعب الأطفال]

وقد يكون هذا الوصف من باب المبالغة المسرفة، لأنّ مشاهدة المومياوات المتحفية التي مضى عليها خمسة آلاف سنة(مثلاً) تبيّن لنا أنَّ حجم الإنسان كان بنفس الحجم الحالي، دون أدنى علاقة بما يصفه الشيخ عبد الله في كتابه المشار إليه ، ولذلك يبدو لنا أنّ للخيال دوراً في تضخيم حجم ما زعم رؤيته من بقايا قوم عاد، وربما كان ذلك من باب (الحواديت) التي جاء منها ألوان وأشكال (ألف ليلة وليلة).ويستمر الشيخ فيقول : (ولقد رأيت في بلغار، سنة ثلاثين وخمسمائة ـــ من نسل عاد رجلا طويلاً، طوله أكثر من سبع وعشرين ذراع ، كان يسمى دنقي أو ديقي ، وكان يأخذ الفرس تحت إبطه ، كما يأخذ الولد الصغير ، وكان من قوته يكسر بيده ساق الفرس ويقطع جلده وأعضاءه كما يقطع باقة البقل ، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً تحمل على عجلة وبيضة عادية لرأسه ـــ كأنهما قطعة من جبل ، وكان يأخذ في يده شجرة من البلوط كالعصا، لو ضرب بها الفيل لقتله، وكان خيراً متواضعاً،

كان إذا لقيني يسلم علي ويرحب، ويكرمني، وكان رأسي لا يصل إلى ركبته، رحمة الله عليه، ولم يكن في بلغار حمام يمكنه دخوله إلاّ حمام واحدة ، وكانت له أخت على طوله، ورأيتها مرات في بلغار، وقال لي قاضي بلغار ، يعقوب بن النعمان : إنَّ هذه المرأة العاديّة قتلت زوجها ، وكان اسمه آدم ، وكان أقوى أهل بلغار، قيل : إنها ضمته إليها فكسرت أضلاعه ، فمات من ساعته) (المستطرف / ٣٩٨)

وقد تأثرت آراء الأقدمين من العلماء بما ورد في العهد القديم من أساطير عن الإنسان القديم ، ولاسيما قصة عوج بن عنق ، وهي أحد معالم الحياة القديمة التي كانوا يتسلون بروايتها ، وقد كان المستمعون يبهرون بتفاصيلها ، ويتصورون أنها تعبر عن واقع شهدته الأجيال القديمة ..

رويّ عن وهب بن منبه في عوج بن عنق أنه كان من أحسن الناس وأجملهم ، إلا أنه كان لا يوصف طوله ، قيل : إنه كان يخوض في الطوفان فلم يبلغ ركبتيه ، ويقال : إنَّ الطوفان علا على رؤوس الجبال أربعين ذراعاً ، وكان يجتاز بالمدينة فيتخطاها كما يتخطى أحدهم الجدول الصغير ، وعمره الله دهرًا طويلاً حتى أدرك موسى عليه السلام ، وكان جبارًا في أفعاله ، يسير في الأرض براً وبحراً ، ويفسد ما شاء ، ويقال : إنه لما حصرت بنو إسرائيل في التيه، ذهب فأتى بقطعة من الجبل على قدرهم، واحتملها على رأسه ليلقيها عليهم ، فبعث الله طيراً في منقاره حجر مدور ، فوضعه على الحجر الذي على رأسه ، فانتقب من وسطه ، وانخرق في عنقه ، وأخبر الله عز وجل نبيه موسى بذلك ، فخرج إليه وضربه بعصاه فقتله ، ويقال : إن موسى عليه السلام كان

طوله عشرة أذرع ، وعصاه عشرة أذرع ، وقفز في الهواء عشرة أذرع وضربه فلم يصل إلى عرقوبه .. فتبارك الله أحسن الخالقين) .

و العجيب أن يزعم راوي الأسطورة أنّ عوجاً عاش ــ وهو الحفيد لآدم ــ حتى عهد موسى ، أي : أكثر من سبعة آلاف سنة ... ؟؟؟؟

وتمضي الأسطورة فتحكي عن عنق أم عوج فتقول : (عنق بنت آدم عليه الصلاة والسلام ؟؟) وكانت مفردة بغير أخ ، وكانت مشوهة الخلقة ، لها رأسان ، وفي كل يد عشرة أصابع ، ولكل أصبع ظفران كالمنجلين) ، وقال علي ابن أبي طالب: (هي أول من بغى في الأرض ، وعمل الفجور ، وجاهر بالمعاصي، واستخدم الشياطين ، وصرّفهم في وجوه السحر ... فأرسل الله عليها أسداً أعظم من الفيل فهجم عليها وقتلها ، وذلك بعد ولادة عوج بسنتين) [أقول : هذا كلام مُفتَرى على عليّ كرّم الله وجهه ، ما كان للدكتور أن يأتي به هنا، وأتحدى من يأتي بإسناد صحيح له].

إنّنا لم نأت بكل ما قيل عن عنق وولدها عوج ، وقد اختصرنا شيئا من أخبارهما لكي نظهر ما بلغته الأساطير من السيطرة على عقول الناس قديماً ، وحين تأتي الأساطير في كتاب مقدس مثل التوراة فإنّها تستبد بعقول الأتباع ، وتحجب عن أبصارهم بصيص العقل ، وهو ما غرقت فيه عقول كثيرين طوال قرون عديدة .

الفصل الرابع

حديث القرآن

جدير بنا أن نذكر السور القرآنية التي تعرضت لقصة الخلق، وما يتصل بها مُرتَّبة حسب النـــزول،[أقول : ترتيب سور القرآن في المصحف توقيفي، أمّا ترتيبها حسب نزولها فاجتهادي، ولم يتّفق العلماء على ترتيب لها مُعيّن قطعي، ناهيك عن وجود آيات مدنيّة في سور مكيّة، وبالعكس ، فاعتماد الدكتور على هذا الأمر للوصول إلى حقائق علميّة ليس من العلم في شيء] لنتابع من خلال هذا الترتيب تدافع معاني الوحي القرآنية ، ومنهجه في سوق الأحداث والحقائق ، كما أراد الله للإنسان أن يتعلمها، وقد جاء الترتيب هكذا :

رقم السورة حسب النـــزول	اسم السورة	ملاحظات
١	العلق	الإشارة الأولى للإنسان.
٤	المدثر	الإشارة الأولى للبشر.
٧	الأعلى	{ الذي خلق فسوى }(لأول مرة)
٢٧	التين	إشارة عامة لخلق الإنسان {في أحسن تقويم }
٣٠	القيامة	الذكر والأنثى ـــ نطفة من {منيّ يمنى. ثمّ كان علقة فخلق فسوّى}
٣٢	المرسلات	أشارة إلى الماء المهين ، والقرار المكين .

٣٣	ق	إشارة إلى حضور الله في خلقه .
٣٥	الطارق	إشارة إلى مادة الخلق في الصلب والترائب والماء الدافق من بينهما
٣٧	ص	قصّة الخلق والملائكة وإبليس للمرّة الأولى(دون ذكر آدم)
٣٨	الأعراف	الخلق والتصوير ثمّ قصّة آدم والملائكة وإبليس ـــ(آدم يذكر لأول مرة)
٤٠	يس	**{ أولم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين}**
٤١	الفرقان	الماء والبشر ، والنسب والصهر
٤٢	فاطر	**{ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً }**
٤٣	مريم	**{ أولا يذكر الإنسان أنّا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً }**
٤٤	طه	**{منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى}** آدم وحياته الأرضية
٤٩	الإسراء	اعتراض إبليس على السجود للطين، وحوار بين الله وبينه.
٥٣	الحجر	الخلق من صلصال من حمإ

		مسنون إلى آخر القصة.
٥٤	الأنعام	إشارة إلى الخلق من الطين لا شك في هذا.
٥٥	الصافات	إشارة إلى الخلق من الطين اللازب .
٥٩	غافر	إجمال مراحل الخلق والشيخوخة
٦٨	الكهف	علاقة التراب بالنطفة **{ثم سواك رجلاً}**
٦٩	النحل	**{خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين }**
٧٠	نوح	الأطوار، والإنبات من الأرض والعودة إليها.
٧٢	الأنبياء	الحياة من الماء **{وجعلنا من الماء كل شيء حي }**
٧٣	المؤمنون	تفصيل مراحل الخلق**{من سلالة من طين**
٧٤	السجدة	**{ بدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين }**
٨١	الانفطار	**{خلقك فسواك فعدلك}**[أقول: الفاء هنا حرف عطف يفيد الترتيب مع التعقيب دون تراخ، بمعنى أنّه لا توجد مهلة زمنيّة بين التسوية والعَدْل]

٨٣	الروم	الخلق من تراب ثم الانتشار على الأرض بشراً .
٨٧	البقرة	الخلافة والسجود من الملائكة والتمرد من إبليس .
٩٣	النساء	الخلق من **{نفس واحدة وخلق منها زوجها}**
٩٨	الرحمن	الخلق والبيان **{ من صلصال كالفخار}** خلقه فعلّمه فصار إنساناً. [أقول: بل خلقه بشراً إنساناً ، ثمّ علّمه]
٩٩	الإنسان	**{ حين من الدهر }** هو الماضي البشري **{لم يكن شيئاً مذكوراً}** [أقول : لم يكن شيئاً مذكوراً وهو علقة]
١٠٤	النور	والله خلق كل دابة من ماء، وأشكال الخلق.
١٠٥	الحج	تقرير كامل ونهائي عن خلق الإنسان ومراحله .
١٠٨	الحجرات	ذكر وأنثى شعوب وقبائل تعارف: حضارة

لقد بدأ القرآن ومضته الأولى بالآيتين الكريمتين : **{ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق }** (العلـق : ١ ـ ٢)، وهي بداية رائعة ، تتضمن

تعريف الله سبحانه وتعالى لذاته، وهو يخاطب مصطفاه محمداً خطابه الأول، ولتحقيق هذا الغرض يذكر من صفاته الحسنى صفة (الخالق)، وليس دون هذه الصفة إمكان للتعرف ، وفي الحديث القدسي :(كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف ، فخلقت الخلق ، فبي عرفوني) [أقول : هذا حديث لا أصل له ، ويُردُّ متناً، لأنَّه يحرم تشبيه الله تعالى بالمادّة ، فالله ليس كمثله شيء] وبدهيّ أن يتعرّف المخلوق على خالقه، سيما وهو يخاطبه، ويعرفه بنفسه، ويزوده بأدق المعلومات عن أصل الصنعة : **{خُلق الإنسان من علق}**، وهي معلومة موضوعية خالصة.

وبدهيّ أيضاً أن يثير هذا السؤال في نفس المخاطب (محمد) أشواقاً إلى معرفة لا نهاية لها، وتطلعاً إلى إدراك العلاقة بين (العلق) في مهانته، وقلة شأنه، و(الإنسان) في مهابته وعظم شأنه ، في شخص المخاطب الأول بهذا الكلام (محمد المصطفى) صلى الله عليه وسلم .

ويأتي بعد ذلك الحديث القرآني الثاني عن (الإنسان) ، فإذا هو لا يذكره بلفظه .. بل يستخدم لفظاً آخر يدل عليه ، هو (البشر).

[أقول : للمرّة الثانية يعترف الدكتور بأنّ القرآن استخدم كلمة البشر لتدلّ على الإنسان ، وهذا مناقض لقوله : إنّ البشر كانوا متوحشين ، وأنّهم قد انقرضوا قبل خلق آدم الإنسان] وذلك في السورة الرابعة من التنزيل العزيز، سورة (المدثر) وترد فيها لفظة (البشر) أربع مرات في الآيات : (٢٥) **{ إن هذا إلاّ قول البشر}** و (٢٩) **{ لواحة للبشر }** و (٣١) **{وما هي إلاّ ذكرى للبشر}** و(٣٦) **{ نذيراً للبشر }** .

ولا ريب أنّ مدلول الكلمة في الآيات الأربع يعني المخلوق المخاطب بالآيات المنـــزلة من الوحي ، أي : الإنسان في عمومه ، ثم لم ترد كلمة (البشر) بعد ذلك في جملة من السور بترتيب النـــزول ، حتى السورة السادسة والثلاثين ، وهي سورة القمر، وذلك في سياق قصة النبي صالح مع قومه ثمود ، حين قال قائلهم : {**أبشراً منّا واحداً نتّبعه** } (القمر : ٢٤) .

[أقول : المقصود هنا هو النبي صالح عليه السلام ، وهو بشرٌ من أبناء آدم الإنسان ، لا من قومٍ قد انقرضوا قبله ، فتأمّل !] .

بيد أنّ الإشارة التي تعتبر إضافة إلى المفهوم الأول للخلق باعتباره المرحلة الأولى جاءت في السورة السابعة (في ترتيب النـــزول) وهي سورة الأعلى ، فذكرت المرحلة الثانية في إنجاز المشروع ، وهي مرحلة التسوية ، فقال تعالى : { **سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى** } (الأعلى : ١ ــ٢) ، والتسوية عمل إلهي سوف يرد ذكره باعتباره دائماً الخطوة الثانية في بناء هذا المخلوق .

[أقول : مفاهيم الخطوة الأولى والخطوة الثانية في خلق آدم ، والمرحلة الأولى، والمرحلة الثانية، والمشروع والمشاريع المُتقاطرة، ما هي إلاّ هذرمات من الدكتور لا دليل عليها في القرآن، ولا في السنّة، ولا تمتّ إلى الحقيقة بصلة، فالفاء في "فسوّى" حرف عطف يدل على الترتيب والتعقيب دون تراخ، بما يُفهم منه تمام التسوية بعد أو مع خلق آدم مُباشرة]

والمذكور هنا هو مطلق الخلق ، ومطلق التسوية ، دون ذكر لمحلهما.

[أقول : وما العجيب الغريب في ذلك ؟ وهذه من أوائل الآيات المكيّة

نزولاً، ومعلوم أنّ الآيات المكيّة الأولى نزلت مجملة وقصيرة، أمّا التفاصيل فجاءت فيما بعد في آيات أخر.] وهل هو البشر، أو الإنسان، لكن السياق يصرف العبارة إلى بيان {**خلق الإنسان من علق** } الذي أشارت إليه السورة الأولى.

[أقول: الذين خُلقوا من علق هم البشر عموماً (جنس الإنسان)، ما عدا آدم (الذي خُلق من الطين بعد تجفيفه وتسويته، ونفخ الله من روحه فيه) وحواء التي خُلقت من آدم، ولم يُخبرنا القرآن كيف خُلقت] ثم جاء ذكر (الإنسان) في سورة التين، وهي السورة السابعة والعشرين نزولاً، وذلك قوله تعالى:{ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين*إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غير ممنون**} (التين:٣-٦) والإشارة هنا إلى (الإنسان) الذي خلق من علق، وعلّمه الله ما لم يكن يعلم ، فانقسم هذا الإنسان إلى مستوى رفيع {**في أحسن تقويم** } ومستوى وضيع {**أسفل سافلين**}، وهو وصف للواقع الذي يخاطبه الوحي القرآني في مكة : أناس آمنوا فارتفعوا ،وأناس كفروا فاتّضعوا .

ثم يعود القرآن إلى خلق الإنسان في سورة القيامة ، وهي السورة الثلاثون نزولاً، وذلك في قوله تعالى:{ **أيحسب الإنسان أن يُترك سدى * ألم يك نطفة من مني يمنى* ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى**} (القيامة : ٣٦ ــ ٣٩) وفي هذه الآيات إشارة إلى المرحلة السابقة على : { **خلق الإنسان من علق** } ، وهي مرحلة النطفة من المني يقذفها الرجل في رحم المرأة ، لتصبح من بعد علقة يتخلّق منها الذكر والأنثى .

وتضمنت الآيات ـــ مما أدركه العلم الحديث ـــ إشارة دقيقة إلى أنّ تحديد نوع الجنين، ذكراً كان أم أنثى ، يتوقف على مني الرجل ، لا على بويضة المرأة.

وهكذا أفادت هذه الآيات مزيداً من المعرفة بعملية الخلق وتفسيره ، فهي في الحقيقة بيان لما أجمله النص الأول في سورة العلق .

وكان حرص القرآن في تلك المرحلة الأولى على تأكيد العلاقة بين الحياة والموت والبعث ، فهو في آيات القيامة يختمها بقوله : { **أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى**} (القيامة : ٣٩) وهو في السورة التالية لها، سورة المرسلات (الثانية والثلاثين نزولاً) يعيد هذه الحقيقة في قوله تعالى:{ **ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه في قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون** } (المرسلات : ٢٠ ـــ ٢٣) ،وهو هنا يضيف (المني) المذكور في سورة القيامة بأنّه (ماء مهين) ، ولكن القدرة المقدرة هي التي جعلت هذا الماء إنساناً سوياً .

ونزلت بعد ذلك سورة (ق) وهي السورة الثالثة والثلاثون ـــ لتفيد حضور الله في نفس الإنسان : { **ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** } (ق : ١٦) ، فكيف يفلت الإنسان من قبضة الله ؟؟

[أقول : قول الدكتور : "حضور الله في نفس الإنسان " غير وارد في الآية ، فالله تعالى يقول :"ونعلم"، ولم يقل "ونحضر"، ويؤكّد ذلك قوله تعالى : {**ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**}الذي يعني شدّة القرب، لا الحلول في نفس الإنسان، وقد ضلّ القائلون بالاتّحاد والحلول ضلالاً بعيداً، لأنّ الله يكون مع كل مُتناجيين فأكثر، فيما لا يُحصى من الأمكنة، وهو في السماء، وعلى

الأرض، وهو الأعلى، وهو على العرش استوى، كلُّ ذلك في آن واحد، دون تبعُّض ولا تجزُّء (لا ندري كيف) فهو معنا، وليس فينا، قال تعالى: { **وهو معكم أينما كنتم** } (الحديد : ٤) ولا يعني ذلك أنَّه يكون في كلِّ مكان كما زعم بعضهم، لقوله تعالى: {**ويعلم ما في الأرحام**}]

ثمّ يأتي النص في سورة (الطارق) ليضيف مزيداً من المعلومات عن الماء الدافق (المني) الذي (يخرج من بين الصلب والترائب) ، وهي معلومة لم تكن معروفة حتى عصرنا، و (الطارق) هي السورة الخامسة والثلاثون نزولاً.

ثم نزلت سورة (ص) تذكر قصة الخلق لأول مرة ، وهي السورة السابعة والثلاثون نزولاً، قال سبحانه وتعالى:{ **إذ قال ربك للملائكة إنّي خالقٌ بشراً من طين فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلاّ إبليس استكبر وكان من الكافرين * قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين * قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإنّ عليك لعنتي إلى يوم الدين * قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون * قال فإنّك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلاّ عبادك منهم المخلَصين * قال فالحق والحق أقول * لأملأنّ جهنّم منك وممن تبعك منهم أجمعين** } (ص: ٧١ــ ٨٥)

هذا النص القرآني يتضمن لأول مرة أساسيات القصة ؛ قصة الخلق ، من مبدئها إلى منتهاها، وكل ما جاء بعد ذلك من نصوص القرآن متحدثاً عن هذه القصة ــ يضيف بعض التفاصيل التي تثري جوهرها، وتوضح بعض غوامضها.

والأساسيات التي نقصدها في القصة هي :

١ ـــ إخبار الله للملائكة بأنّه سيخلق البشر.

[أقول : لم يقل الله إني خالق البشر، بل قال :{بشراً} بصيغة المفرد، والمقصود هو آدم أبو البشر وحده ، لقوله تعالى : {... **فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**} فالله جلّ وعلا لم يأمر الملائكة بالسجود لجميع البشر]

٢ ـــ خلق البشر من طين ـــ التسوية ـــ النفخ من روح الله ـــ الإنسان .

٣ ـــ أمر الملائكة ومعهم إبليس بالسجود للمخلوق عند استوائه واكتماله.

٤ ـــ سجود الملائكة أجمعين .

٥ ـــ رفض إبليس للسجود استكباراً .

٦ ـــ ادّعاؤه الخيرية على آدم بخيرية النار على الطين .

٧ ـــ طرد إبليس وإمهاله إلى يوم الدين .

٨ ـــ توعد إبليس بغواية بني آدم ، إلاّ المُخلَصين .

٩ ـــ وعيد الله بجهنم [لإبليس] ولمن اتّبع إبليس .

هذه الأساسيات تتكرر في جميع المواضع الأخرى في السور التالية ، ولكنها تزيد بعض التفاصيل المثرية ـــ كما قلنا ـــ وهو ما نلاحظه مثلاً في السورة التالية نزولاً : السورة الثامنة والثلاثين ، وهي سورة الأعراف .

غير أنّنا نلاحظ بداية أنّ القصة في سورة (ص) لم تتضمن ذكر آدم .. بل اقتصرت على الإشارة إلى أنّ المخلوق ـــ موضوع الحديث ـــ هو (بشر)

فحسب ، ثم جاءت سورة الأعراف لتذكر آدم للمرة الأولى في الوحي القرآني، فكان ذلك تفصيلاً بعد إجمال ، ومع ملاحظة أنّ السورتين متتاليتان ، ولكـــي نعرض تفاصيل القصة نتابع مناقشة كل أساسية على حدة .

الفصل الخامس

أولاً : إعلام الملائكة

قول الله سبحانه وتعالى للملائكة: {**إنّي خالق بشراً**}، وهي عبارة تحمل كثيراً من المعاني، ذلك أنّ الآية تبدأ بعبارة : {**إذ قال ربك للملائكة**} فهي تستخدم لفظة (الرب) مضافة إلى ضمير المخاطب ، وهو:(محمد صلّى الله عليه وسلّم) ، على نسق ما جاء في الخطاب الأول : {**اقرأ باسم ربك الذي خلق**}، وهي إضافة تقرّب النبي من حضرة ربه ، وتدنيه من جلاله، وهو ما جرى عليه الوحي في السّور الأولى بشكل عام .

لكن ... كيف قال (ربك) ؟ وكيف تلقت الملائكة هذا القول ؟ ذلك ما لا سبيل إلى إدراكه ، وإن كان هناك سبيل إلى تأويله : فالرّب إذا تكلم فكلامه ليس بحرف ، ولا صوت ، وهذه صفة كلامه النفسي كما قرّرها علماء الكلام.

[أقول : علم الكلام ليس مصدراً شرعيّاً ، وهذا خوض في أمر من الغيب، لا سبيل إلى إثباته بالكلام ولا بغيره، ولا فائدة من بحثه.] ولكنّ إدراك الخطاب الإلهي يتحقق في كل جنس بحسبه ، فإذا تلقى الإنسان ذلك الخطاب فمن خلال الحرف ، والصوت ، واللغة ، وإذا تلقته الملائكة فمن خلال قدراتها التي

تختلف عن قدرات الإنسان ، لاختلاف طبيعتها عن طبيعته ، ولا مانع من أن يكون بلغة ما .. كيفما فطر الله ملائكته.. .

أمّا كيف تمّ هذا الحوار فخوض في غمار الغيب المحجوب ، والحديث فيه اتّباع لما تشابه من آيات الله ، ونسأل الله أن يباعد بيننا وبين الفتن ، وأن يلهمنا القدرة على تأويل هذه المتشابهات بما يليق بجلاله.

[أقول:الآيات المتشابهات في القرآن لا يعلم تأويلها إلاّ الله (بالنص المحكم) إذ الوقوف على لفظ الجلالة في آية آل عمران رقم ٧ واجب حتمي ، لا كما زعم بعض العلماء ، ولبيان ذلك انظر قوله تعالى في سورة (الأنعام : ٣٦) :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ

ولاحظ علامة الوقوف الإجباري على كلمة يسمعون، وبمقارنة هذه الآية مع قوله تعالى في سورة (آل عمران: ٧) :

وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ
يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾

نجد أنّ الوقوف على لفظ الجلالة هنا اختياري، وهو خطأ واضح من الذين رقّموا تلك النسخة من القرآن، ربّما كان سببه علماء الكلام، لأنّ {**إنّما يستجيب الذين يسمعون**}جملة فعليّة تامّة ومفيدة، وقد جاء الوقف عليها إجباريّاً، لأنّ الموتى لا يسمعون، وقوله تعالى :{**وما يعلم تأويله إلاّ الله**} جملة

فعليّة تامّة ومفيدة ، لا فرق بينها وبين سابقتها في النظم، ولأنّ الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل ما تشابه من القرآن بدليل قولهم بعدها: {**آمنا به كلٌ من عند ربّنا**}، أي آمنوا بالقرآن كله(محكمه ومتشابهه)لأنهّ من عند الله، فالواو في : "والموتى"، و"والراسخون " هي واو الاستئناف للابتداء ،لا أنّها قد تكون أداة عطف في آية آل عمران، كما زعم ذلك بعض علماء الكلام]،وكل ما يعنينا هو التسليم بصدق الخبر، ووقوع الحوار، ولله في ذلك حكمة هو أعلم بها، ولا ريب أنّ تلقّي النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الخطاب كان مختلفاً عن تلقينا له ، باعتبار أنّه أعلم بربه ، وأنّه ذو اتّصال بالملأ الأعلى (عالم الملائكة)، منذ جاءه الروح الأمين بالوحي ، فإذا خاطب الله نبيّه فإنّ لهذا الخطاب موقعه من نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى تكاد قدراته الروحيّة ترفعه إلى مرتبة الشهود ، استشفافاً لما وراء الكلمات المنــزلة ، واستشرافاً للحضور القدسي، فهو ماثل على الأرض، وهو في نفس الوقت يعاين من آيات ربه ما لا يعاين الجلوس من حوله ، إن كان الوحي بمحضرٍ منهم .

أمّا الملائكة فحسبنا من وصفهم ما جاء بشأنهم في القرآن، فهم:{ **عباد مكرمون**}وهم لا يسبقون الله سبحانه{**بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون**} (الأنبياء : ٢٧-٢٨) ، وهم كذلك: { **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون** } (التحريم : ٢) .

ووصفهم القرآن أيضاً في مطلع سورة - فاطر أو (الملائكة) - بقوله تعالى : {**الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة**

مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء } (فاطر : ١) .

ولا ريب أنّ لهذه الأوصاف معاني محددة لا نستطيع أن نحيط بها علماً ، وحسبنا هنا أن ننقل عن تفسير (المنار) ما قرّره الأستاذ الإمام محمد عبده، حين تحدث عن الملائكة، فقال : (أما الملائكة فيقول السلف : إنهم خلقٌ أخبرنا الله بوجودهم ، وببعض عملهم ، فيجب علينا الإيمان بهم ، ولا يتوقف ذلك على معرفة حقيقتهم ، فنفوض علمها إلى الله تعالى . فإذا ورد أنّ لهم أجنحةً نؤمن بذلك ، ولكننا نقول : إنها ليست أجنحة من الريش ونحوه كأجنحة الطيور ، إذ لو كانت كذلك لرأيناها، وإذا ورد أنّهم موكلون بالعوامل الجسمانية، كالنبات والبحار فإننا نستدل بذلك على أنّ في الكون عالماً آخر ألطف من هذا العالم المحسوس ، وأنّ له علاقة بنظامه وأحكامه ، والعقل لا يحكم باستحالة هذا ، بل يحكم بإمكانه ، ويحكم بصدق الوحي الذي أخبر به.)

ثم قال : (وأمّا الفائدة فيما وراء البحث في حقيقة الملائكة ، وكيفية الخطاب بينهم وبين الله تعالى فهي من وجوه :

أحدها : أنّ الله تعالى في عظمته وجلاله يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته في صنعه ، وما يخفى عليهم من أسراره في خلقه ، ولا سيما عند الحيرة، والسؤال يكون بالمقال ، ويكون بالحال والتوجّه إلى الله تعالى في استفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه، التي جرت سننه تعالى بأن يفيض منها (كالبحث العملي والاستدلال العقلي، والإلهام الإلهي) وربما كان للملائكة طريق آخر لاستفاضة العلم غير معروف لأحد من البشر ، فيمكننا أن نحمل

سؤال الملائكة على ذلك)[1] .

ثانياً : خلق البشر من طين

ونصّ إعلام الله للملائكة يأتي هكذا { **إني خالق بشراً من طين** } (ص :٧١) واستخدام الصيغة (خالق) هنا يفيد الإحداث .. أي : الإيجاد من عدم والسؤال هو: هل هذه الصيغة في موقعها تفيد الماضي، أو المستقبل ؟ ونرى أنها تفيد الماضي ، أي : إن الله كان قد خلق هذا البشر قبل الإعلام به ، وقد أراد أن يخبر الملائكة تهيئةً لهم ، حتى يتابعوا أحوال المخلوق، خلال مراحل التسوية والنّفخ الإلهي - كيما يقعوا له ساجدين - كما أمر الله ، ولعلّ ذلك (الخلق) داخل في الأمر الأزلي (الخالق) (كن) وهو أمر لم تعرف الملائكة كل تفاصيله ، إلاّ أن يأذن لها الله بذلك . أما بقيّة الإعلام فيتضمن ذكر (البشر) و (الطين) والعلاقة بينهما .

[أقول : رأي الدكتور: أنّ كلمة "خالق" تفيد الماضي ، لا يصحّ لغة ولا شرعاً ولا عقلاً، فالدكتور هنا قد وقع في الفهم الخطأ، لأنّ كلمة "خالق" تعني أنوي الخلق (أي في المستقبل) ولو كان آدم مخلوقاً آنذاك لقال :"إني خلقت بشراً من طين" وهو ما لم يكن.] فأمّا البشر فهي تسمية لذلك المخلوق الذي أبدعه الله تعالى من الطين ، وأصله في اللغة من (ب ش ر) ، وهو يفيد (الظهور مع حسن وجمال)، قال ابن فارس: هو أصل واحد : ظهور الشيْ مع حسن وجمال ،

---

[1] تفسير المنار ١/٢١٢-٢١٣ .

وسمّى البشر بشراً لظهورهم [1] وفي المعجم الكبير: البشر ..الإنسان ، للذكر والأنثى، وللواحد والجمع ، وقد يُثنّى كما جاء في القرآن : { **أنؤمن لبشرين مثلنا** } (المؤمنون : ٤٧)، وقد يجمع على (أبشار) [2] لكن الغالب الكثير فيه إفراده، مع ملاحظة أنّ الكلمة جامدة، لا تتصرّف بوجه من الوجوه. والمعنى المتناسب هنا هو ظهور هذا المخلوق من بين تراب وماء ، أي : من طين ، كما ورد ذلك في الإسراء ، والأنعام ، والصافات ، وكان خلقه بكل بساطة كما ظهرت النباتات، وهو قوله تعالى في سورة نوح (السبعين نزولاً):{**والله أنبتكم من الأرض نباتاً**} (نوح : ١٧)

ومع أنّ كل حيوان أو طير أو حشر - إلى آخر سلسلة الكائنات - هو من طين ، فإن البشر هو أبرز هذه المخلوقات، وآكدها وجوداً ، فلذلك أطلق عليه في القرآن (البشر).. أي : الظاهر على كل الكائنات الطينيّة .. يسخرها لخدمته ، ويستمد منها قوته وقوّته ، ويصارع وجودها تأميناً لوجوده.

[أقول : هذا المعنى لكلمة بشر لا وجود له في اللغة ، وقول الدكتور: "فلذلك أطلق الله عليه " تحكّمٌ لا دليل عليه! إذ ما أدرى الدكتور أنّ الله تعالى أطلق عليه هذا الإسم لأنّه الظاهر على كل الكائنات الطينيّة ؟! ونحن نعلم أنّ كلمة بشر إنّما جاءت من ظهور جلده (بشرته) أو من ظهور البشر على وجهه عند شعوره بالفرح والسعادة ، وكذلك باقي الانفعالات من الرضا والغضب والحزن واليأس، واللّذة والألم وغيرها، دون الحاجة للتعبير عنها

---

[1] مقاييس اللغة ٢٥١/١ .

[2] المعجم الكبير ٣٣٥/٢ ، وسوف يتحدّد المعنى في سياق المعالجة .

بالكلام ، وهي خاصيّة له لا يشاركه فيها مخلوق آخر، ناهيك عن عدم كسوة جلده بشعر كثيف أو صوف أو غيره ، ليحميه من الحرّ والقر]

وربما كان إنطلاق كلمة (بشر) أيضاً بهذا المعنى ، وهو (الظهور) – مقابلاً لما يتصف به عالم الملائكة، وعالم الجن، من عدم الظهور، فهم خلق لا يُرى، وقد قرر القرآن ذلك بشأن (الجن)، إذ هي كلمة مشتقةٌ من معنى : (الاجتنان) وهو الاستتار، والله يقول عن الشيطان وقبيله :{**إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم**} (الأعراف : ٢٧)، فالظهور في البشر، والخفاء في الجن – هما حقيقة الحياة التي تعمر هذه الأرض، على اليابسة، والماء ، وفي جو السماء .

والعجيب أنّ للعربية هنا تميزاً وتفوقاً على اللغات الأخرى ، فقد حققت بهذا اللفظ (بشر) تطابقاً عجيباً في معناه ، وكأنما كانت تستملي الغيب ، وتستقرىء أستاره، ليمنحها هذه اللفظة ، دون اللغات الأخرى في الفصيلة السامية ، بل دون ما عهدنا من اللغات الأوروبّية .

فاللغات السامية كالسريانيّة، والحبشية، والآرامية – لا تعرف كلمة (بشر)، بل ولا تعرف كلمة (إنسان) وإنما المستخدم فيها هو ما يؤخذ من كلمة (آدام) ، أو (بني آدام)، وقد عرفت العبريّة هاتين الكلمتين فعلاً للدلالة على (الإنسان)، وأما (بشر) فقد جاء في سفر تكوين لفظها بالسّين (بسر) ، وهي بمعنى (لحم) وبمعنى (نفس) في عبارة العهد القديم : (كل بسر حي) ، أي : كل نفسٍ حيّة [1]

---

[1] معلومات مستقاة بواسطة الزميل الدكتور عبد الرحمن عوف – أستاذ العبرية بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة .

غير أنّ هذه الكلمة (بسر) على خلاف القاعدة الغالبة بين العربية والعبريّة بالشّين مثل : سلام وشالوم ، وسماء وشماى . وطرداً لهذه القاعدة كان الأنسب أن تكون بالسين في العربية وبالشين في العبرية ، لكن ما حدث هو العكس .

هذا من ناحية اللفظ ، وأمَّا من ناحية المعنى، فهناك اختلاف كامل بين معنى الكلمة (بشر) في العربية ، ومعنى (بسر) في العبرية ... وهي علامة استفهام تحتاج إلى إجابةٍ حاسمة .

وفي الفارسية استخدمت الألفاظ العربية، مع كلمة (مرْد) وهي الوحيدة في اللسان الفارسي بمعنى(رجل، ونفر، وشخص، وإنسان) وهي أيضاً كلمات مستخدمة فيها.

وفي اللغة الأرديّة استخدمت كلمة (آدمي) في ترجمة كلمة (بشر) ، واستخدمت كلمة (إنسان)[٢] .

وأمّا اللغات الغربية فمنها الإنجليزية ، وقد استخدمت كلمة (man) بمعنى (بشر وإنسان) ، وقد استخدم محمد بكثال في ترجمته للقرآن كلمة mortal بمعنى (بشر) ، وكلمة man بمعنى (إنسان) ، في حين استخدم المترجم عبدالله يوسف علي كلمة man في كلا المعنيين . ومع أنَّ الإنجليزية عرفت كلمتين هما : mankind و- human being ، فإن كلتيْهما ذات علاقة بمعنى (إنسان).

وكذلك الفرنسيّة، فقد جاء في ترجمة دنيس ماسون استخدام كلمة

---

[٢] قرآن حكيم – أردوترجمة – سيّد بشير أحمد .

homme مقابل (إنسان) ، و mortel مقابل (بشر) ، وفي ترجمة صلاح الدّين كشريد homme : إنسان ، و etre humain : بشر ، واقتصر محمد حميد الله على كلمة homme للمعنيين ، في حين استخدم جاك بيرك home : إنسان ، وhumain : بشر .

ولا يخفى أن المراد بكلمة mortel هو: الفاني أو الهالك ، في حين تعني عبارة etre humain أو human being : كائن إنساني ، فلم تعرف اللغتان ما عرفته العربيّة لكلمة (بشر) من تقابل معناها مع المقصود بكلمة (جن أو ملك) ، أو دلالتها على الحسن والجمال .

وقد استخدم مترجم القرآن إلى اللغة المجرية كلمة ember وهي بمعنى : (إنسان) في ترجمة كلمة (بشر) [1] .

كما استخدمت اللغة التركيّة كلمة (إنسان) في الوضعين [2] .

ومهما تتبّعنا ترجمات القرآن في اللغات المختلفة، فإنّنا لا نجد سوى كلمة منه[أقول : هذا كلام غير مفهوم، ولا أدري مقصوده] في مراجعنا لمجموعة الترجمات التي أصدرها مجمع الملك فهد بن عبد العزيز بالمدينة المنوّرة ، وقد بلغت عدها تسع عشرة ترجمة باللغات الإسلاميّة وغيرها، وهو دليل على أنّ مترجمي القرآن لا يجدون في لغاتهم سوى كلمة واحدة للمعنيين، وهي دائماً بمعنى (إنسان) .

---

[1] ترجمة القرآن إلى اللغة المجرية –كونفيك هيلكون – سورة الحجر – ص ١٨٤ .

[2] ترجمة القرآن إلى اللغة التركيّة – مجمع الملك فهد – المدينة المنوّرة ص٢٦٢ .

استعمالات القرآن لكلمة (بشر)

ولو أنّنا تتبّعنا استعمال القرآن لهذه الكلمة فسنجد أنّها استخدمت في نفس السياق ، وبنفس المعنى (مخلوق ظاهر مع حسن وجمال) ، في أربعة مواضع هي قوله تعالى (على ترتيب النـــزول) :

١) **{إذ قال ربّك للملائكة إني خالقٌ بشراً من طين}** (ص :٧١).

[أقول : المقصود هنا آدم الإنسان عليه السلام، أول بشر، وأبو البشر، وهو الخليفة الجديد في الأرض، بدليل قوله تعالى بعدها : **{فإذا سوّيتُهُ ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين}** فهو واحد فرد].

٢) **{وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً}** (الفرقان :٥٤) .

[أقول : بشراً هنا تعني جميع الناس (خلقهم من ماء مهين) ما عدا حوّاء، وآدم، وعيسى، عليهم السلام.]

٣) **{وإذ قال ربّك للملائكة إني خالقٌ بشراً من صلصالٍ من حمإٍ مسنون}** (الحجر : ٢٨) [أقول : هو آدم عليه السلام ، في طوره الأخير من الطين]

٤) **{ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشرون}** (الروم :٢٠)

[أقول : المقصود هنا جنس الإنسان، أي جميع الناس بما فيهم آدم وحوّاء وعيسى، عليهم السلام ، وقد سمّاهم الله هنا **{بشر}** صراحة.]

أمّا بقيّة المواضع فقد استخدمت فيها الكلمة بمعنى عام، هو (مخلوق غير متميّز)، أو بمعنى أعم : (مخلوق) [أقول: أين دليلك يا دكتور؟ أم أنّ قولك يكفي؟ وأين هذا من قوله تعالى:**{وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن متّ**

فهم الخالدون} (الأنبياء ٣٤) ؟ هذه الآية تخاطب النبي محمداً شخصيّاً فلماذا أغفلها الدكتور يا ترى، وهي تنصّ على أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلّم من البشر؟!] فإذا أريد تمييز هذا المخلوق ألحقت الكلمة بوصف مميّز كما في قوله تعالى:**{فتمثل لها بشراً سوياً}** (مريم :١٧) أي : مخلوقاً معتدلاً، لا إفراط ولا تفريط. [أقول : المقصود هنا الملك الذي أرسله الله لينفخ في فرج مريم من روح الله، فتمثّل لها على شكل إنسان سوي]، وقوله تعالى :**{قل سبحان ربي هل كنت إلاّ بشراً رسولاً}** (الإسراء : ٩٣) أي : مخلوقاً مرسلاً من الله.

[أقول: الاستواء يصحّ وصف البشر به لتعلّقه بشخصه وجسمه، أمّا الرسالة فتتعلق بوظيفته ومهمته ، فلا يصحّ الاستدلال بها على صفة في شخصه وهذه الآية نصّ صريح على بشريّة الرسول صلّى الله عليه وسلّم] وقوله تعالى : **{قل إنّما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إليّ}** (فصّلت : ٦) فهو مخلوق متميّز على كل المخلوقات بالوحي المنـــزّل .

[أقول : قول النبي صلّى الله عليه وسلّم هنا واضح لا مجال للتحايل عليه ، ويُفهم منه صراحة أنّ النبي (محمّد) بشرٌ، وبديهيّ أنّه إنسان، مثله مثل من يقوم بتبليغهم من بني قومه، وفي هذه الآية وأمثالها الردّ القاطع على خطأ الدكتور في زعمه أنّ آدم أبو الإنسان غير آدم أبو البشر، وتناقضه مع قوله: إنّ البشر قد انقرضوا قبل مجيء آدم أبو الإنسان، أنظر صفحة ١٥، وغيرها]

وقد يُضمر الوصف ويبرزه السياق، كما في قوله تعالى: **{ ما هذا بشراً إن هذا إلاّ ملك كريم }** (يوسف : ٣١) فمع أنّ كلمة (بشراً) هنا نكرة ، فإنّ السياق يُفيد أنّ المشار إليه ، وهو (الجمال) ليس جمال مخلوق بشر .. بل هو

جمال ملك كريم ، وهي جملة تأتي على سبيل المبالغة ، وإلا فالملك الكريم مخلوق أيضاً كالبشر ، والمعنى في النهاية : هذا بشر جميل فائق الجمال ، حتى فاق جنسه [أقول : يقرّ الدكتور شاهين هنا بأنّ يوسف عليه السلام من جنس البشر، ويوسف إنسان من بني آدم، وهذا يناقض ما قاله سابقاً ص : ١٥،فتأمّل!]، ودخل في جنس آخر أجمل وأرقى [أقول : هذا تحكّم]

وقد جاء استخدام اللفظة بالمعنى العام في قوله تعالى: **{أبشراً منا واحداً نتّبعه}** (القمر : ٢٤) ، وهو إنكار من قوم ثمود أن يكون صالح بشراً متميزاً عليهم، وهو قول تكررت روايته في القرآن في نفس السياق القصصي : **{ ما أنت إلاّ بشر مثلنا }** (الشعراء : ١٥٤) ، فعدم التمييز هنا يعتبر وصفاً كالتمييز تماماً.

[أقول: وهذا دليل آخر على أنّ البشر هم آدم وحوّاء وأبناؤهما من الإنس]

واستخدمت الكلمة بالمعنى الأعم في مثل قوله تعالى على لسان مريم : **{أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر}** (مريم : ٢٠) ، أي : مخلوق على الإطلاق.

[أقول : هذا خطأ فاضح، فيه إساءة إلى بلاغة القرآن، وفيه قلب للحقائق، فالغلام يدلُّ على ولد ابن آدم ، ولا غلام دون جماعٍ بين رجل وامرأة ، ولا مخلوق غير الإنسان يُسمَّى ولده غلاماً، أمّا ما يُفهم من قول مريم عليها السلام وسؤالها في هذه الآية المحكمة فهو : من أين وكيف يكون لي غلام(ولد) ولم يجامعني بشر، أي رجل (ذكر) من بني جنسي؟! ومن المعلوم أنّها كانت عذراء وحملت بعيسى عليه السلام، وهي عذراء ، ثم ولدته كما تلد غيرها من النساء].

ولم تخرج الكلمة في الاستعمالات القرآنية عن هذا الإطار ، مع ملاحظة أنّها وردت في الوحي المكي في سبعة وعشرين موضعاً ، ولم ترد في الوحي المدني إلاّ في أربعة مواضع ، مقتصرة على إفادة معنى (مخلوق) فقط .

[أقول : هذا كلام مردود على صاحبه، فكلمة بشر وإن كان من صفات البشر أنّه مخلوق ، إلاّ أنّها كلمة وُضعت لتدلّ على مخلوق معيّن هو الإنسان ، لا على أي مخلوق، ولا على كلّ مخلوق بإطلاق (انظر سورة الأنبياء :٣٤)]

وهي الآيات :

١- { **قالت أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر** } (آل عمران : ٤٧).

٢- { **ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة** } (آل عمران:٧٩).

٣- { **فقالوا : أبشر يهدوننا** } (التغابن : ٦) .

٤- { **بل أنتم بشر ممن خلق** } (المائدة : ١٨) .

[أقول :كلمة بشر في رقم ١ أعلاه تعني إنسان ذكر، وفي ٢: تعني إنسان لتمييزه عن الملاك، وفي ٣: أي لماذا لا يكون الرسل ملائكة، لا بشراً ؟ وفي ٤: ردّ على أهل الكتاب، أنّهم بشر كغيرهم من الناس يصيبهم ما يصيبهم]

وخلاصة القول أنّ الكلمة جاءت في القرآن بمعان أربعة :

الأول : **البشر** هو: الظاهر على كل الكائنات ....(وهو المعنى الأصلي)

[أقول : بل هو وصف للمخلوق الجميل الذي هو آدم (الإنسان)، ثمّ استخدم اسماً مرادفاً للإنسان، فحيثما وجدت كلمة بشر فإنّها تعني آدم وأبناءه لا غيرهم، وجميع الآيات المتعلّقة بهذه المسألة في القرآن تدلّ على ذلك]

الثاني : **المخلوق بإطلاق** (وهو المعنى الأعم)

الثالث : المخلوق غير المتميّز (وصف سلبي)

الرابع : المخلوق المتميّز (وصف إيجابي)

ومن الواضح أنّ المعنى الأصلي الحقيقي هو المعنى الأول، أمّا المعاني الثلاثة الأخرى فهي معان سياقية يمكن اعتبارها توسعاً في استخدام المعنى الأصلي، وهو فيما لاحظنا أكثر شيوعاً في الاستعمال القرآني .

[أقول : المعاني الثلاثة الأخيرة لا واقع لها في اللغة ، والمعنى الأوّل تمّ فيه تحريف الكلم عن مواضعه، وقد عمد إليه الدكتور ليتّكىء عليه فيما بعد، فيبني عليه باطله، وهو تفسير متحكّم لا تسيغه لغة، ولا يقبله عقل، ولا يتّفق مع آيات القرآن الأخرى ، وقد جاء في كتابي: " القرآن وأوهام القراءة المعاصرة "رد علمي شامل على كتاب: "الكتاب والقرآن قراءة مُعاصرة " للدكتور محمد شحرور (ص :٢٠٩ ــ ٢١٧) تحت عنوان : الخلق ــ"آدم أبو البشر" :

يقول المؤلّف أ.د.محمد شحرور (ص ٢٨١) من كتابه :الكتاب والقرآن ــ قراءة معاصرة :"وقد قلنا: إنّ الخلق هو التقدير قبل التنفيذ، لذا فعندما قال للملائكة (إنّي خالق بشراً) فهذا يعني أنّ البشر لم يظهر بعد ، لذا أتبعها بقوله : (فإذا سوّيته) ثمّ أتبعها بقوله :(ونفخت فيه من روحي)، وبين الخلق والتسوية توجد الأداة (إذا) وهي ظرف لما يستقبل من الزمان، لذا قال:**{هو الذي خلقكم من طين ثمّ قضى أجلاً وأجل مسمّى عنده ثمّ أنتم تمترون}** (الأنعام ٢)، ثمّ استعمل أداتين معاً وهما (ثمّ، وإذا) في قوله:**{ومن آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون}** (الروم: ٢٠)، وقد استعمل

هاتين الأداتين معاً بسبب الفارق الزمني الطويل بين التراب (المواد غير العضويّة) وبين البشر، هذه المرحلة التي أخذت مئات الملايين من السنين، وقد بيّن أنّ الانتشار في الأرض حصل في مرحلة البشر قبل نفخة الروح، وأنّ البشر كان منتشراً قبل مرحلة الأنسنة، وأنّ البشر هو الشكل المادي الحيوي الفيزيولوجي الظاهري للإنسان ، حيث أنّ الإنسان هو كائن بشري مستأنس، غير مستوحش (اجتماعي)" أ.هـ.

أقول : أخطأ شحرور هنا خطأ فادحاً في تفريقه بين البشر والإنسان ، ثمّ أخطأ في افتراضه أنّ الإنسان بقي في مرحلة الطين والصلصال (مئات ملايين السنين) لاستناده إلى الوهم ، وسيطرة مخلّفات نظريّة داروين على تفكيره ، وقوله هذا لا يقبله العقل ، ولا دليل عليه من كتاب ولا سنّة أيضاً، أمّا الأهم فزعمه أنّ البشر كان بلا نفخة الروح، وذلك يعني أنّ يوسف عليه السلام لم يكن إنساناً، وكذلك عيسى عليه السلام، ولا محمد صلّى الله عليه سلّم، وإلاّ فما معنى قوله تعالى :{**وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلاّ ملك كريم**} (يوسف: ٣١)، وقوله تعالى:{**ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة ثمّ يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله**} (آل عمران :٧٩)، وقوله :{**قل إنّما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنّما إلهكم إله واحد**} (الكهف: ١١٠) ، فأين شحرور وكل هذه الآيات ؟! ألم يقل الله تعالى : {**وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً**}(الفرقان: ٥٤) ؟! وهل يَعقِل من كان حيواناً لا روح فيه، ولا عقل له ؟! وإذا لم يكن البشر

إنساناً فكيف يفقه معنى النسب والمصاهرة ؟! وهل هناك نسب ومصاهرة إلاّ في مجتمع انساني بشري ؟! أمّا حقيقة الإنسان فهي أنّه خُلق بشراً إنساناً منذ نفخ الله فيه من روحه ، ثمّ أنطقه بعد أن علّمه الأسماء كلّها، ومعلوم أنّ الله تعالى قد خلق لآدم من نفسه حوّاء زوج له، فعاشا فترة في الجنّة (اختلف فيها، قال قوم :هي جنّة الخلد، وقال آخرون : هي جنّة المأوى، وهي في الأرض، ولست هنا في موضع ترجيح)، ثمّ عصيا الله تعالى فأكلا من الشجرة المحرّمة ، ثمّ تابا فغفر لهما ربّهما خطأهما، وأهبطهما (والشيطان عدوّهما) إلى الأرض، فكان من نسلهما كل بشر (إنسان) خُلق ومات أو سوف يخلق أو هو حيّ هذه اللحظة، بلا تطوّر ولا تغيّر فيزيولوجي، اللهم إلاّ ما كان من تقدّم ورقيّ فكري حضاري بسبب زيادة المعرفة وتراكمها ونشاط الإنسان وحبّه للكشف وتحسين مستوى معاشه باستمرار، ناهيك عن القفزات المعرفيّة الهائلة الناجمة عن الرسل والرسالات .]

ويقول شحرور (ص ٢٨٢): عن قوله تعالى :{ **وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنّه عليّ حكيم**} (الشورى :٥١) : " هنا يؤكّد طريقة الوحي للجنس البشري ، لأنّه لو كان جنساً آخر لكان من الممكن أن تكون طريقة الوحي غير الذي ذكر فمثلاً في الوحي للنحل، والنحل ليس بشراً كقوله:{**وأوحى ربّك إلى النحل**} (النحل :٦٨) فهذا يعني أنّ طريقة وحي الله للنحل غير طريقة وحي الله للبشر، ولكي يؤكّد أنّ المسيح بشر ، والبشر

إذا أوحي إليه من الله تعالى لا يقول للناس كونوا عباداً لي، فإذا حصل أن قال أحد من البشر للناس كونوا عباداً لي فهذا يعني أنّه دجّال، ولم يوح إليه شيء". أ.هـ.

أقول : إذا لم يكن هذا جهلاً، ولا متعمّداً لغرض في نفس المؤلّف، وإلاّ فما معنى تفريقه بين البشر والإنسان ، وقوله : إنّ البشر كان مبثوثاً في الأرض قبل أن ينفخ الله فيه من روحه، واعتباره نفخة الروح هي الحلقة المفقودة في نظرية داروين ، ليقول لنا أنّ الإنسان كان قرداً أو حيواناً لا يفقه شيئاً قبل نفخ الروح فيه ، وقد علمنا من الآيات القرآنية قطعيّة الثبوت قطعية الدلالة أنّ الرسالات البشريَّة كلها نزلت إلى بشر، وأنّ الله قد أوحى للبشر، فإذا كان البشر مرحلة حيوانية مرّت، فكيف يكلّم الله حيوانات غير مؤنسنة ؟! وهذا (المؤلّف) يُقرّ بأنّ عيسى عليه السلام من البشر ، وعيسى لم يكد يمض على حياته ألفا سنة ، فمتى كانت مرحلة البشر(الحيوان حسب زعم المؤلف)؟ومتى انتهت ؟! وإذا كان ثمة مخلوقات مُشابهة قبل البشر فهم ليسوا من البشر، ولا هم من أبناء آدم، فالله قد جعل آدم ونسله يخلفونهم في الأرض، وقد سمّى الله تعالى البشر بالإنسان والناس، قال تعالى:{**إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً**} (الإنسان :٢)، وقال:{**يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم (٦) الذي خلقك فسوّاك فعدلك (٧) في أيّ صورة ما شاء ركبك (٨)**}(الإنفطار) وقال تعالى أيضاً: { **وقالت اليهود والنّصارى نحن أبناء الله وأحبّاؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشرٌ ممن**

خلق **يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء}** (المائدة :١٨) وهل يعذّب البشر إذا لم يكن إنساناً عاقلاً مختاراً مكلّفاً عاصياً أوكافراً ؟! قال تعالى: **{إنّ الإنسان لكفور مبين}** (الزخرف :١٥)، وقال :**{ قُتل الإنسان ما أكفره}** (عبس : ١٧). أمّا الفترة الزمنيّة التي فُهمت من الآيات فهي الفترة التي بقي الطين فيها يُشوى (قولي هناك : يُشوى خطأ وقع مني أعتذر عنه) لأنّ الذي يُشوى هو الفخّار، والله تعالى يقول في آية أخرى: **{من صلصال كالفخار}** والصواب أنّه جُفّف حتى جفّ تماماً وصار صلصالاً (صلصال كالفخّار) وهي مدة أبهمت ، وأيّ تحديد لها لا أساس له سوى التكهّن والوهم، وعليه يثبت خطأ المؤلف في اعتقاده بخضوع خلق الإنسان لنظريّة داروين، وخطأه في قوله:"هذه المرحلة (بين التراب وخلق آدم) أخذت مئات الملايين من السنين" كما يثبت تناقضه في التفريق بين البشر والإنسان ، بعد إتيانه بآيات تثبت أنّ الرسل جميعاً كانوا من البشر، وأرسلوا للبشر (بني الإنسان) .

ويقول المؤلف شحرور:"وقد قارن البشر كجنس بأنّه ليس ملائكة، بقوله في مجال المقارنة مع البشر**{ولو شاء الله لأنزل ملائكة}** (المؤمنون: ٢٤) والملائكة ليسوا من جنس البشر، وذلك أنّ النّاس تعوّدوا بأن ينـــزل الله ملائكة رسلاً قبل أن يبعث الله رسلاً من البشر، ولذلك كان هذا الاستغراب الكبير" .أ.هـــ.

أقول: "لم يرد أنّ الرسل المُرسلين لعامّة الناس كانوا من الملائكة، ولا تعوُّدهم على ذلك، فمن أين جاء الدكتور شحرور بهذه المعلومة؟! إذ ما علمناه

من القرآن أنّ رسل الملائكة كانوا يُرسلون إلى رسل البشر، فهم الواسطة بين الله ورسله من البشر ، إلاّ أنّ قول المؤلف أعلاه أنّ ذكر البشر هنا لم يأت إلاّ للمقارنة، ولبيان جنس البشر والتمييز بينهم وبين الملائكة يبدو ساذجاً ، بحيث لم يبق من إعجاز يُذكر في هذه الآية وما قبلها، ولكي نوضّح ذلك نعود للآية، قوله تعالى:{**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتــقون** (٢٣) **فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو يشاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آباءنا الأوّلين** (٢٤) **إن هو إلاّ رجل به جنّة فتربصوا به حتى حين** } (المؤمنون: ٢٥) .

نلاحظ في الآيات أعلاه نقاطاً عدّة :

أولاً : أنّ نوحاً كان رسولاً من البشر، وأنّه كان رجلاً واعياً، وكان انساناً اجتماعياً، كما كان قومه مستأنسين يكوّنون مجتمعاً، ينطبق عليهم أنّهم من بني الإنسان (البشر) .

ثانياً : الذين نبّهوا إلى كون نوح من البشر لا من الملائكة هم الذين كفروا – حسدوه – فقالوا : " يريد أن يتفضل عليكم " واعتمدوا في انكارهم لدعوته على كونه مثلهم من البشر ، وزعموا كذباً أنّ هذا أمرٌ جديد ، إذ أن الرسل الذين أتوا قبله على أقوام سبقوهم كانوا من الملائكة، لذا قالوا:"ما سمعنا بهذا في آباءنا الأوّلين"إمعاناً منهم في الكفر والإنكار على نوح عليه السلام .

ثالثاً : اتّهامه بأنه رجلٌ مجنون يدل على أن النّاس كانوا بشراً واعين ، ولمّا

كان أصل الكفر العناد، فبدلاً من الاستجابة له ولدعوته اتّهموه بالجنون ، وذلك شأن الكافرين المعاندين مع رسل الله في كل حين ، إلاّ أن ما يلفت النّظر هنا وصفهم له بأنه رجلٌ أي إنسان، فهو إذاً لم يكن بشراً حيواناً بلا نفخة روح،كما زعم شحرور، وعليه فقوله هنا باطل ، ودعواه بتطوّر الإنسان من مرحلة بدائيّة إلى بشر (حيوان بشكل بشر لا يفقه وبالتالي لم يكلف ، وكان سفّاكاً للدماء مفسداً في الأرض، ثم صار إنساناً بعد نفخ الرّوح فيه ، كل ذلك ما هو إلاّ تكهّن وتخيّل لا دليل عليه، ولا يمت إلى الحقيقة بصلة).

ويقول المؤلف شحرور(ص ٢٨٤) :"الآيات التي جاء فيها الإنسان (النّاس) تعني الكائن العاقل: **{ومن النّاس من يقول ...}** (البقرة :٨) **{وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن النّاس...}** (البقرة: ١٣)**{وما أكثر النّاس ولو حرصت بمؤمنين}** (يوسف:١٠٣)، نلاحظ أنّ هذه الصيغ كلها صيغ للعاقل، ودائماً يوجّه الخطاب في الكتاب بقوله :" يا أيّها النّاس" ولم يقل : " أيّها البشر" .أ.هـــ.

أقول : إنّ عدم توجيه الخطاب للنّاس بقول " يا أيّها البشر" لا يعني أنّ البشر غير عاقلين ، وإنّما يتعلق ذلك باللغة وإعجازها، فالبشر كلمة تعمّ كل إنسي وجد وموجود وسيوجد، ولذلك فقد جاءت منكّرة في كل مواضعها من القرآن، إلاّ في آيتين الأولى مسبوقة بمن (التبعيضيَّة) في قوله تعالى: **{فإمّا ترين من البشر أحداً}** (مريم :٢٦) . أي بعض البشر أو أحداً من جنس البشر ، وهنا جاءت لتميّز البشر عن الملائكة، لأنّ مريم عليها السلام واجهت النّوعين.

والأخرى في قوله تعالى: {إن هذا إلاّ قول البشر} أي جنس البشر، لينكروا أنّه قول ربِّ العالمين .

ولمّا كانت كلمة "بشر" تشمل الجنس كله من كان منهم إنساناً راقياً ومن كان لا إنسانية فيه ، يخاطب بها إذا ما كان المقصود جسده وجثّته، ولأنّ مدلولها واحد ومعروف فلم يخاطب بها النّاس، أمّا الخطاب بالنّاس فكان لقوم من النّاس[1] لا كل النّاس في كل الأزمان، وغالباً ما قُصد به مشركوا جزيرة العرب من الوثنيين فقط ، وعليه فاستشهاد شحرور بآيات القرآن التي تخاطب النّاس ليثبت أنّ البشر لم يكن عاقلاً غير صحيح .

ويقول شحرور في نشأة الإنسان واللغة (ص٢٨٦) ما نصّه : "عندما بلغ البشر مرحلة متقدّمة من التطوّر العضوي والنضج ، أصبح مؤهّلاً لنفخة الروح، وهذا التأهيل كان في ظاهرتين رئيستين هما :

١ــ انتصاب الإنسان على قدميه وتحرير اليدين، وذلك في قوله تعالى :

{يا أيّها الإنسان ما غرّك بربك الكريم (٦) الذي خلقك فسوّاك فعدلك (٧) في أيّ صورة ما شاء ركّبك(٨)} (الانفطار) فهنا نجد لفظة عدلك جاءت بعد التسوية ".أ.هــ.

أقول: بيّن الله تعالى في الآيات آنفاً ، أنّه خلق الإنسان وسوّاه معتدل القامة لا

---

[1] الأحياء وقتها من مُشركي جزيرة العرب، ومن سيأتون بعدهم ، ممن يحترمون إنسانيّتهم لا مــن ماتوا ، في حين كلمة بشر أو البشر إنما تشمل كل آدمي حياً أم ميتاً أو سيجيى فيما بعد ، والله أعلم والبشر تأتي من البِشر وظهور آثار العواطف المختلفة في وجه الآدمي، أو من ظهور بشرته (جلــده) وعدم تغطيتها بالشعر،والله أعلم .

منحنياً كالحيوانات (يمشي على رجلين اثنتين لا على أربع) يدل على ذلك قوله بعدها: {**في أيّ صورة ما شاء ركّبك**} فالله تعالى قد اختار هذه الصورة الجميلة من الاعتدال لهذا الإنسان، وما شاء الله فعل، وقد سبق هذا البيان التذكيري للإنسان (بأصل خلقه) خطاب موجّه من الله لهذا الإنسان بقوله : {**ما غرّك بربك الكريم**} أيّ ما الذي غرّر بك حتى أنساك كرم الله وفضله عليك ، بخلقه لك في أحسن صورة من الاعتدال وجمال الشكل والوجه ؟! في سؤال استنكاري لمعلومة معروفة عند الله تعالى (فالشيطان هو المسئول عن هذا التغرير)، فيه تذكير لهذا الإنسان كي ينظر بعين العدل والنـــزاهة فيرجع إلى ربّه مؤمناً تائباً، حتّى يوفّي بعض ما عليه لربه الكريم، فأين هذه المعاني من قول شحرور وفلسفاته الفارغة ؟! وأين ذلك من قوله إنّ الإنسان كان بشراً غير عاقل، وكان قبلها حيواناً يمشي على أربع (منحنياً) فلما نضج حرّر الله يديه وعدّل قامته ؟! وأين الدليل على أنّ الإنسان كان مقيّد اليدين أصلاً ؟!] .

الفصل السادس

أولاً : حقيقة الطين

أمّا الطين فقد جاء في مواضع مختلفة بهذا اللفظ ، والمقصود به إجمالاً : (تراب + ماء) وقد بادر النص الكريم إلى ذكر (الماء) أصلاً لخلق البشر ــ والماء أحد طرفي المعادلة ــ في قوله تعالى في سورة الفرقان (الحادية والأربعين نزولاً) قال سبحانه:**{وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً}** (الفرقان : ٥٤) ، وهي إشارة تدخل في عموم قوله تعالى:**{وجعلنا من الماء كل شيء حي}** (الأنبياء : ٣٠)

[أقول : الماء هنا هو الماء المعروف أي جنس الماء ، أمّا في آية (الفرقان : ٥٤) فهو ماء مخصوص هو:"الماء المهين"، أي "المني" الذي يقذفه الرجل في مهبل الأنثى من جنسه، ليتمّ التناسل ويستمر، وهنا نجد دليلاً آخر على أنّ الذين كانوا، وانقرضوا قبل خلق آدم لم يكونوا بشراً، لأنّهم باعتراف الدكتور كانوا همجاً متوحّشين ، والنسب والمصاهرة لم يعرفهما إلاّ أبناء آدم العقلاء الاجتماعيين بالفطرة] وسورة الأنبياء هي الثانية والسبعون نزولاً، إلى أن ينـــزل النص الكريم بتفصيل حاسم في سورة النور ، وهي السورة الثانية بعد المائة، فيقول سبحانه : **{والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع }** (النور: ٤٥) ، وليس وراء ذلك شكل من أشكال الحياة فيما يدبّ على الأرض ، وإن تنوعت الأشكال فيما لا يدبّ على الأرض .

وعَوْد إلى سورة الفرقان ـــ الحادية والأربعين نزولاً ـــ والتي ذكر فيها (الماء) أصلاً للبشر ـــ لنجد أنّ السورة التالية لها مباشرة في التنـــزيل، وهي الثانية والأربعون(سورة فاطر) ـــ تذكر (التراب) ، وهو الطرف الثاني للمعادلة الطينية ، فيقول سبحانه :{ **والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلاّ في كتاب إنّ ذلك على الله يسير**} (فاطر : ١١) ، وهي آية تتضمن كثيراً من اختصاصات القدرة الإلهية ، ففيها ـــ إلى جانب (التراب) و(النطفة) إشارة إلى الزوجية { **ثم جعلكم أزواجاً** }، وكأنها تفسير بوجه آخر لعبارة السورة السابقة (الفرقان) التي ذكرت { **فجعله نسباً وصهراً** }.. أي : في شكل أزواج تتكامل فيما بينها [1]، ثم تكتمل معادلة الطين بردها إلى الأرض، باعتبارها منبت الخلق ، وذلك في سورة (طه) (الرابعة والأربعين) فيقول سبحانه : { **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** } (طه : ٥٥) ، كما قال في السورة السبعين (نوح) : {**والله أنبتكم من الأرض نباتاً. ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً**} (نوح : ١٧-١٨)

ويتكرر ذكر التراب بعد سورة (فاطر) - في سورة الكهف (الثامنة والستين نزولاً) ، في قوله تعالى : { **قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً** } (الكهف : ٣٧) . وهكذا

---

[1] لا يرد على هذا ما توصل إليه العلم أخيراً في مجال استنساخ الحيوان ، وهو ما فوجئ به العالم في قضية النعجة (دوللي) ، فإن إشارة القرآن إلى إنتاج الإنسان عن طريق الزوجية تعبير عن الطريـــق الرسمي لعبور الأناس إلى مجال الحياة المرضية ، وهو لا ينفي وجود طرق أخرى يحاول العلم معرفتها .

يقدم القرآن الحقيقة إجمالاً ، ثم يفصّلها تدريجيّاً على مسار الوحي .

[أقول: من أين جاء الحيوان المنوي والبويضة ؟ من الغذاء الذي تناوله الوالدان، ومن أين جاء الغذاء ؟ من النبات والحيوان ، ومن أين جاء النبات والحيوان ؟ من ماء الأرض الذي يحوي عناصر (التراب) فأصل الإنسان من التراب ، أمّا تناسله فمن نطفة من منيّ يمنى ، وتلك هي الحقيقة الواقعة، لا جدال في ذلك].

ويتعرض القرآن في سورة الحجر، وهي الصورة الثالثة والخمسون نزولاً، وذلك في الآية الثامنة والعشرين - يتعرض لبعض أوصاف الطين: المادة البشريّة، وهي قوله تعالى : {**وإذ قال ربك للملائكة إني خالقٌ بشراً من صلصال من حمإ مسنون**} (الحجر : ٢٨) - لقد زادت هذه الآية المادة وضوحاً حين ذكرت أنّ الطين كان في شكل (صلصال من حمأ منسون) ، و(الصلصال) هو الطين اليابس، أو هو الطين الحر خلط بالرمل، فصار يتصلصل إذا جف، فإذا طبخ بالنار فهو الفخار، وآية سورة الرحمن (السادسة والتسعين نزولاً): {**خلق الإنسان من صلصال كالفخّار**} (الرحمن :١٤) .. تنفي عن الصلصال أن يكون طبخ بالنار ، وإن شبّهته بالفخّار في جفافه .

والحمأ : هو الطين الأسود ، والمسنون هو المبتل المنتن ، وقد زاد من صفات هذا الطين في سورة الصافّات (الخامسة والخمسين نزولاً) فذكر أنّه : {**طين لازب**} (الصافات:١١) ، بمعنى : متلاصق أملس متماسك .

[أقول : خَلَقُ أبانا آدم من صلصال كالفخّار ـــ أي بعد تجفيف جسمه الطيني بإخراج الماء منه نهائيّاً ـــ يَردّ بشكل قاطع ونهائي نظريّة داروين (التي

تقول : إنّ خلق الإنسان بدأ من خليّة حيّة خرجت من الماء والطين الرطب ، ثمّ تطوّرت عبر ملايين السنين ليكون منها القرد الذي تطوّر وارتقى بدوره ليكون إنساناً) ويؤكّد أنّ آدم واحد لم يتكرر ولم يتطوّر، وأنّ خلقه لم يكن مشروعاً استغرق ملايين السنين كما يزعم الدكتور، ولا حتى عشرات السنين، والله أعلم]

وسواء ــ في الحقيقة ــ أن يستخدم القرآن في تعبيره عن أصل البشر: الأرض أو التراب، أو الطين، أو الصلصال، أو الحمأ المسنون، فكلّ ذلك لا يختلف، لأنّ المكوّنات واحدة تماماً، في التراب وأشكاله السابقة، وفي الجسد البشري أو المادة الحيّة .

[أقول : لم يكن عبثاً إيراد كل تلك التفاصيل الدقيقة ، فقوله تعالى بخلق آدم من صلصال كالفخّار إذا ضمّ إلى قوله :{**وجعلنا من الماء كلّ شيء حي**} يُفهم منه صراحة أنّ خلق آدم لم يبدأ من خليّة واحدة، ولا من دودة ولا كان قرداً فتطوّر، بل هو خلق فريد، نال عناية خاصّة من الله خالقه، والدكتور عبد الصبور يتّفق معي في هذا الأمر، إلاّ أنّه قد خرج علينا بصرعة جديدة مفادها أنّ آدم أبو الإنسان غير آدم أبو البشر، وأنّ الله قد خلق مئات آلاف آدم ، كل آدم منهم له نسل أرقى من الذين سبقوهم ، وأنّ كل الأوادم الذين كانوا قبل آدم الأخير (أبو الإنسان كما سمّاه الدكتور) قد انقرضوا قبل مولده ، وهم من سمّاهم الدكتور بشراً ، وقال عنهم إنّهم كانوا همجاً متوحشين، وأنّ أبانا آدم له أبٌ وأم، وذلك يُناقض مُحكم القرآن، لذلك قمت بالردِّ على هذا الكتاب،ووصفته بالمسخ].

يقول الأستاذ البهي الخولي :(لو أنّك أخذت قبضة من تراب الأرض الخصبة ، وأجريت عليها عمليات التحليل الكيماوي لوجدتها تتركّب من ستّة عشر عنصراً ، ولو أخذت قطعة من جسم الإنسان وأجريت عليها عمليات هذا التحليل لوجدتها كذلك تتركّب من ستّة عشر عنصراً ــ هي نفس العناصر التي تتركّب منها تربة الأرض ، وهذه العناصر هي ما يأتي :

١ــ الأوكسجين = ٦٣,٠٣ %	٢ــ الكربون = ٢٠,٢٠%
٣ــ الأيدروجين = ٩,٩٠ %	٤ــ النتروجين = ١,٠١ %
٥ــ الكالسيوم = ٢,٤٥ %	٦ــ الفسفور = ١,٠١ %
٧ــ الكلور = ٠,١٦ %	٨ــ الفلور = ٠,١٤ %
٩ــ الكبريت = ٠,١٤ %	١٠ــ البوتاسيوم = ٠,١١ %
١١ــ الصوديوم = ٠,١٠ %	١٢ــ المغنيسيوم = ٠,٠٧ %
١٢ــ الحديد = ٠,٠١ %	

اليود + السيلكون + المنجنيز = آثار ضئيلة [1]

وقد تبيّن من جمع النسب المختلفة أنّ الآثار الضئيلة من (اليود، والسليكون، والمنجنيز) لا تتجاوز ٠,١٨% للمواد الثلاث . وقد أضافت قوائم أخرى مواد أرضية دخلت في تكوين الإنسان ، وهي النحاس ، والكوبالت ، والتوتيا ، والموليديوم ، والألمنيوم والسيلنيوم ، والكادميوم ، والكروم ، وبذلك تصل العناصر الترابية في الإنسان إلى أربعة وعشرين عنصراً.

فخلق البشر كان من معدن الأرض ، كما قال سبحانه وتعالى في السورة الثانية والعشرين نزولاً ــ أي في الوحي المكيّ المبكر ــ **{ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض }** (النجم : ٣٢) ، أي : من معدن الأرض ، وهو الصلصال المتخذ من الطين الأسود المنتن ــ هكذا شاءت إرادة الله ، ولا

---

[1] انظر آدم عليه السلام ص١٥ وما بعدها .

يستطيع أحد أن ينكر هذه الحقيقة ، أو أن يُكذّب بها ، مع أن هناك في مرأى العين مسافة هائلة بين الطين واللحم البشري .. الطين مادة خامدة ، واللحم البشري نسيج حيّ متنام ، وهي مسافة لم يقطعها العقل الإنساني حتى الآن ، ولن يقطعها في المستقبل ، بمعنى أن العقل لن يكشف عن سر التحوُّل الذي جعل التراب لحماً حياً ومتنامياً ، ومن ثم لن يكون بوسع الإنسان ــ مهما تقدم في دراساته عن الخلية الحية ، وعن الهندسة الوراثية ــ أن يحول التراب إلى خلايا حية ، فالمسافة بينهما برزخ يستحيل عبوره على قدرات الإنسان ، لأنها في الواقع تعبير عن إمكانات قدرة الله المتفردة بالخلق والإبداع ، بالإحياء والإفناء .

هذا عن المسافة بين التراب والمادة الحيّة ، فأما عن المسافة بين التراب والمخلوق البشري فيقول الأستاذ سيد قطب ، وهو يعلق على قوله تعالى : **{فلينظر الإنسان مما خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب}** (الطارق : ٥ ــ ٧) : (فالمسافة الهائلة بين المنشأ والمصير ، بين الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب ، وبين الإنسان المدرك العاقل ، المعقد التركيب العضوي ، والعصبي ، والعقلي ، والنفسي .. هذه المسافة الهائلة التي يعبرها الماء الدافق إلى الإنسان الناطق .. توحي بأن هناك يداً خارج ذات الإنسان ، هي التي تدفع بهذا الشيء المائع الذي لا قوام له ، ولا إرادة ، ولا قدرة في طريق الرحلة العجيبة الهائلة ، حتى تنتهي به إلى هذه النهاية الماثلة ، وتشي بأن هناك حافظاً من أمر الله يرعى هذه النطفة المجردة من الشكل والعقل، ومن الإرادة والقدرة ، في رحلتها الطويلة العجيبة، وهي تحوي من

العجائب أضعاف ما يعرض للإنسان من عجائب، من مولده إلى مماته) [1] .

ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى أنّ الماء قد يقصد به ما يخلط بالتراب ليصير طيناً، وقد يُقصد به الماء المهين الذي يبدو في ظاهره لا علاقة له بالطين .

[أقول: الآيات هنا محكمات تحمل معنى واحداً فقط ، هو خلق الإنسان (جنس الإنسان) لا خلق آدم، والمقصود بالماء هنا مني الرجل (الماء الدافق) ولا شيء غيره] وإن كان في الحقيقة حافلاً بموجودات ترابية ــ طينية ، متمثلة في الكائنات الحيّة التي تعتبر :(كبسولة الحياة)، ويتحدث العلم عن مئات الملايين من هذه الكائنات الحيّة في منيّ الرجل .. في الدفقة الواحدة تندفع في رحم المرأة ، في نهاية الاتصال الجنسي .. وكل هذا صادر عن التراب، وعائد إلى التراب .

ثانياً : الخلق النفسي

وتبقى بعد ذلك آيتان تحدثنا عن خلق الإنسان من نفس واحدة وهما : آية الأعراف، وهي السورة الثامنة والثلاثون .. قوله تعالى : **{ هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشّاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون}** (الأعراف : ١٨٩ ــ ١٩٠) .

وآية النساء ، وهي السورة الثالثة والتسعون نزولاً : قوله تعالى **{ يا أيها**

---

[1] في ظلال القرآن ــ سورة الطارق .

الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء} (النساء : ١) .

والآيتان تقرران وحدة الأصل الإنساني، إذ المخاطب ههنا هم الناس، كما هو نص الآية الثانية ، وكما هو مفهوم الآية الأولى ، لأنَّ الخطاب في القرآن لم يوجه مطلقاً إلى البشر .. بل إلى الإنسان .[أقول : هذا غير صحيح، وإلاّ فإلى من وُجّه خطاب الله في قوله تعالى:**{وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخلد أفإن متّ فهم الخالدون}** (الأنبياء ٣٤) ؟ فالخطاب هنا قد وُجّه لبشر هو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولّما أنكر قوم ما أنزل الله، قال تعالى:**{ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء }** ردّ الله عليهم بقوله تعالى: **{قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى}** (الأنعام ٩١،٩٢).].

ويستمر الدكتور عبد الصبور قائلاً : وبدهيّ أن نعرف أننا جميعاً منتمون لآدم، كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:(**كلكم لآدم**) أي : لآدم وحواء، باعتبارهما المصدر الوحيد الذي تناسلت منه كل ذراري الإنسانية .

غير أنَّ خلق زوج آدم من نفسه مشكل، فهل حواء من ضلع آدم كما وردت بذلك الآثار ؟ أو أن حواء خلقت خلقاً مستقلاً ، كما هو شأن آدم ؟

الاحتمال الأخير هو الراجح في نظرنا لأمرين :

أولهما : أنّ كثيراً من العلماء اعتبروا مسألة الضلع مجرد رمز لطبيعة المرأة وفطرتها.[أقول : خلق الله حوّاء من آدم، لا ندري كيف ، وقد جاء خلقها مجملاً لا مُشكلاً، ونحن نؤمن به كما جاء في القرآن لا نزيد عليه ولا ننقص منه شيئاً، والأقرب أنّه حصل عن طريق الاستنساخ، والله أعلم].

ثانيهما : أنّ خلق حواء من نفس آدم مُؤول على أنّها من نوعه وجنسه ، وقد جاء ذلك بالنسبة لكل زوج :{ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها** } (الروم : ٢١) .

ومن المؤكد أنّ المقصود بآية الأعراف ليس آدم وزوجه ، لأنّ الآيات بعدها تتحدث عن أنّ الزوجين جعلا لله شركاء فيما آتاهما من الذريّة ، ولم يكن هذا من آدم وزوجه، وتبقى آية النساء معبرة عن الأصل النفسي الذي انبثقت منه كل النفوس، وعلى الرغم من اختلاف الأقوال في حقيقة هذه النفس ، فإننا نميل إلى أنّها هي سرّ الله في الإنسان،[أقول : سرّ الله في الإنسان النفخة من روح الله ، والروح إحدى مكوّنات النفس البشريّة، ونفس الإنسان، أو الإنسان نفسه = جسده + حياته + روحه] وبها صار إنساناً ، دونما سواه، فالخلق فيما انتهى إليه تأملنا في هذه المسألة يتم على مستويين :

خلق مادي من تراب ، **وهو الخلق البشري الظاهر** .

وخلق نفسي من روح الله ، **وهو الخلق الباطن** ، ونحن على يقين من أنّه لولا تلك النفخة الإلهية لما كان ذلك المخلوق سوى دابة من دواب الأرض. [أقول : وهو الصواب ، بما يُؤكّد ما سبق أن قلته : إنّ الحيوان فيه حياة، ولا روح فيه].

فلماذا أغرق العلماء أنفسهم في البحث عن ماهية النفس، دون أن يصلوا فيها إلى شيء، مع أنّ الحقيقة واضحة بين أيديهم، وهي في غاية الوضوح بقدر ما هي في منتهى الغموض؟!

إنّها غيب من غيب الله ، وسرّ من أسراره [أقول : هذا تعريف الروح، لا

النفس، قال تعالى: {**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي**} (الإسراء : ٨٥) أمَّا تعريف النفس فنجده في قوله تعالى: { **ونفس وما سوَّاها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكَّاها. وقد خاب من دسَّاها**} (الشمس: ١٠)، فإذا كانت النفس غيب وسرٌّ لا يعلمه إلاّ الله وحده ، كانت هذه الآيات بلا معنى، وذلك باطل] وهذا هو الوضوح الذي نقصده ، كالكهرباء لا تُعرف حقيقتها إلاّ بأثرها، والعقل والروح والنفس قوى أودعها الله كيان هذا الإنسان[أقول : هذا هو الخلط بعينه، فالدكتور لم يميّز بين العقل (الإدراك) الذي هو من آثار الروح، والروح التي هي إحدى مكوّنات النفس، وأنّك نفس، وأنا نفس...إلخ، وقد اعترف بأنّ الروح غير النفس دون أن يشعر في قوله"الروح والنفس" فعلى رأي الدكتور يكون من قتل نفساً لم يقتل إنساناً، وإنّما قتل سرّ الله فيه، ولا ندري كيف وقف على ذلك السر قبل قتله، فتأمّل] لا تدرك حقائقها، وإن استدلّ على وجودها بآثارها، ومن آثارها أن تنبثق منها زوج الرجل التي يسكن إليها.

الفصل السابع

البشر والإنسان

إذا كان القرآن قد ذكر خلق (البشر) في أربع آيات، فقد ذكر خلق (الإنسان) في خمس وثلاثين آية، هي على ترتيب النــزول موزعة بين المكي والمدني، فالآيات المكية هي:

١ـــ في السورة الأولى : { **اقرأ باسم ربّك الذي خلق * خلق الإنسان من علق** } (العلق : ١-٢) .

٢ـــ وفي السورة السابعة :{**سبّح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوّى**} (الأعلى : ١ -٢) .

٣ـــ وفي السورة السابعة والعشرين : { **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين** } (التين : ٤ -٥) .

٤ـــ وفي السورة الثلاثين : { **أيحسب الإنسان أن يُترَكَ سُدى * ألم يك نطفة من منيٍّ يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى** } (القيامة : ٣٥ - ٣٨) .

٥ـــ وفي السورة الثانية والثلاثين : {**ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه في قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون**} (المرسلات: ٢٠ــ٢٣).

٦ـــ وفي السورة الثالثة والثلاثين : { **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** } (ق : ١٦) .

٧ــ وفي السورة الخامسة والثلاثين : { **فلينظر الإنسان ممّ خُلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب** } (الطارق : ٥-٧).

٨ــ وفي السورة الثامنة والثلاثين : { **ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس** } (الأعراف : ١١).

٩ــ وفي السورة الأربعين : { **أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه** } (يس : ٧٧-٧٨).

١٠ــ وفي السورة الثانية والأربعين : { **والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلاّ بعلمه** } (فاطر: ١١).

١١ــ وفي السورة الثالثة والأربعين : { **أولا يذكر الإنسان أنّا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً** } (مريم : ٦٧) .

١٢ــ وفي السورة الرابعة والأربعين : { **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** } (طه : ٥٥) .

١٣ ــ وفي نفس السورة : { **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً** } (طه : ١١٥) .

١٤ــ وفي السورة الخامسة والأربعين : { **أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون** } (الواقعة : ٥٨-٥٩) .

١٥ــ وفي السورة التاسعة والأربعين : { **وإذ قلنا اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس قال أأسجد لما خلقت طيناً** } (الإسراء: ٦١) .

١٦ــ وفي السورة الثالثة والخمسين : { **ولقد خلقنا الإنسان من**

صلصال من حمإ مسنون } (الحجر : ٢٦) .

١٧ـــ وفي السورة الرابعة والخمسين : { هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون } (الأنعام : ٢) .

١٨ـــ وفي السورة الخامسة والخمسين : { فاستفتهم أهم أشدّ خلقاً أم من خلقنا إنّا خلقناهم من طين لازب } (الصافات : ١١) .

١٩ـــ وفي السورة التاسعة والخمسين : { هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ..} (غافر :٦٧).

٢٠ ـــ وفي السورة الثامنة والستين : { قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلاً } (الكهف : ٣٧) .

٢١ ـــ وفي السورة التاسعة والستين : { خُلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين } (النحل : ٤) .

٢٢ ـــ وفي السورة السبعين :{ ما لكم لا ترجون لله وقاراً * وقد خلقكم أطواراً} (نوح : ١٣-١٤) .

٢٣ ـــ وفي نفس السورة : { والله أنبتكم من الأرض نباتاً * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً } (نوح : ١٧-١٨) .

٢٤ ـــ وفي السورة الثالثة والسبعين : {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة...} (المؤمنون : ١٢ـــ١٤) .

٢٥ ـــ وفي السورة الرابعة والسبعين : **{ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه }** (السجدة : ٧-٩) .

٢٦ ـــ وفي السورة الحادية والثمانين: **{ يا أيّها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم * الذي خلقك فسواك فعدلك * في أي صورة ما شاء ركبك}** (الانفطار:٦-٨)

٢٧ ـــ وفي السورة الثالثة والثمانين : **{ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم }** (الروم : ٤٠) .

٢٨ ـــ وفي نفس السورة : **{ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ... }** (الروم : ٥٤) .

٢٩ ـــ وفي السورة السابعة والثمانين : **{ وإذ قال ربك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة .. }** (البقرة : ٣٠-٣٨) .

٣٠ ـــ وفي السورة الثالثة والتسعين : **{ يا أيّها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً}** (النساء :١)

٣١ ـــ وفي السورة الثامنة والتسعين : **{ خلق الإنسان * علمه البيان }** (الرحمن :٣-٤) .

٣٢ ـــ وفي نفس السورة : **{خلق الإنسان من صلصال كالفخار}** (الرحمن :١٤).

٣٣ ـــ وفي السورة التاسعة والتسعين : **{ هل أتى على الإنسان حين من**

الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً } (الإنسان : ١-٢) .

٣٤ ــ وفي السورة الخامسة بعد المائة : **{ يا أيّها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة..}**(الحج :٥).

٣٥ ــ وفي السورة الثامنة بعد المائة : **{ يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا }** (الحجرات : ١٣) .

ويُلاحظ في نصوص هذه الآيات أنّ (خلق الإنسان) جاء بلفظه في ستة عشر موضعاً ، وأنّ بقيّة المواضع ــ وهي تسعة عشر موضعاً ــ يدل السياق فيها على أنّ المراد بها هو (الإنسان) وليس (البشر).

[أقول : وماذا عن قوله تعالى: {**إنّها لإحدى الكبر . نذيراً للبشر**} (المدّثر ٣٥ ،٣٦) ؟! إمّا أنّ الدكتور نسي هذه الآية أو تناساها، فالقرآن يفسّر بعضه بعضاً، ولا يصحّ منهج الدكتور هذا، الذي يأخذ حكماً لمسألة أو معنى من آية دون النظر في جميع الآيات المتعلّقة بتلك المسألة] حيث اكتفى النص بالإشارة دون العبارة ، أو جاء الخطاب للناس لا للإنسان، أو كان النص على آدم، وهو ــ فيما نرى ــ أول إنسان.

[أقول: هذا فهم مغلوط، وادّعاء باطل، فخطاب الله جاء مراعياً السياق، ووفق اللغة العربيّة، ليكون النظم على أعلى مستوى، فتارة خاطب الناس، وتارة خاطب الإنسان، وتارة خاطب البشر، وأخرى خاطب بني آدم ، أو آدم، وهو أول بشر وأول إنسان دبَّ على الأرض، وجميع الناس هم أبناء آدم

وحوَّاء، فإذا كان الدكتور قد سها أو غفل عن بعض الآيات في هذه المسألة، فالذنب ذنبه، وعليه الرجوع إلى الحق، لأنّ الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل]، وكل ذلك جاء في سور: (الأعلى، والمرسلات ، والأعراف وفاطر، وطه ـــ في موضعين ـــ وفي الإسراء، والأنعام، والصافات ، وغافر ، والكهف ، ونوح ـــ في موضعين ـــ والروم ، والبقرة ، والحج ، والحجرات ، وانفردت الواقعة بدعوة الناس إلى التأمل فيما يفرزون من مني).

ولسوف يتّضح لنا فيما بعد ـــ أنّ المـــُراد في هذه المواضع هو (الإنسان) وليس البشر ، والآيات الست عشرة تتحدث عن (خلق الإنسان) تارة من علق وأخرى من نطفة ، أو من (نطفة أمشاج) ، وثالثة (من طين) ، أو (من سلالة من طين) ، أو(من صلصال من حمإ مسنون)، أو (من صلصال كالفخار) [1]

وتأتي آية سورة الحج (السورة الخامسة بعد المائة) فتخاطب الناس نصّاً وصراحة ، فتقول : { **يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ...**} إلى آخر الآية وهي تجمع إشارتين إلى الأصل الأول وهو التراب ، وإلى الأصل البديل ، وهو النطفة .

و (الناس) : اسم جمع لبني آدم ، واحده (إنسان) من غير لفظة .

[أقول: الناس ، والبشر، والإنسان، وبني آدم، جميعها مترادفات قُصد بها آدم ونسله، فآدم هو من خلقه الله من سلالة من طين ، وجعل نسله من سلالة من ماء مهين، فهو أول إنسان، وهو أبو البشر، وهو ما تؤكّده آيات القرآن].

---

[1] هو صلصال ، وليس فخار ، لأن الفخار هو الطين المحروق ، وكأن التشبيه يحتفظ في السياق بهذا الفرق بالدلالة .

فإذا تابعنا بناء الصورة التي تأتي لبناتها في الآيات المكيّة المتابعة، وجدنا الحديث عن البداية المرئيّة للإنسان، وهي (العلق) في السورة الأولى، ثم تأتي إضافة في السورة السابعة ، تشير إلى { **الذي خلق فسوّى** }، ثم تأتي لمحة عن المستوى الأخلاقي – في السورة السابعة والعشرين ، فهو قد خُلِق أولاً {**في أحسن تقويم**} ثم ارتد إلى{ **أسفل سافلين** }، ثم استُثنى من هؤلاء السفلة جماعة {**الذين آمنوا وعملوا الصالحات**}،[أقول : أيّ فهم هذا ؟! وبأيّ لغة فهم الدكتور استثناء المؤمنين الصالحين من بين السفلة ؟! الله تعالى يخبرنا أنّه خلق الإنسان في أحسن تقويم (مؤمناً بالفطرة) إلاّ أنّ بعض الناس قد رُدّوا إلى أسفل سافلين لاختيارهم الكفر والخروج على الفطرة، فما شأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمشركين والكافرين ؟!]، وهي رسالة موجهة إلى معارضي الدعوة، والمكذبين بالدين من كفار قريش .

ويعود الوحي إلى بيان آليات الخلق في السورة الثلاثين (القيامة) : منيّ يفرز نطفة تتحوّل إلى علقة تحمل عناصر الذكورة والأنوثة ، بحسب تقدير الله وتحديده للنّوع، وتشير السورة الثانية والثلاثون (المرسلات) إلى نفس المعنى، لكنها تذكر المكان الذي تتم فيه عملية الخلق، وهو(القرار المكين) أو(الرحم)

ثم يأتي الحديث في السورة التالية مباشرة ، وهي الثالثة والثلاثون (ق) ليؤكد حضور الله سبحانه وتعالى في وجود هذا الإنسان ، وهو ملمح تربوي ، يستطرد بعده الوحي في السورة الخامسة والثلاثين (الطارق) ليقرر أن هذا

الخلق العظيم، (خلق الإنسان) **{خُلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب}** (الطارق: ٦-٧) ، والصلب : فقار الظهر، وهي منبع الماء الدافق عند الرجل ، والترائب : جمع .. مفرده تريبة، وهي عظام الصدر مما يلي الترقوتين ، وهي منبع ماء المرأة ، وهذه المعلومة كانت مجهولة للإنسان، وبقيت مجهولة حتى منتصف القرن العشرين ، وقد تضمنها الوحي القرآني منذ أوائل هذا الوحي، أي : منذ أكثر من أربعة عشر قرناً.

ثم تأتي السورة الثامنة والثلاثون (الأعراف) لتتحدّث عن الخلق والتصوير **:{ولقد خلقناكم ثمّ صوّرناكم}**، وهما مرحلتان في عمر البشريّة، لعلهما استغرقتا بضع ملايين من السنين، والتصوير هنا يقابل التسوية في مواضع أخرى

[أقول: قوله :" صوّرناكم" قرينة تدلّ على أنّ المقصودين هنا هم أبناء آدم، لا آدم نفسه، الذي خلقه الله وسوّاه من سلالة من طين، حتى إذا صار صلصالاً كالفخّار، قال له :"كن" فكان (لا ندري كيف، فالله ليس كمثله شيء، وهو على كلّ شيء قدير) أمّا تصوير الإنسان(إبن آدم) فيكون في رحم أمّه .

روى مسلم في صحيحه، قال :

4783حَدَّثَنِي أَبُو الطَّاهِرِ أَحْمَدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ سَرْحٍ أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ أَخْبَرَنِي عَمْرُو ابْنُ الْحَارِثِ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ الْمَكِّيِّ أَنَّ عَامِرَ بْنَ وَاثِلَةَ حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ فَأَتَى رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَالُ لَهُ حُذَيْفَةُ بْنُ أَسِيدٍ الْغِفَارِيُّ فَحَدَّثَهُ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ وَكَيْفَ يَشْقَى رَجُلٌ

بغَيْر عَمَلٍ ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ أَتَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ يَقُولُ :" إِذَا مَرَّ بالنُّطْفَة ثِنْتَان وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعظَامَهَا ثُمَّ قَالَ يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ أَجَلُهُ فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ رِزْقُهُ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بالصَّحِيفَة في يَده فَلا يَزِيدُ عَلَى مَا أُمرَ وَلا يَنْقُصُ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُثْمَانَ النَّوْفَليُّ أَخْبَرَنَا أَبُو عَاصم حَدَّثَنَا ابْنُ جُرَيْج أَخْبَرَني أَبُو الزُّبَيْر أَنَّ أَبَا الطُّفَيْل أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمعَ عَبْدَ اللَّه بْنَ مَسْعُود يَقُولُ وَسَاقَ الْحَديثَ بمثْل حَديث عَمْرو بْن الْحَارث *أ.هـ .

هذا الحديث (ما رُفع منه إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم) يتّفق مع القرآن والحقيقة العلميّة الثابتة، وهو صحيح رغم وجود أبي الزبير المكّي في سنده، ويُلحظ فيه عدم تسجيل شقيّ أو سعيد، ولا نفخ الروح التي تكون في النطفة .

فخلق الإنسان في رحم أمّه يبدأ من نطفة أمشاج، ثمّ يمرّ في أطوار المضغة فالعلقة، فالعظام، فكسوها باللحم، وبتصويره من قبل الملك (بعد ٤٢ يوماً، وهو ما أثبته الطبُّ مؤخراً) وفق أوامر الله جلّ وعلا ليصبح خلقاً آخر (أي على شكل إنسان)، فلا هما مرحلتان من عمر البشريّة، ولا غيره، إذ لا توجد مراحل من عمر البشريّة تقدّر بملايين السنين، كما يزعم الدكتور، سامحه الله وغفر له] ومع ملاحظة استعمال الأداة (ثمّ) التي تفيد التراخي بين الأمرين ، وهو ما سنفرد له معالجة أخرى ، وتنـزل في السورة الأربعين (يس) إشارة إلى ما يسبق العلق ، وهو (النطفة) مرة أخرى، ولكن يقرن ذلك بالعجب من أن

لا يعرف هذا المخلوق قدره في مواجهة خالقه **{فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم}** (يس: ٧٧-٧٩) .

ويواصل الوحي تعريف الإنسان بأصله في السورة الثانية والأربعين (فاطر) فيجمع لأول مرة بين التراب والنطفة ، ويضيف آية من آياته ، وهي خلق الزوج ليأتلف مع زوجـــه، وهو يتابع بعلمه ما يتم بين الأزواج ، وما يترتب عليه من حمل ووضع ، كما يتابع الأعمار ــــ طويلة وقصيرة .

ثم يسائل التنـــزيل ذلك الإنسان فيخاطب عقله وذاكرته في السورة الثالثة والأربعين (مريم) ويسأله عن مرحلة ما قبل وجوده ، إن كان لديه شيء يذكره غير العدم :**{أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً}** فالآية ترد الإنسان إلى ما سبقه من عدم، وهو أنصع برهان على أنه مُحدث بيد القدرة، وهي إشارة تشبه إلى حد كبير ما استهلت به سورة (الإنسان) ـــ التاسعة والتسعون (المدنية).

ويلي (مريم) في ترتيب النـــزول (طه) وهي السورة الرابعة والأربعون، وذلك في قوله تعالى:**{منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى}**، وكأنها تدلّ الإنسان الباحث عن مبدأ خلقه إلى نقطة البداية التي ليس وراءها شيء يذكره مهما حاول، فإذا نظر الإنسان إلى الأرض، ومنها خلقه الأول، أدركه سؤال السورة الخامسة والأربعين (الواقعة) ليقرب إليه صورة من الحقيقة: **{أفرأيتم ما تمنون}**؟ فإذا نظر إلى الأرض ليبحث عن أصله فليعلم أنّ جزءاً من هذه الأرض قفز إلى صلب أبيه، وترائب أمه، فلقحت فيهما الأرضُ

الأرضَ، فكان ذلك المخلوق الباحث عن الحقيقة، ويحسبها بعيدة، وهي بين يديه، وفي إهابه: **{وفي أنفسكم أفلا تبصرون}**؟!

الإنسان يخرج من البشر. [أقول : بل الإنسان بشر منذ كان]

وهنا يأتي النص الكريم في السورة الثالثة والخمسين (الحجر) ليرد الإنسان إلى أصل(البشر) :{**صلصال من حمإ مسنون**}، ولما كان السياق في السورة يذكر (الإنسان) في مقابل (الجان) في آيتي الحجر : {**ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون * والجان خلقناه من قبل من نار السموم** } (الحجر ٢٦-٢٧) ــ فإن الحديث عن الأصل الترابي يرتبط غالباً (بالبشر) ، ولذلك يعود النص إلى الأصل فيقول:{ **وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** } (الحجر : ٢٨-٢٩).

والربط بين (الإنسان) و (الصلصال) سياق تتولى تفسيره الآيات التالية التي تحدد المراد بالإنسان، وهو(البشر)، [أقول: كلمة "الإنسان" في آية الحجر٢٦جاءت تفسّر كلمة "بشراً" في آية ٢٨، أو بالعكس ، بدليل قوله تعالى بعدهما : { **من صلصال من حمإ مسنون** } بما يؤكّد بشكل قاطع أنّ آدم ــ المخلوق من صلصال كالفخّار ــ هو أبو البشر، وهو واحد ، وهو الذي سجدت له الملائكة].

وينبغي أن نلاحظ أسلوب القرآن في سوْق الحقيقة هنا ؛ فهو يذكر (الإنسان) هكذا مُعرّفاً، باعتباره الموضوع الأساسي المقصود بالذكر، والمخاطب بالآيات، وهو في مقابل (الجان) المشارك للإنسان في التكليف والمسئولية على هذه الأرض .

فإذا شرع في بيان حقيقة الخلق منذ البداية ، ذكر أنّ هذه البداية كانت في صورة (بشر) .. هكذا مُنكّراً ..[أقول : لا يصحّ لغة هنا إلاّ التنكير، لأنّ الله تعالى ذكر كلمة "بشر" أمام الملائكة لأول مرة ، وهم لم يسبق لهم أن سمعوها من قبل، ولا يعرفون عنها شيئاً، أمّا ذكره الإنسان مُعرّفاً، فلأنّ المقصود هو آدم الإنسان، لذلك جاء مُعرَّفاً، لتقرير حقيقة أصبحت معلومة.] باعتباره النموذج الذي أجريت عليه عمليات التسوية. [أقول : لا أدري كيف حوّر الدكتور عبد الصبور، التسوية الواحدة المفردة : {فإذا سوّيته} لتصبح عمليات التسوية بصيغة الجمع ؟! عجبي!]، والتصوير، والنفخ من روح الله (أو التزويد بالملكات العليا التي كان بها البشر إنساناً ــ وهي: العقل ، واللغة ، والدين) ..

فقبل التسوية لم يكن المخلوق البشري إنساناً ..بل كان مشروع إنسان في حيز القوة، قبل أن يكون إنساناً في حيز الفعل .

[أقول : قوله تعالى {فإذا سوّيته} أي جعلته بشراً سويّاً، تبعه قوله : {ونفخت فيه من روحي} باستخدام حرف العطف "الواو" الذي يفيد الجمع والمشاركة فقط، ولو كان ثمّة زمن يُذكر بين التسوية ونفخ الروح لاستخدمت أداة العطف"ثمّ" التي تفيد الترتيب مع التراخي، بما يُفهم منه أنّ التسوية ونفخ الروح وسجود الملائكة أحداث وقعت جميعها في مشهد واحد، ناهيك عن قوله تعالى:{كن فيكون} ويؤكّد ذلك استخدام كلمة {فقعوا}ذات المدلول السريع ، فالفاء حرف عطف يُفيد الترتيب مع التعقيب دون تراخٍ، وعليه فلا صحّة لقول الدكتور أعلاه، ولا دليل على أنّ خلق آدم كان مشروعاً متعدد المراحل، وأنّ خلقه وتطويره استغرق ملايين السنين].

لم يكن أحد من الجن أو من الملائكة يعلم شيئاً عن سر ذلك المخلوق البشري ، أو عما سيؤول إليه أمره ، فذلك كله كان غيباً في علم الله وحده ، وهو من اختصاص قدرته التي تابعت المخطط، وتحقيق التسويات المطلوبة عبر الأجيال.

[أقول: أي تخطيط مُسبق هذا؟ وأيّة تسويات وأجيال تلك ؟ وأين النصّ عليها ؟! فالقرآن قد تحدّث عن تسوية آدم وحده ، والدكتور عبد الصبور حوّلها بقدرة قادر إلى تسويات (بصيغة الجمع) فأين الأمانة العلميّة؟!].

كما زودته تلك القدرة العظمى بعوامل التألق حتى صار البشر الغشيم (إنساناً) صالحاً للتكليف ، وحمل الأمانة الإلهية .

[أقول : لم يكن آدم أبو البشر ، وأبو الإنسان ــ بعد نفخ الروح فيه وتعلّمه الأسماء كلّها ــ غشيماً ، بل صار عالماً ، عاقلاً]

وكل ذلك الفرق الهائل بين البشر والإنسان يشي به الاستعمال القرآني ، وهو فرق ما بين التعريف والتنكير في هاتين الآيتين من سورة الحجر.

[أقول: الفرق بين التنكير والتعريف هنا مسألة بلاغيّة بحتة، وموضوعها اللغة وأسرارها، لا العلم، أو الاستدلال العلمي، وتنكير كلمة بشر فيه دليل لنا، لأنّه لو كان هناك بشرٌ على الأرض قبل آدم (الإنسان) لكانوا معروفين من قبَل الملائكة، ولما صحّ تنكيرهم (لغة)،ولما وجدنا الملائكة يقولون:**{أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء}**؟].

ويرد هذا المعنى إجمالاً للتذكير في سورة (الأنعام) التي جاءت بعد الحجر مباشرة وهي الرابعة والخمسون : **{ هو الذي خلقكم من طين * ثم قضى**

أجلاً وأجل مسمى عنده }...فهو (طين لازب) كما في السورة التالية مباشرة (الصافات) غير أنّ بقيـــّة آية الأنعام تتحدث كما رأينا عن (أجلين) في قوله تعالى : { **ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده** }، وقد كان تحديد المقصود بالأجلين موضع اجتهاد المفسِّرين ، فحصروه في ثلاثة احتمالات :

فإمّا أن يكون الأجل الأول أجل الموت ، والآخر : القيامة ..

وإمّا أن يكون الأول : ما بين أن يخلق إلى أن يموت ، والثاني ما بين الموت إلى البعث (وهو البرزخ) ..

وقيل الأول : النوم ، والثاني : الموت ، (الكشاف ٢/ ٤) .

وذكر تفسير المنار (٧/ ٢٤٨) أنّ الأجل الثاني هو أجل حياة مجموع الناس الذي ينقضي بقيام الساعة ، وقيل : الأجل الخاص بكل فرد ، والأجل العام وهو عمر الدنيا .

ونحسب أن هناك احتمالاً غاب عن هذه التقديرات ، وهو أنّ الأجل الأول (النكرة) هو أجل الحياة البشريّة السابقة على العهد الإنساني.

[أقول: هذا تفسير شاذّ، ورأي لم يقل به أحد، ولا دليل عليه، بل ما يُفهم من هذه الآية والآيات الأخَر، أنّ الأجل المسمّى هو لحظة الميلاد، وأنّ الأجل الآخر هو لحظة الموت، انظر آية (الحج:٥) : {**ونُقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مُسمّى ثمّ نُخرجكم طفلاً**} وعليه تكون الحياة الدنيا هي المدّة الزمنيّة بين الأجلين، ولا شيء غيره، والله أعلم]، وأمّا الأجل المسمى ؛ فهو أجل كل فرد من المكلّفين، فالأول مجمل يندمج فيه الكل في واحد، والثاني مفصّل لكل فرد ، لتعلقه بالمسئولية والحساب والمصير، ولا مانع في نظرنا من إرادة ذلك في الآية .

ثم تأتي السورة التاسعة والخمسون (غافر) فتربط لأول مرة بين التراب والنطفة والعلقة :{ **هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً** } وهنا يذكر المرحلتين : مرحلة الخلق من تراب ، ومرحلة الخلق من نطفة ، وهما مرحلتان منفصلتان تماماً، وقد ربط القرآن بينهما بحرف التراخي (ثمّ) للتعبير عن المسافة الزمنية بينهما.

[أقول : هذه آية مجملة ، لخّصت مراحل، بل أطوار خلق الإنسان ، وقد جاءت تفاصيل تلك الأطوار في آيات أخر] .

ويلاحظ أنّ هذا الموضوع لم يرد له ذكر في القرآن بعد سورة غافر ، إلاّ بعد عشر سور .. أي : حتى نزلت سورة (النحل) بإشارتها المقتضبة : {**خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين** }، وهي السورة التاسعة والستون، ثم تنـــزل السورة الحادية والسبعون ، سورة (نوح) وفيها إشارة ذات دلالة تاريخية ومادية معاً ، هي قوله تعالى :{**وقد خلقكم أطواراً**} (نوح : ١٤) ، فمن الناحية التاريخية : قد يُراد بالأطوار المراحل الزمنية المتطاولة التي مر بها خلق البشر ، وتقلبهم في أطوار التسوية والتصوير والنفخة من روح الله: {**وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة**}.

[أقول: التاريخ لا سند له، ولا يُستدلّ به في المسائل العلميّة، بحيث يستطيع أي إنسان أن يقول:"وقد لا يُراد بالأطوار المراحل الزمنيّة المتطاولة"، أمّا السمع والبصر والفؤاد فتكون مع الإنسان السوي منذ خروجه إلى الدنيا، ولا يتعارض ذلك مع عدم علمه بشيء، ولا بعدم قدرته على الإفادة منها، إلاّ بعد مضي بعض الوقت.]

ومن الناحية المادية : قد يُراد بالأطوار ما جاء بعد ذلك مباشرة من حديث القرآن عن الجنين وأطواره في (**القرار المكين**) وهو رحم الأم ، فحديث سورة (المؤمنون) هو بمثابة الإجابة عن سؤال نَجَمَ عن ذكر الأطوار في سورة نوح .. ما هي هذه الأطوار؟؟ .. فجاء الرد في السورة الرابعة والسبعين (المؤمنون) وذلك قوله تعالى: { **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين** }، وكأن الآية تدفع عن العقل احتمال إدماج العمليتين في عملية واحدة، فالإنسان خلق من (سلالة) نسلت (من طين) ، أي : إنّه لم يخلق مباشرة من طين، فأما ابن الطين مباشرة فهو (أول البشر) وكان ذلك منذ ملايين السنين.

[أقول: أخطأ الدكتور هنا، لأنّ "الإنسان" في هذه الآية هو"آدم" نفسه الذي خُلق مباشرة من طين، وهو أول بشر، وسلالة الطين تعني أنّه بدأ خلقه من طين ثمّ من طين لازب، ثمّ من صلصال من حمإ مسنون، ثمّ من صلصال كالفخّار، ثمّ سوّاه الله بشراً (إنساناً) ونفخ فيه من روحه، وهي أطوار خلق آدم عليه السلام] .

وهذا المعنى هو الذي عبرت عنه السورة الخامسة والسبعون (السجدة) ، وهي إضافة مهمة للرد على السؤال المثار عن المقصود بـِ (الأطوار) في السورة الحادية والسبعين .. يقول الله سبحانه وتعالى : {**الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين * ثم سواه ونفخ فيه من روحه ..** } (السجدة : ٧-٩) .

فخلق الإنسان (بدأ من طين) ، أي : في شكل مشروع بشري ، ثم استخرج الله منه نسلاً { **من سلالة من ماء مهين** } ، ثمّ كانت التسوية فنفخ

الروح ، فكان (الإنسان) هو الثمرة في نهاية المطاف .. عبر تلكم الأطوار السحيقة العتيقة .

[أقول: المشروع البشري، والأطوار السحيقة العتيقة، موجودة في دماغ الدكتور فحسب، أمّا الحقيقة فهي عدم فهم الدكتور لمعاني هذه الآيات، وعدم انتباهه إلى أنّ الآية (٩) تتبع الآية (٧) مباشرة،(وأنّ الآية (٨) معترضة) وأنّ الآيتين٧ ،٩ متعلّقتان بخلق آدم أصل جنس الإنسان(جنس البشر)، فالله تعالى قد خلق آدم من طين ثمّ من صلصال كالفخّار، ثمّ سوّاه ونفخ فيه من روحه، ولم يرد قط نصّ واحد يقول : إنّ الله نفخ من روحه في بشر أو إنسان آخر(اللهمّ إلاّ النفخ في فرج مريم عليها السلام) أمّا الآية (٨) المعترضة فقد جاءت صريحة في تعلّقها بنسل آدم (من ماء مهين) ومعلوم أنّ نسل آدم جميعاً خلقوا من نفس واحدة ، هو أبيهم آدم عليه السلام.قال تعالى:{**يا أيُّها الناس اتقوا ربَّكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءاً**} (النساء : ١)]

وحسبنا أن نلاحظ هنا ما يشير إلى بعض مراحل التسوية في قوله تعالى في نص سورة السجدة :{ **ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** }، فقد تمّ هذا الجَعْل خلال مراحل التسوية.

[أقول : هذا أخطأ ، إذ لا وجود لمراحل التسوية في الآية، أمّا الجعل فجاء مع نفخ الروح، والتسوية لم تكن على مراحل، بل تمّت دفعة واحدة {**فإذا سوّيته**} أي سوَّيت آدم عليه السلام] وهو ما يفترض أنّ (البشر) كان في المراحل الأولى بلا سمع ولا بصر ولا فؤاد(عقل) تماماً كما هي حال المولود ،

حين يخرج من بطن أمه .. لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل ..

[أقول : هذه مقابلة لا تصح، لأنّ من يملك تلك الوسائل لا يُقارَن بمن لا يملكها، وقوله بوجود بشر بلا سمع ولا بصر ولا عقل، يتناقض مع قوله تعالى : { **الذي أحسن كلّ شيء خلقه** }، فالله تعالى قد أتقن كلّ شيء خلقه ، وهو أحسن الخالقين] لانعدام الحاجة إلى هذه الأدوات في المرحلة الأولى من الوجود فكل ما يحتاجه الوليد هو أن تكون له شفتان، يمتص بهما غذاءه من ثدي أمّه ، وبعد فترة ـــ وبالتدريج ـــ يبدأ في استخدام عينيه وأذنيه وعقله في التعامل مع ما حوله من عناصر الحياة، وهو قوله تعالى: {**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة**} (النحل: ٧٨)

[أقول: لعلّ الدكتور لا يُفرّق بين معنى عدم العلم، والسمع، ومعلوم أنّ عدم العلم شيء، والسمع أو البصر شيء آخر، ولا أدري كيف عاش أولئك البشر حياتهم الأولى عبر ملايين السنين دون سمع ولا بصر؟!].

لقد خلق الله البشر أطفالاً أو كالأطفال .. بلا أسماع ولا أبصار ولا عقول ثم جعل لهم هذه الأدوات في مراحل التسوية المتطاولة ، حين شاءت القدرة أن تزود هذا المخلوق البشري بما يحتاج إليه من أدوات الكمال.

[أقول: هذا فهم أعوج، فالله جلّ وعلا لم يخلق خلقاً ناقصاً بتاتاً(ما عدا الحالات الفرديّة الخاصّة) ولا أدري كيف غفل الدكتور عن هذه الحقيقة؟!]

بيد أنّ الحديث في السورة الرابعة والسبعين (المؤمنون) لم يقتصر على الإشارة التاريخية السابقة .. بل قدّم وصفاً ومتابعة لأطوار تكوين الجنين ، وهو إضافة لم تسبق في أي سياق مكي ، فقال سبحانه : { **ثم جعلناه نطفة في قرار مكين**

*** ثم خلقنا النطفة علقة * فخلقنا العلقة مضغة * فخلقنا المضغة عظاماً * فكسونا العظام لحماً * ثم أنشأناه خلقاً آخر * فتبارك الله أحسن الخالقين }**

(المؤمنون : ١٣-١٤) .

لقد مرّ النص الكريم بالمراحل المختلفة التي تبدأ بالنطفة ، وتنتهي بالإنسان في هذا الإيجاز المحكم الذي يتضمن حقائق الأطوار في ذلك القرار المكين .. رحم المرأة، هكذا عَبَرَ البشر كل الأطوار ، فصار خلقاً آخر : (إنساناً) ، **{ فتبارك الله أحسن الخالقين }.**

[أقول : أيَّةُ أطوار تلك التي مرّ بها البشر؟ وأين ذكر البشر هنا ، والنصّ متعلّق بأطوار الجنين في رحم أمّه ؟! فما هذا الهُراء ؟!].

وقد نلاحظ هنا أنّ نصّ (السجدة) يتلاقى مع هذا النص ، مع فارق الإجمال والتفصيل ، ومع انفراد (المؤمنون) بمراحل التكوين الجنيني ، وانفراد (السجدة) بمراحل التكوين الطيني .

ويبقى من الوحي المكي ما ورد في السورة الثانية والثمانين (الانفطار) من قوله تعالى : **{ يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم * الذي خلقك فسواك فعدلك * في أي صورة ما شاء ركبك }** (الانفطار : ٦-٨) .

وأيضاً ما ورد في السورة الرابعة والثمانين (الروم) من قوله تعالى : **{الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير}** (الروم : ٥٤) .

[أقول : الضعف الأول هو للجنين في رحم أمّه، أو وهو في المهد، والقوّة بعد الضعف هي مرحلة الشباب والرجولة، ثمّ يأتي ضعف كبر السنّ

والشيخوخة]وهما تنـــزيلان وردا في مقام التذكير بقدرة الله تعالى، وهيمنته على الإنسان، ومشيئته المطلقة ..{ **في أي صورة ما شاء ركّبك** } (يخلق ما يشاء)، وتنفرد الآية الأولى بمفهوم قوله: {**فعدلك**} وهو معنى خاص باختيار الصورة التي يظهر بها الإنسان على الأرض ، بين سائر الناس ذوي الصور المختلفة أيضاً، ولكل مخلوق صورته المتميزة عن سائر الصور، وتنفرد الآية الثانية بذكر الضعف والقوة ، وضابطهما من المشيئة الإلهية، فلا ضعف إلاّ بمشيئته ، ولا قوة إلاّ باختياره وإرادته { **وهو العليم القدير** } .

وبذلك ينتهي الحديث المكّي عن خلق الإنسان .

القرآن المدني

ثمّ تأتي المرحلة المدنيّة، وتبدأ بالسورة السابعة والثمانين (البقرة) ، فتذكر مرحلة أخرى من مراحل الملحمة الخالدة، دون أن تذكر(البشر أو الإنسان) ..بل هي تركز على (آدم) الذي يُهيأ لوظيفة (الخلافة) (البقرة : ٣٠ وما بعدها) وهو من أجل ذلك يعلم من اللغة ما لم تعلمه الملائكة ، وسيأتي في ذلك حديث .

وفي السورة الثامنة والتسعين (الرحمن) إشارتان ..

أولاهما : إلى علاقة الإنسان باللغة في مستواها البياني:{ **خلق الإنسان* علّمه البيان** } (الرحمن : ٣-٤) .

وثانيتهما: مزيد من التعريف بالصلصال الذي ذكر في السورة المكية (الحجر) على أنّه: {**صلصال من حمإ مسنون**}، فتصفه أنّه {**صلصال**

كالفخار}، وذلك في مقابل أنّ الجان خلقوا **{من مارج من نار}**، كما سبق أن قابل (الحمأ المسنون) بـِ (نار السموم) في سورة الحجر أيضاً ، وللتكرار هنا فائدة هي مزيد من التعريف بطبيعة المادة ، التي هي أصل الخلق ، وهي (الطين اللازب) كما جاء في الصافات .

وتبقى في المرحلة المدنية إشارة سورة (الإنسان) ، وهي السورة التاسعة والتسعون ، وقد جاءت في قوله تعالى **{ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً }** (الإنسان : ١-٢) .

وهو كما نرى نص يضيف وصفاً تحليلياً للنطفة ، فالأمشاج تطلق على الخلايا الذكرية ، كالحيوان المنوي ، وتطلق على الخلايا الأنثوية ، كالبيضة أو البويضة ، قبل أن تندمجا لتكوين اللاقحة (وهي البويضة الملقحة) التي تكون الجنين.[1]، والإنسان خليط من هذه الخلايا ، أو الأمشاج ، وهي حقيقة لم تذكر من قبل في أيّ سياق ، إلاّ ما جاء إشارة عامّة عن (الماء المهين) ، و(الماء الدافق) من الصلب والترائب .

وأخيراً تأتي السورة الخامسة بعد المائة : (الحج) ـــ لتقدم التقرير النهائي عن قصة الخلق في قوله تعالى : **{ يا أيّها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبيّن لكم ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً**

---

[1] المعجم الوسيط : مشج .

ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتوفى ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج } (الحج : ٥) .

وهي آية تتضمن تفاصيل مهمة، وبخاصة فيما يتعلق بالمضغة، فليست كل مضغة تتحول جنيناً .. بل قد تكون مخلقة وقد تكون غير مخلقة، وكذلك فيما يتعلق بحياة الإنسان: طفلاً، فبالغاً، وقد يحين موته أجلئذ ، وقد تمتد به الحياة إلى أرذل العمر، وهي حقائق سبق الإيماء إليها في سورة (غافر : ٦١)، ولكنها جاءت هنا في خاتمة التقرير عن إمكان البعث، ودفع الريب فيه من العقول والقلوب، وتلكم هي الغاية التي سيقت من أجلها كل هذه النصوص عن (خلق البشر ــ الإنسان) : **{ ذلك بأنّ الله هو الحق وأنّه يحيي الموتى وأنّه على كل شيء قدير * وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور}** (الحج :٦، ٧)

وأخيراً ، يختم الوحي حديثه بخطاب عام موجه إلى (الإنسانية) جمعاء ، من كل الألوان، والأجناس، والأصقاع، تحقيقاً لعموم الرسالة، وتأكيداً لمبدأ المساواة المطلقة بين جميع الناس ، وإعلاناً للقاعدة الإلهية التي سيتم على أساسها محاسبة الخلائق .. يوم الموقف العظيم .. جاء ذلك في سورة الحجرات، وهي السورة الثامنة بعد المائة، في قوله تعالى :**{ يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليم خبير}** (الحجرات : ١٣) .

[أقول : هذا كلام جميل وصحيح يُحسب للدكتور، مع ملاحظة استثناء

عيسى عليه السلام، الذي خُلق من أنثى دون أب، من آيات أخر]

إنّ هذا البيان الإلهي نداء إلى جميع (الناس) يذكرهم بوحدة الأصل ، فهم جميعاً قد نسلوا من ذكر وأنثى ، هما آدم وزوجه حواء ، باعتبارهما أول من تألقت فيهما صفات(الإنسان) من سلالات البشر.

[أقول: لقد عاد الدكتور إلى العبط ثانية، وإلاّ فأين النصّ على كلمة : "سلالات البشر" بصيغة الجمع ؟! فالقرآن لم ينصّ إلاّ على سلالتين هما :

١ ـــ سلالة من طين ـــ خلق آدم .

٢ ـــ سلالة من ماء مهين، خُلق ويُخلق بها جميع أبناء آدم (باستثناء عيسى عليه السلام) فالبشر هم آدم وحوَّاء وسلالة آدم، وهم جنس الإنسان، ولا التفات إلى مزاعم الدكتور التي ينقصها الدليل، وعندي أنّ من يلجأ إلى الخروج عن النص فيُحوّر الكلمة المفردة مثلاً إلى صيغة الجمع أو التثنية أو العكس، أو يأتي للكلمة بمعنى لم يعرفه الصحابة، ليُثبت أمراً لا حكمة ولا منطق فيه، ولا ينسجم مع آيات القرآن الأخرى، هو رجل معرّض للاتّهام، بل الطعن في تقواه وعلمه، وأهليّته للاجتهاد]، ولا التفات إلى ما سبقهما من السلالات والأجيال فهما في الواقع المنبع الذي تدفقت منه جماعات (الناس) على هذه الأرض، من بني آدم. أي : من ظهره، وقد جعلهما الله شعوباً وقبائل، فهم أصل واحد، ووجود متنوع، وعليهم ـــ وقد أدركوا هذه الحقيقة ـــ أن يتعارفوا بحكم ما بينهم من قرابة ، فلا فضل لأحد منهم على غيره من شركائه في الأصل بأي اعتبار مادي، وإنما يتفاضلون عند الله بالتزامهم أوامره، واجتنابهم محارمه، وطاعتهم المطلقة له، وبعبارة أوضح : بأن لا يأكلوا من الشجرة التي حرّمها

عليهم؛ شجرة المعصية التي حرمت على أبويهم في الجنة، وهي محرّمة عليهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

الفصل الثامـــن

الطريق إلى الجنة

ملاحظات على العلاقة بين البشر والإنسان :

حقيقة لا ريب لدينا فيها؛ هي أنّ بين (البشر والإنسان) عموماً وخصوصاً مطلقاً ، فـَ (البشر) لفظ عام في كل مخلوق ظهر على سطح الأرض، يسير على قدمين، منتصب القامة.

[أقول: هذا التعريف خطأ، لأنّه يشمل المخلوقات المتوحّشة الشبيهة بالبشر، التي عاشت على الأرض قبل ملايين السنين، وهم من خلق الله آدم ونسله ليخلفوهم في الأرض، بعد أن أبادهم الله]،و(الإنسان) لفظ خاص بكل من كان من البشر مكلفاً بمعرفة الله وعبادته ، فكل إنسان بشر ، وليس كل بشر إنساناً.

[أقول : هذا كلام دليله الشعبذة ، أمّا ما لا ريب فيه فهو وجود ترادف تام بين اسمين هما (بشر) و(إنسان) لمسمّى واحد هو (آدم) وينطبق على نسله ما انطبق عليه، والمعنى الذي أتى به الدكتور لكلمة "بشر" لم يرد في معاجم اللغة، ولا في استخدامات العرب، لذلك لا عبرة به].

والمقصود هو طبعاً المعنى الأول الذي استعملت فيه الكلمة (بشر) في آيات القرآن ، وهو الظاهر أو المتحرك مع حسن وجمال. وقد جاءت في القرآن كلمة أعمّ من : البشر والإنسان، وهي كلمة (الأنام) وتعني كل مخلوق على ظهر الأرض ، عاقلاً أو غير عاقل ، وإن كان المفسرون يرون أن الكلمة تعني في

الأرض ، عاقلاً أو غير عاقل ، وإن كان المفسرون يرون أن الكلمة تعني في قوله تعالى : { **والأرض وضعها للأنام** } (الرحمن : ١٠) : الجن والإنس ، وهما الثقلان المخاطبان كما هو وارد في هذه السورة المدنية .

وجاء أيضاً في سورة (البيّـنة) ، وهي سورة مدنية ، وهي السورة الحادية بعد المائة نزولاً ـــ إطلاق لفظة (البريّة) على (الخلق) ، والجمع : برايا، قال الله سبحانه وتعالى في وصف الكافرين والمشركين :

{ **أولئك هم شرّ البريّة** } ، وقال في وصف المؤمنين :

{ **أولئك هم خير البريّة** } (البيّـنة : ٦-٧).

ونستطيع أن نقرر مع علماء الإنسان (الأنثروبولوجيين) أنّ الأرض عرفت هذا الخلق الذي ظهر على سطحها منذ ملايين السنين.

[أقول : لا أدري كيف ناقض الدكتور عبد الصبور ما سبق أن قرره في (ص١٥) من أنّ علم الأنثروبولوجي لم يستقّر بعد، فجاء هنا يناقض قوله ذاك، فأقرَّ ما لم يُقرّه القرآن، ولا العلماء، ولا أدري من أين جاء الدكتور بلوثة ملايين السنين هذه؟!] تختلف في تقديرات العلم باختلاف عمر الأحافير ، ونتائج التحليلات العلميّة ، وقد أطلق العلماء على هذا المخلوق خطأً أو تجاوزاً لقب : (إنسان) ، فقالوا : إنسان بكين ، أو إنسان جاوة ، أو إنسان كينيا، أو ما سوى ذلك من الإطلاقات التي تعني مراحل تكوين (البشر) بإطلاق القرآن ، واستخدام كلمة (إنسان) في وصف هؤلاء ليس إلاّ على سبيل التوسّع كما استخدمت كلمة (بشر) للدلالة على معنى (الإنسان) توسعاً أيضاً، وإلاّ فاللفظ الدقيق بلغة القرآن، والذي ينبغي أن يستخدم في تسمية تلك المخلوقات

العتيقة التي تدل عليها الأحافير ــ هو (البشر)، فواجب أن يقال : بشر بكين ، وبشر جاوة ، وبشر كينيا، وبشر النياندارتال ..إلخ.

[أقول: الذين عاشوا على الأرض قبل آدم لا هم بشر ولا ناس ، بل مخلوقات(من أصل طيني) همجيّة متوحّشة ، مفسدة في الأرض ، سفّاكة للدماء لا روح فيها، ولا عقل لها، ووجود بعض التشابه الخَلقي بين تلك المخلوقات والبشر لا يعني أنّهم من البشر، فالله قد خلق أنواعاً لا تُحصى من المخلوقات ، وكل جنس له شيفرة خاصّة به ، وحامض نووي مختلف عن غيره ، وعليه فجميع تلك التسميات لا تصحّ].

أمّا (الإنسان) فلا يُطلق بمفهوم القرآن إلاّ على ذلك المخلوق المكلّف بالتوحيد والعبادة لا غير، وهو الذي يبدأ بوجود آدم عليه السلام ، وآدم ــ على هذا ــ هو (أبو الإنسان) وليس (أبو البشر)، ولا علاقة بين آدم والبشر الذين بادوا قبله تمهيداً لظهور ذلك النسل الآدمي الجديد، اللهم إلاّ تلك العلاقة العامة أو التذكارية باعتباره من نسلهم .

[أقول : لكن الدكتور قال في موضع آخر: إنّ آدم (أبو الإنسان) ولد من أبوين، وعلى رأيه هذا فإنّ أبويه هما من البشر الذين بادوا، والسؤال هو : هل باد البشر في حياة آدم ، أي بعد أن خلّفوه وربّوه ؟! وعندها لا يكون هناك أي معنى لكل هذه المزاعم، لأنّ التطوير والتحسين الممكن وقوعه على آدم الابن خلال بضع سنين لا يكاد يُذكر، وإذا كان البشر قد بادوا قبل آدم (أبو الإنسان) بمليون سنة مثلاً فمن هما والدا آدم هذا ؟! ناهيك عن تناقض هذا الزعم مع القرآن، بما يُعرِّض قائله للمُسائلة، وسوء الظن به، وبغرضه].

ولأمر ما وجدنا أنّ القرآن لا يخاطب البشر .. بل يخاطب الإنسان والتكليف الديني منوط بصفة (الإنسانية) ، لا بصفة (البشرية) ، فلم يعد للبشر وجود من ظهر آدم عليه السلام، وتناسلت ذريته ، وورثت الأرض وما عليها.

[أقول: إمَّا أنَّ هذا افتراء مقصود، أو نوع جهل معهود؟! فالله تعالى قد خاطب البشر في غير آية، وأذكر هنا قوله تعالى للنبي محمد صلّى الله عليه وسلّم :{**وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخلد أفإن متّ فهم الخالدون**} (الأنبياء : ٣٤)
فهل تجاهل الدكتور هذه الآية متعمّداً، لأنَّها تُكذب زعمه، أم ماذا ؟!]

ولأمر ما أيضاً وجدنا أنّ كلمة (البشر) جامدة لا تتصرف ، اللهم إلاّ بالتثنية والجمع في قليل الاستعمال ، على حين أنّ كلمة (إنسان) متصرفة مرنة ، وردت في القرآن بصور مختلفة ، وهي مفرد ، جمعه : أناسين ، وأناسي، وقد استعمل مصغراً فقيل : أنيسيان ، والإنس : اسم جماعة الناس ، والجمع أناس ، والواحد : إنسي .

والناس : اسم جمع من النوس ، وهو الحركة .. واحده : إنسان من غير لفظه ، ويقال للمرأة إنسان ، ولا يقال : إنسانة ، وإن شاعت على ألسنة العامة . وكل ذلك أكسب الكلمة مرونة في الاستعمال .

وليس يبعد أن نفترض أنّ الخالق سبحانه ـــ وقد مضت مشيئته بتفرد آدم وذريته بالسيادة على الأرض ، والنهوض بأمر الدين ، وإقامة التكاليف ، وفي مقدمتها التوحيد ـــ قدر سبحانه فناء كل البشر، من غير ولد آدم ، وذلك بعد عزل السلالة الجديدة المنتقاة في الجنة ، حتى تتم إبادة جماعة الهمج البشرية .

[أقول : جماعة الهمج ...نعم ، أمّا البشريّة... فلا، لأنّ البشر هم آدم وذريّته، والنص لم يقل بعزل السلالة الجديدة في الجنّة بل قال تعالى :{ **وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة**} (البقرة :٣٥) تحديداً، وعليه فمهما حاول الدكتور اللجوء إلى الشعبذة ، والسرَحَان بذهن القارئ إلى أمور جانبيّة فلن ينجح، لأنّ النصَّ يخذله] لتبدأ بعد ذلك الملحمة الإنسانية ، بطبيعتها المصطفاة : آدم وحواء ، وبدأ التكليف داخل الجنة،[أقول: لا يوجد في الجنّة تكليف بالمعنى الشرعي المعروف في الدنيا]، وبدأ الصراع بعد أن أخليت ساحته من العناصر الطفيلية التي لم يعد لها دور، بل التي انتهى دورها، ليبدأ على الأرض دور جديد..لكن؛كيف بدأ هذا الدور؟..أو كيف استهلّ ذلكم العهد؟

ذلك ما لا سبيل إلى تصويره إلاّ من خلال الكلمات المجردة ، ولا دور للخيال في رسم صورته إلاّ من خلال الإيمان المطلق بعالم الغيب ، فذلكم مشهد غيبي تمّ قبل الزمان الإنساني بزمان إلهي ، حين صدر أمر بأن يكون الكون ... فكان .. كل ما كان ، وكل ما يكون أو سيكون على طول الزمان وبعد أن ينتهي هذا الزمان ، فيبدأ للوجود تقويم زمني آخر { **يوم تُبدَل الأرض غير الأرض والسموات** } .

حينذاك أمر الله سبحانه كل الذراري التي قدّر أن تخرج على ساحة الغيب، أن تمثل بين يديه، وكانت آنذاك مجرد ذرات لا يحصيها ولا يحصرها حد، إلاّ علم الله وحده .. { **ألا يعلم من خلق** } و{ **لقد أحصاهم وعدّهم عداً * وكلهم آتية يوم القيامة فرداً**} (مريم :٩٤ ــ٩٥) وأسرعت الذرات بالمثول أمام الجلال الإلهي ، فألقى الله – سبحانه – على المشهد الهائل سؤالاً

واحداً هو الذي من أجله كانت الدعوة إلى الحضور: قال الله : ألست بربكم ؟

وتلقوا السؤال ووعوه فقالوا جميعاً في صوت واحد : بلى.. شهدنا.

وقال الله مبيّناً الحكمة من هذا الحشد : {**أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبل وكنّا ذريّة من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون**} (الأعراف: ١٧٢-١٧٣) .

إنّ النصّ القرآني يروي حكاية هذا المشهد الكوني الرهيب ، وهو يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكّر المؤمنين به { **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ...**}.

[أقول : هذا تفسير خطأ، استند فيه المفسّر على خبر آحاد ضعيف (من الإسرائيليات)، فالآيةِ هنا تتحدّث عن بني آدم ــ لا آدم ــ وأخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريّتهم، أي جعل ذريّتهم تخرج من أصلابهم ، فما علاقة آدم بهذه الآية، وخرافة الذّر هذه ؟! والخطاب فيها موجّه لبني آدم، لا للذرّ ، فخرافة الذرِّ أشاعها يهود، فالذّر لا يعي ولا يفقه، ومخاطبته من العبث، وحاشا لله من العبث].

ولا ريب أنّ سجل كل آدمي، أو كتابه الذي سيقدم إليه يوم القيامة - سوف يكون مستهلاً بصورة من هذا المشهد .. تبيّن موقعه بين من حضروا هذا اللقاء، وتثبت وجوده، وشهادته على نفسه بالإقرار بعبوديته لله : إلهاً ، ورباً ، وحاكماً . وستكون هذه الصورة هي المرجع الأول أو المستند الرئيس في محاكمة كل آدمي يوم القيامة : { **اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً** } (الإسراء : ١٤) .

[أقول : أيّ تخريف هذا ؟ وأيّ جهل؟! فكتاب الأعمال يوم القيامة لن يحوي سوى ما قاله أو عمله أو أقرّه أو اعتقده الإنسان مختاراً، منذ بلوغه الحلم حتّى وفاته، أو تخريفه، والله أعلم، وهو ما دلّت عليه الآيات المحكمات الكثيرات].

هكذا بدأ العهد الآدمي في ملحمة الخليقة ، وهكذا كان الدين وتكاليفه نقطة البداية في رحلة الإنسان نحو الموعد ، موعد اللقاء مع الله ، فهو يسير بين جدارين متوازنين ، جدار المسئوليّة الجماعيّة في الدنيا .... وجدار المسئوليّة الفرديّة في الآخرة ... وبهذا اختلف الإنسان عن البشر.

[أقول: هذا كلام ينقصه الدليل، فالإنسان بشر، والبشر هم أبناء آدم الذي خلقه الله بيديه (بنفسه تعالى) من الطين، وهو آدم نفسه، الذي سجدت له الملائكة، فلا اختلاف بين الإنسان والبشر].

إنّ الدين يتضمن تكاليف تخص (الإنسان) باعتباره فرداً كما تخص (النّاس) باعتبارهم مجتمعاً، وليس هذا التفريق بين الفرد والمجتمع بوارد في استعمال كلمة (بشر)، ففي إطار (البشرية) لا تفريق بين المستويات أو الأسماء.

[أقول : وماذا في ذلك ؟! فالمترادفات أصلها صفات لمسمى واحد ، وتلك الصفات بينها فروق وزيادة معنى، فالقرآن قد استخدم كلمة بشر حيث استوجب السياق استخدامها، ومثلها كلمة إنسان أو الناس، وكل كلمة هي الأبلغ والأقوى في سياقها] إذا افترضنا أنّ البشر عرفوا شيئاً اسمه (اللغة)، وهو أمر غير بعيد ، لأنّهم كانوا مجتمعاً حيوانيّاً.

[أقول: العلم لا يثبت بالافتراض، بل يحتاج إلى براهين وأدلّة قاطعة،

والبشر لم يسبق لهم أن كانوا مجتمعاً حيوانيّاً يا هذا، فأين دليلك؟] كل فرد فيه ككل فرد ، وكل فرد بمثابة أية جماعة، لا اعتبار للفروق الفرديّة.

لقد كان (البشر) خلال الأحقاب والعهود المتطاولة مجرد مخلوقات متحركة، حيوانية السلوك، ولكنها تزداد في كل مرحلة تعديلاً في سلوكها، ونضجاً في خبرتها، وتلوناً في طرائق التفاهم اللغوي فيما بينها . وربما كان هذا هو المقصود بسؤال الملائكة للرّب – جلّ وعلا – :**{أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء}**..كان هذا هو الواقع المشاهد، فتعجبت الملائكة من استخلاف هؤلاء المفسدين المتوحشين !

[أقول : قول الدكتور: "ربّما كان"، تفيد الظن، ولا يُستفاد منها علم، وللحقيقة فلا دليل على وجود أقوام همج متوحّشين عاشوا على الأرض قبل آدم إلاّ في هذه الآية، والله تعالى لم يُسمّهم بشراً، ولا دليل على أنّهم كانوا من البشر، ولمّا كانت الملائكة لا يعلمون الغيب، وكانوا قد خبروا وجود تلك المخلوقات ذات الأصل الطيني، التي كانت تسفك الدماء وتفسد في الأرض، فكان ذلك ما دفعهم للاستفسار عن حكمة الله تعالى في خلق أقوام مثلهم تخلف أولئك المتوحّشين بعد إبادتهم، وعليه فكل ما جاء به الدكتور عبد الصبور في هذا الأمر مجرّد خيالات وأوهام ، ناهيك أنّه يتعارض بشكل سافر مع آيات القرآن المحكمات].

وطبيعي أن ندرك كذلك أنّ الزمن في هذه الحال لم يكن له معنى أيضاً؛ السَّنَةُ كالسَّنَةِ ، وألف سنة ، أو حتى مليون سنة – كيوم واحد لا معنى لبدايته أو نهايته ، ولا وظيفة له وقد عدم موضوعه ، ومن المعروف أن بعض الكائنات

التي عاشت في الكهوف المظلمة فقدت قدرتها على الإبصار ، إذ كانت الحياة بالنسبة إليها ظلاماً في ظلام .

[أقول: هذا استهتار بعامل الزمن لا يُسلّم له به ، ولا دليل عليه]

وقد عشنا في حياتنا تجربة تقرب إلينا هذا المعنى ، حين ساقتنا الظروف التعيسة إلى حبس (زنزانة) في الاعتقال السياسي (عام ١٩٥٥) .. كانت زنزانة مظلمة .. لم نكن ندري فيها مرور الأيام ، ولا حدود الشهور ، فقد تساوى الليل والنهار ، وضاعت المعالم والآثار .

وبين أيدينا شواهد قرآنية على صواب ما نذهب إليه : ذلك أنّ قصة الخلق التي جاءت في سورة (ص) تعطينا الإشارة الأولى إلى الدليل على تمادي العهود التي عاشتها البشريّة في ظلام الزمن السحيق، أو في زنزانة ذيّاك الزمن .. يقول الله تعالى : { **إذ قال ربك للملائكة إنّي خالقٌ بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** } (ص : ٧١-٧٢) ، وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أنّ هذا (البشر) هو (آدم) عليه السلام، وأنّ الله سبحانه وتعالى كلّف بعض ملائكته أن يجمعوا له من تراب الأرض ، من جميع أخلاطه وألوانه ، كما ذكرت الروايات الواردة في الطبري ، نقلاً عن الإسرائيليّات ، ونقل عنه من جاء بعده ، وأنّ الله خلق هذا البشر ، وسواه ، ونفخ فيه من روحه ، فكان آدم الذي سجدت له الملائكة .

[أقول : لست مع الإسرائيليات، ولا يعنيني قول الطبري ولا غيره، ما دام النصّ قد جاء محكماً صريحاً {**لمـا خلقت بيدي**} فهو خلق واحد لبشر واحد، هو آدم الإنسان(أبو البشر) عليه السلام، الذي خلقه الله بيديه (أي

بنفسه تعالى، دون مساعدة،أو توكيل أحد ملائكته بتلك المُهمَّة) وهذه الآية تُنهي الإشكال عند الدكتور، وتردّ، بل تنسف ما جاء في الإسرائيليات].

والواقع الذي عبّرت عنه الآيتان - في نظرنا - هو أنّ الله سبحانه خلق (أو أراد خلق) البشر من طين ، وأخبر ملائكته بهذا الخبر، أو الإرادة العلوية :{ **إنّي خالقٌ بشراً** } وهذه هي المرحلة الأولى في المشروع الإلهي.

[أقول: أين النص على:"المرحلة الأولى" و"المشروع الإلهي"؟! فهذه إضافات (بدع) من الدكتور لا دليل عليها، بل لا أصل لها ، وكلمة (البشر) هي{**بشراً**}، وهي تعني فرداً واحداً يقيناً، وليس (البشر) جميع البشر، فهل هذه غفلة من الدكتور؟! أم هي استغفال للقارىء الجاهل؟!] هنا لا تعني فرداً واحداً بل هي - بحسب الأصل - تطلق على أكثر من واحد ، لدلالتها على الجنس ، وقد حدّد القرآن الصورة الأولى لخلق الكائنات بأنها خلقت أزواجاً، فقال سبحانه : {**وخلقناكم أزواجاً**} (النبأ : ٨) وذلك إنطلاقاً من الأرض : { **والله أنبتكم من الأرض نباتاً** }(نوح : ١٧)، فمن الأرض كان إنطلاق الحياة في شكل أزواج متنوعات:{ **ومن كل شيءٍ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** } (الذاريات : ٤٩) {**ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين**} (الرعد : ٣) .

[أقول: كانت الزوجيّة في الناس بعد خلق آدم، أمّا آدم فخُلق فرداً، ناهيك أنّ الله تعالى لم يقل إنّي خالق البشر ، بل قال : {**إنّي خالق بشراً**}، ومعلوم أنّ كلمة "بشر" التي جاءت هنا نكرة تُطلق على فرد كما تطلق على جماعة ، وإضافة الألف واللام أمامها من قبل الدكتور عبد الصبور لتعطي معنى الجنس، إمّا أنّه تزييف مُتعمّد، وإمّا أنّ سببه الجهل والتأثّر بعلوم لم تستقر بعد].

وتأتي بعد ذلك مرحلتان في قوله تعالى:{ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحي** } وهي آية مصدّرة بأداة ظرفية زمانية هي (إذا) ، وهي ظرف لما يستقبل من الزمان، ويمكن أن يكون هذا الزمان لحظة ، كما يمكن أن يكون دهراً طويلاً، والقدرة التي تنجز هذا المشروع.

[أقول: أي مشروع هذا ؟ وأين ذُكر؟ فعلى حد علمي المتواضع إنّ كلمة "مشروع" هذه لا وجود لها في القرآن، ولا في السنّة] هي القدرة التي تقول للشيء (كن فيكون) أي: القدرة الكنيّة التي لا يحكمها الزمان ولا المكان.. بل هي التي خلقت الزمان والمكان، ونحسب أنّ استخدام (إذا) في هذا السياق لا يبعد أن يُراد به ملايين السنين بحساب الزمن الدنيوي ، وإن كانت هذه الملايين لا تعدو أن تكون أياماً معدودة في حساب الزمن الإلهي، كما أنّها مرت مجرد كتلة في ظلام دائم ، لم تلمع خلاله أشعة العقل، ولا أضواء المعرفة.

[أقول: قول الدكتور:"نحسب"و"لا يبعد" من صيغ التضعيف والتشكيك، في حين نصّ القرآن على أنّ كل ألف سنة قمريّة ممّا نعد في الدنيا تساوي عند الله يوماً واحداً، وعليه فملايين السنين عندنا لا تساوي عند الله آيّاماً معدودة ، بل تساوي آلاف الأيّام، ولا أدري من أين جاءت للدكتور لوثة ملايين السنين هذه، حتّى راح يردّدها بمناسبة وبغير مناسبة، أمّا العلم المستفاد من نص الآية مباشرة فهو : الواو في كلمة "ونفخت"حرف عطف لا يدلّ على الزمن، أمّا الفاء في كلمة "فقعوا" فحرف عطف يدلّ على الترتيب والتعقيب معاً دون

تراخٍ ، بما يُفهم منه انتفاء الزمن، أي وقوع السجود بعد نفخ الروح مباشرة، وليس بعد ملايين السنين كما زعم الدكتور].

وقد استخدمت (إذا) في القرآن للدلالة على المستقبل القريب والمستقبل البعيد سواءً، فقوله تعالى:{**وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون**} (المرسلات : ٤٨) لا تزيد فيه مساحة (إذا) الزمنية على لحظة ينطق فيها الأمر: (اركعوا)، ولكن قوله تعالى:{**حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيّنت**} (يونس : ٢٤) تمتد فيه المساحة إلى زمان غير معلوم.

[أقول : زمان غير معلوم ..نعم ، أمّا قول الدكتور أنّه ملايين السنين فنوع تخمين، وتكهُّن، لا دليل عليهما.]

وكذلك في الآيات : {**إذا الشمس كوّرت**} (التكوير:١)، و { **إذا السماء انفطرت** } (الإنفطار : ١) و{ **فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة** } (الحاقّة : ١٣) .. تتراحب في هذه الآيات مساحة الظرف إلى ما شاء الله، وهو استخدام قرآني مستقبلي .. تحسب أبعاده بالسنين المعروفة لنا، فأما إذا عبّرت عن المستقبل في داخل الماضي فتلكم هي المشكلة التي يستحيل حسابها، ومن هذا القبيل تأتي (إذا) في قوله تعالى :{ **فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي** } ظرفاً زمنيّاً تعبيراً عن إرادة أزليّة تمضي في تحقيقها عبر ملايين السنين، تسوّي ذاك المخلوق وهو جنس (البشر)، ثم تزوّده بنفخة الله الروحيّة ليكون عندئذٍ (الإنسان) الذي تسجد له الملائكة، الإنسان الذي يدخل بوابة الزمان، ويبدأ حضوره وحضارته ،[أقول : ما يُفهم من آيات القرآن المُحكمات هو أنّ تسوية آدم ونفخ الروح فيه وسجود الملائكة له ، إنّما حصل في مشهد واحد، ويستحيل

عقلاً وشرعاً ولغة استمرار ذلك المشهد ملايين السنين]

ومعنى ذلك أنّ خلق الإنسان تمّ عبر ثلاث مراحل هائلة، هي (الخلق، والتسوية، والنفخ)، ومن السذاجة أن نفسّر هذا النّفخ بأنّه بث الروح في الجسد.

[أقول : لقد غاب عن الدكتور أنّ الله تعالى خلق الإنسان من (جسد + حياة + روح)، وباجتماعها جميعاً يكون حيّاً، ويسمّى نفساً، فبعد أن جفّ جسد آدم الطيني، فصار من صلصال كالفخّار، سوّاه الله، بأن أحياه ونفخ فيه من روحه، بأن قال له : " كن" "فكان"، وهو ما يُفهم من آيات أخر]. فقد حدث هذا في مرحلة (الخلق) الأولى، التي أحالت التراب أو الطين إلى مخلوق ظاهر(بشر) يتحرّك على الأرض بصورة حيوانيّة،كما تتحرك سائر الكائنات من حشرات، وطير وحيوان، ثم تناولت القدرة ذلك المخلوق في المرحلة الثانية (التسوية) أو ما يمكن تشبيهه بهندسة البناء وتجميله، وهي مرحلة التعديل المادي أو الظاهري، وقد استغرقت ملايين السنين[لا دليل هنا سوى الشعبذة] والله أعلم بتفاصيلها، ثم جاءت المرحلة الثالثة للهندسة الداخليّة ، وهي المتمثلة في تزويد المخلوق السوي بالملكات والقدرات العليا، التي جوهرها (العقل)، والحياة الإجتماعيّة ثمرة العقل، واللغة وسيلة الإتصال بين أفراد المجتمع من العقلاء، وبذلك اكتمل مشروع بناء(الإنسان)، فكان (آدم) هو أوّل (إنسان)، وطليعة سلالة التكليف بتوحيد الله وعبادته .

ومما يُستدل به على هذه المراحل وتكاملها استعمال القرآن لأداة التراخي (ثمّ) في ربط أجزاء الجملة في سورة السجدة، مثلاً في قوله تعالى : { **وبدأ خلق**

الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالةٍ من ماءٍ مهين * ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه } (السجدة : ٧-٩) والأداة (ثمّ) للترتيب مع التراخي، وكأن استعمالها في هذا السياق ترجمة لمفهوم الزمان المتطاول الذي عبر عنه الظرف (إذا)، في مقابل استخدام الفاء أو الواو في ربط أجزاء أخرى من الآيات ، تعبيراً عن التعقيب أو مطلق الجمع [1] .

[أقول : هذه الآيات التي أخطأ فهمها الدكتور عبد الصبور هي دليل لنا لا له، لأنّ الآية رقم (٨) المُعترضة جاءت بمعلومة جديدة تتعلّق ببني آدم ، أي بنسل آدم لا بآدم، والآية رقم(٩) تتبع رقم(٧) وهما متعلّقتان بآدم لا بغيره ، وقد سبق أن بيَّنت ذلك، وعليه فلا زمان متطاول ، ولا مشاريع ، ولا هندسة داخليّة، ولا ملايين السنين ولا غيره، فالله قد خلق آدم الإنسان (وهو أول بشر) من طين، ثمّ (بعد فترة زمنيّة لم يعلمنا بمقدارها) سوّاه ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة، ثمّ بعد خروج آدم من الجنّة، وهبوطه (وحوّاء) إلى الأرض جعل نسله من سلالة من ماء مهين، إي من منيٍّ يُمنى، واستمر الحال على ذلك منذ ذلك الحين، وسوف يستمر كذلك حتّى قيام الساعة].

بل إنّ هذا التراخي يتجلى في سورة (المؤمنون) في قوله تعالى : **{ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقةً فخلقنا العلقة مضغةً فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر}** (المؤمنون : ١٢-١٤) ولنتأمل استعمال (ثمّ) في الآيات،

---

[1] التعقيب تعبير عن تتابع الأحداث ، بعضها في إثر بعض دون فاصل طويل من الزمن ، وهو وظيفة (الفاء) العاطفة أصلاً ، ومطلق الجمع هو وظيفة (الواو) فهي لا تفيد ترتيباً ولا تعقيباً .

بجانب استعمال (الفاء)، فبين (الخلق) من الطين و(الجَعْل) { **نطفةً في قرار مكين** }- مسافة زمنيّة لا يعلمها إلاّ الله، استغرقتها عمليّات التسوية.

[أعود فأقول: لا ذكر لعمليات التسوية أو التسوية في هذه الآيات، فكيف حشرها الدكتور هنا ؟! فآيات (المؤمنون ١٢-١٤) تتحدّث عن مراحل خلق الإنسان وهي : خلق أصله (آدم) من سلالة من طين ، ثمّ جعل نسله يتوالد من ماء مهين، الذي منه تأتي النطفة التي تعلق برحم الأم، ثمّ تتحوّل بقدرة الله إلى علقة،فمضغة، فعظام ثمَّ يكسوها اللحم،{**ثمّ أنشأناه خلقاً آخر**} أي على شكل الإنسان، وهي أطوار الجنين في رحم أمّه كما أوضحت ذلك آيات أخر]

وهذا (الجَعْل) تعبير عن جانب من استكمال (الخلق) ثمّ تكون النطفة علقة، ولعل تقدير ذلك تّم في زمان متطاول أيضاً.

[أقول : بل هي مسافة زمنيّة معروفة، فآدم عندما أهبط إلى الأرض ومعه زوجه حوّاء تعاشرا وأنجبا أبناءً وبناتاً عن طريق الماء المهين، وبُثّ منهم رجالاً ونساءً كثيراً].

وتذكر الآية بعد ذلك عمليات تخليق الجنين، وهي عمليات متتابعة لا يفصل بينها سوى أشهر أو أيام معدودات .. زمن قصير نسبيّاً .. بين العلقة والمضغة، وبين المضغة والعظام، وبين العظام واللحم، وذلك كله معطوف بالفاء، ويعود السياق بعد ذلك إلى استخدام (ثمّ) للتعبير عن طول الفترة الزمنيّة بين ما سبق وما سوف يأتي بعد : { **ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** } والمعنى التاريخي لإنشاء هذا الخلق هو النقلة من البشر إلى الإنسان، وهو خلقٌ آخر فعلاً، إلى جانب احتمال أن يكون المراد هو المولود

الجديد .[أقول : بل هو المولود الجديد الذي يصوّره الملك على شكل إنسان ــ وفق إذن الله تعالى ومشيئته ــ].

ويمضي السياق ملتزماً نفس الإيقاع البطيء :{**ثُمَّ إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تُبعثون**} (المؤمنون : ١٥-١٦) ، لقد عبّرت (ثمّ) في الآيتين الأخيرتين عن زمن طويل، هو في الآية الأولى (عمر الإنسان) الذي يعيشه حتى الموت.

[أقول : ليس جميع الناس يعيشون زمناً طويلاً، أم ماذا ترى؟!] الذي يضع نهاية للحياة المقدورة لذلك الكائن، وهو في الآية الثانية مدَّة ما بيننا وبين القيامة والبعث. [أقول : هذا خطأ فاحش، وجهل فاضح، ذلك أنَّ المدّة الزمنيَّة بين الموت والبعث (بالنسبة للميّت) تساوي صفر زمن، والدليل قول الرجل الصالح : {**لبثت يوماً أو بعض يوم**} بعد أن أماته الله مائة عام (بالتقويم الشمسي)، وما كان قوله ذاك إلاّ وفق ما اعتاده من النوم (يوماً أو بعض يوم)، أمّا الحقيقة فهي عدم شعوره بالزمن الذي توقّف بحقه تماماً، طوال فترة رقاده ميّتاً، فلا حياة، ولا عذاب في القبر يقيناً].

ولنقرأ أخيراً آية الأعراف، قوله تعالى:{**ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** } (الأعراف : ١١) ، وهي آية تعبر عن مرحلتين هما: (الخلق والتصوير)، وبينهما فيما نتصور آماد هائلة، تعبر عنها الأداة (ثم) وهو في رأينا تعبير عن أن الأمر بالسجود لم يكن بعد مرحلة التصوير مباشرة ، وهو ما يعني مرحلة التسوية .. بل جاءت قبله مرحلة (النفخ من روح الله) ، وقد أومأ إليها استخدام (ثم) في صدر الجملة { **ثم قلنا للملائكة اسجدوا**

لآدم} ، دون أن يصرح بها ، لأنه لا سجود إلاّ لمن زود بروح الله.

[أقول: هذه آية مجملة فصّلتها آيات أخر، فالله قد خلق آدم، (وخلق نسله)، وسوّى آدم (وصوّر نسله في آية مُعترضة)، ثمّ أمر الملائكة بالسجود لآدم ، بعد أن نفخ فيه من روحه ، وهو ما لم يُذكر هنا ، بل ذُكر في آيات أخر، فأين ذلك من مزاعم الدكتور هذه، وقوله بمرحلة التسوية، والآماد الهائلة المزعومة ؟!].

وبرغم ذلك قد يعبر النص القرآني عما شأنه التراخي ـــ بالفاء ، فهو يضمنها معنى (ثم) ، أو بتعبير أدق : يوظفها في موقع (ثم) ، كما جاء في قوله تعالى:{ **يا أيها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم * الذي خلقك فسواك فعدلك * في أي صورة ما شاء ركّبك**}(الانفطار: ٦-٨) ، وقد يسوغ هذا التضمين أن المخاطب ـــ وهو الإنسان ـــ لا يرى في ذاته سوى مخلوق مكتمل، خلقاً وتسوية، وعدلاً، فهو يرى اندماج هذه المراحل في ذاته ، ولذلك لاق أن يضمن (الفاء) معنى (ثمّ) المتراخية .

[أقول : لقد تفوّق الدكتور عبد الصبور هنا على أستاذه الدكتور محمد شحرور في استحداث معان مبتدعة لبعض الكلمات، أو مطّها وتغيير معاني ألفاظها بما يخدم هواه وغرضه، ولو صحّ هذا لما بقي للّغة العربيّة من معنى، ولضاع الإسلام بضياع معاني ألفاظ القرآن، وهو أمر جلل، فالحمد، كلّ الحمد لله أن حفظ لنا القرآن ، والشكر، كلّ الشكر لفرسان البيان، وعلماء اللغة الذين حفظوا لنا لغة القرآن، فقوله تعالى :{**يا أيّها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم**} متعلّق بآدم، وبكلّ إنسان (نسل آدم) في كلّ زمان ومكان،

وقوله: {الذي خلقك فسوّاك فعدلك}متعلقة بآدم، وبكلِّ آدمي، وقوله :{في أيّ صورة ما شاء ركّبك} تتعلّق بآدم، وبنسل آدم، وتصويرهم في أرحام أمهاتهم، وهي آية مجملة تتعلّق بامتنان الله تعالى على خلقه، لا ببدء الخلق ولا كيفيّته، والله أعلم].

وقد يُفسر هذه المراحل في سورة الانفطار على أنّها خاصة بأحوال الجنين في بطن أمه كما يقول الإمام القرطبي : (خلقك .. أي : قدر خلقك من نطفة ، فسواك : في بطن أمك ، وجعل لك يدين ورجلين وعينين وسائر أعضائك ، فعدلك .. أي : جعلك معتدلاً سوي الخلق ... وقرأ الكوفيون : عاصم وحمزة والكسائي: فعدلك .. مخففاً، أي : أمالك وصرفك إلى أيّ صورة شاء ، إما حسناً وإما قبيحاً ، وإما طويلاً وإما قصيراً) .

ولسنا مع هذا التوجيه، مع أنّه يحل مشكلة التراخي مع الفاء ، لأن الأسلوب القرآني درج على استخدام كلمات الخلق والتسوية والنفخ ـــ خاصّة بأحوال البشر منذ وجدوا، إلى أن صار البشر سوياً .. أي : إنساناً اصطفاه الله، وناط به تحقيق رسالة العبوديّة لله رب العالمين .

تُرى؛ كم من الأجيال البشرية لزم لعمليتي التسوية ، والنفخ ، حتى كان آدم ذلك الإنسان الكامل الناطق ؟!

لا نبالغ إذا قلنا: إنّ ذلك اقتضى مئات الألوف من الأجيال ، وقد سجل كل جيل بصمته المتميّزة على طريق الاكتمال، ولا سيّما في مجال العقل واللسان، والجمال،[أقول : صحيح أنّ الدكتور لا يبالغ ، فالمبالغة لها حدود ، وهو هنا قد تجاوز كلَّ الحدود ، أمّا مئات ألوف الأجيال، وكلّ جيل له أبٌ

اسمه آدم ، وآدم اللاحق أكثر تطوّراً من آدم السابق، واستمرار هذه المسرحيّة العبثيّة ملايين السنين فلا أقول: هذا كلام مجانين ، ولكن أقول: هذا كلام لا دليل عليه في القرآن ولا في السنّة، ولم يثبته علم، ولا أثبت العلم مثله لأيّ كائن حيّ (ذكر بعض العلماء وجود نوع من السمك ما زال يجوب المحيطات منذ مائتي مليون عام ، ولم يحصل عليه أي تغيير أو تطوّر)، ناهيك أنّ الدكتور لم يبيّن لنا الحكمة من مثل هذا العمل الذي شُغل الله به ملايين السنين (بزعم الدكتور)، والدكتور يُقرّ بأنّ الذين وُجدوا طوال ملايين السنين تلك لم يكونوا مكلّفين، ولا عقل ولا حضارة لهم، وبالتالي فلا قيمة لهم، ولا عبرة بهم، أمّا أنّهم كانوا متوحّشين، لا همّ ولا شغل لهم سوى الإفساد في الأرض وسفك الدماء، فأمر قد دلّ عليه القرآن، ودلّ عليه علم الأحافير (مع تحفّظي على كلمة علم لأنّه لم يستقر بعد، إذ ما زالت أدلّته ظنيّة تقديريّة) وتسمية أولئك الهمج بشراً، يُعدّ الخطأ الأكبر الذي وقع فيه الدكتور عبد الصبور شاهين ، أصلحه الله وهداه].

الفصل التاسع

برهان التكرار ـــ الإنسان مرة أخرى

وضح لنا مما سبق أنّ (الإنسان) هو المقصود من التكليف الديني ، وأنّ (البشر) وهم طلائع الخليقة، لا مكان لهم في عالمنا ، لأنّهم بادوا ، ودرست آثارهم، فلم تبقى منهم سوى أحاديث وأحافير تدل على أنّهم كانوا موجودين، منذ عصور جيولوجية متقادمة.

[أقول: لغاية الآن لم يتّضح مما سبق سوى جهل الدكتور عبد الصبور وتناقضه، وخروجه عن العلم والدين والعقل، فلو صحّ قوله : "إنّ البشر قد بادوا ، ودرست آثارهم" قبل ظهور آدم، لما وجدنا القرآن يخاطب أو يسمّي أحداً من بني آدم بكلمة بشر]، فلمّا قضت إرادة الله بإيجاد هذا الخلق الإنساني ــ قدر خلق آدم ، وهو مستوى خاص جداً من (البشر)، [أقول : الدكتور يزعم أنّ البشر قد بادوا، وأنّ آدم أبو الإنسان، صار له اسم آخر، وشكل آخر، وعلى رأي الدكتور هذا فلا تصحّ مخاطبته، أو مخاطبة أحد أبنائه بكلمة بشر، وهو ما يكذّبه القرآن في آيات كثيرة أذكر منها قوله تعالى:{**نذيراً للبشر**}و{**إنّما أنا بشر مثلكم يُوحَى إليّ**}(الكهف:١١٠)] مزود بأدوات كاملة من العقل واللغة والعاطفة، وملكات الإدراك والضمير، والإرادة، والاستعدادات الفطريّة والغريزيّة، للتفرقة بين الخير والشر، وكل ذلك ثمرة من ثمرات النفخة الإلهية التي أتمّ الله بها خلقه، وهيّأه ليعيش في ضوء المعايير الدينيّة التي أرسل بها الأنبياء، منذ آدم إلى محمد عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام، وذلك قوله تعالى:{**إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين**} (آل عمران : ٣٣) .

ومقتضى ذلك أنّ النوع البشري قد انقرض ليحل محله رتبة (الإنسان) باعتباره الطور المحسن من أطوار البشر، والجيل المختار للمسيرة الجديدة على طريق التوحيد ومعرفة الله ، ثم أطلق على أفراد هذه الرتبة : بنو آدم .

[أقول : أين ذكرت أطوار التحسين هذه في القرآن أو السنّة، أو حتى في علم الأحافير، الذي ما فتئ يقول : إنّ الهياكل العظميّة وجماجم تلك

المخلوقات تشبه جماجم أبناء آدم، ولم يقل إنّها هي؟!] ولقد نجد في القرآن دليلاً قاطعاً على صحة هذا المذهب، حين نجده محتفياً بالإنسان، متابعاً لوصف كل أحواله، في ثلاثة وثلاثين موضعاً، على حين أنه لم يذكر (البشر) بوصف واحد.

[أقول : لقد فشل الدكتور في الإتيان بدليل واحد يدلّ على صحّة مذهبه هذا ، ثمَّ ماذا عن قوله تعالى :{**وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن متّ فهم الخالدون**} (الأنبياء ٣٤) ؟! أليست هذه الآية المقصود بها محمد صلّى الله عليه وسلّم، وهو من جاء النصّ على أنّه بشر في قوله تعالى:{**قل إنّما أنا بشر مثلكم يُوحَى إليّ**} (الكهف: ١١٠) ؟!] وهو سلوك واضح الدلالة على صدق التفرقة بين المستويين،[أقول: لا يصحّ الاستدلال بهذه الحيثّيات اللغويّة، ولا أدري كيف يريد الدكتور عبد الصبور من الله تعالى أن يُخاطب بشراً أحياء مخصوصين بكلمة "بشر" التي تدلّ على عموم البشر، والتي لا تستخدم إلاّ عند الحديث عن جثّة الإنسان وجسمه، في حين توجب اللغة والبلاغة العالية استخدام كلمة إنسان؟!] ولننظر الآن إلى نصوص القرآن الواردة بشأن الإنسان، بحسب ورودها في ترتيب المصحف.

[أقول : وأعيد ما سبق أن قلته : إنّ ترتيب سور القرآن بحسب النـــزول عمل اجتهادي مُختَلَفٌ فيه، حتى ورد عن أحد العلماء قوله باختلافهم في ٣٦ سورة، بين مكيّة ومدنيّة، لذلك يبطل اتّكاء الدكتور على هذا الدليل] .

قال تعالى :

١-{**يريد الله أن يخفّف عنكم وخُلق الإنسان ضعيفاً**} (النساء :٢٨)

٢- { وإذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرّ مسّه كذلك زيّن للمسرفين ما كانوا يعملون } (يونس : ١٢) .

٣- {ولئن أذقنا الإنسان منّا رحمة ثمّ نزعناها إنّ الإنسان ليئوس كفور } (هود : ٩) .

٤- { إنّ الشيطان للإنسان عدوّ مبين } (يوسف : ٥) .

٥- { إنّ الإنسان لظلوم كفار } (إبراهيم : ٣٤) .

٦- {خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين} (النحل :٤) .

٧- { وكان الإنسان عجولاً } (الإسراء : ١١) .

٨- { وكان الإنسان كفوراً } (الإسراء : ٦٧) .

٩- { وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسّه الشّر كان يئوساً } (الإسراء : ٨٣) .

١٠- { وكان الإنسان قتوراً } (الإسراء : ١٠٠) .

١١- { وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً } (الكهف : ٥٤) .

١٢- { خلق الإنسان من عجل } (الأنبياء : ٣٧) .

١٣- { إنّ الإنسان لكفور } (الحج : ٦٦) .

١٤- { وكان الشيطان للإنسان خذولاً } (الفرقان : ٢٩) .

١٥- {وحملها الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً} (الأحزاب : ٧٢) .

١٦- {أولم يَرَ الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين} (يس : ٧٧).

١٧- { وإذا مسّ الإنسان ضرّ دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوّله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضلّ عن سبيله } (الزمر : ٨) .

١٨- { فإذا مسّ الإنسان ضرّ دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنّما أوتيته على علم بل هي فتنة } (الزمر : ٤٩) .

١٩- {لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط} (فصّلت : ٤٩) .

٢٠- { وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسّه الشر فذو دعاء عريض } (فصلت : ٥١) .

٢١- { إن تصبهم سيئة بما قدّمت أيديهم فإنّ الإنسان كفور } (الشورى : ٤٨) .

٢٢- { وجعلوا له من عباده جزءاً إنّ الإنسان لكفور مبين } (الزخرف : ١٥) .

٢٣- { إنّ الإنسان خلق هلوعاً *إذا مسّه الشر جزوعاً *وإذا مسّه الخير منوعاً} (المعارج : ١٩-٢١) .

٢٤- { بل الإنسان على نفسه بصيرة } (القيامة : ١٤) .

٢٥- { أيحسب الإنسان أن يترك سدى } (القيامة : ٣٦) .

٢٦- { قتل الإنسان ما أكفره } (عبس : ١٧) .

٢٧- يا أيّها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم } (الانفطار : ٦) .

٢٨- { يا أيّها الإنسان إنّك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه } (الانشقاق

(٦ :

٢٩- **{ لقد خلقنا الإنسان في كبد }** (البلد : ٤) .

٣٠-**{ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات}** (التين: ٤-٦) .

٣١- **{كلا إن الإنسان ليطغى* أن رآه استغنى}** (العلق : ٦-٧) .

٣٢- **{ إنّ الإنسان لربه لكنود * وإنّه على ذلك لشهيد * وإنّه لحب الخير لشديد }** (العاديات : ٦-٨) .

٣٣-**{والعصر* إنّ الإنسان لفي خسر* إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}** (العصر :١-٣) .

هذه هي المواضع التي ذكر فيها (الإنسان) في القرآن بصفات مختلفة، بين الخير والشر، والقوة والضعف، والإيمان والكفر، والحكمة والحمق، والعلم والجهل، والطهر والدنس، والعرفان والجحود ، وأخيراً فهو مستهدف دائماً لعداوة الشيطان .. هذا كلّه عن الإنسان ..

على حين أنّ القرآن كلّه لم يذكر البشر بشيء من هذا أو غيره.

[أقول : هذا غير صحيح، فإذا كان الدكتور عبد الصبور قد غفل عن تلك الآيات، أو أغفلها مُتعمِّداً، فلا يعني ذلك عدم وجودها، وقد جئت ببعضها فيما سبق] مع أنّ كلمة (البشر) وردت في القرآن مفردة ثلاثين مرّة ثم ذكرت مثناة مرّة واحدة، أمّا (الإنسان) فقد ورد لفظه في القرآن اثنتين وستين مرة، بالإضافة إلى ورود لفظة (الإنس) سبع عشرة مرة، وجاءت لفظة (أناس) سبع مرات[خمس مرَّات فقط] ولفظة (الناس) مائتين وأربعاً وثلاثين

مرة، ولفظة (أناسي) مرة واحدة، فمجوع ورود لفظ الإنسان وأمثاله ثلثمائة وإحدى وعشرين مرة .

فإذا علمنا أنّ (الناس) قد خوطبوا في القرآن بلقب (بني آدم) ، وأنّ ذلك قد جاء سبع مرات في القرآن ؛ إذا علمنا ذلك كله ؛ تأكّد لدينا أنّ (الإنسان) هو المرحلة الأخيرة، والحاسمة في تاريخ الحياة على الأرض، وأنّ وجود (البشر) إنّما كان بمثابة المراحل التحضيريّة لذلكم المخلوق الذي قضى على الأرض ملايين السنين بين عوامل التسوية،[أقول: لقد ضقت ذرعاً بجملة "ملايين السنين" هذه التي كرَّرها الدكتور قرابة عشرين مرّة، مع أنّه لا لزوم لها في مسألتنا هذه البتّة، ولا دليل عليها من كتاب ولا علم ولا غيره، ناهيك أنّ قوله بأعلاه ما هو إلاَّ مُجرَّد كلام في الهواء، لا نصّ ولا دليل عليه] وتحصيل خواص الجمال، والكمال، بروح من الله الذي قدّر له أن يكون سيد الكون، حتى صار جديراً بأن يحمل أمانة الله على هذه الأرض، ويتفرّد بذلك من دون السماوات والأرض والجبال جميعاً، فكان قوله تعالى بشأنه:{**إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً** } (الأحزاب : ٧٢) .

لقد خفيت هذه التفرقة على أجيال العلماء من قبل، سواء في ذلك القدماء والمحدثون، بعد أن طغى طوفان الإسرائيليات، وأصبحت المصدر الوحيد للحديث عن العالم القديم، والخلق، حتى تصور العلمانيون وأحلاسهم وأشباههم أنّ الدين مناقض للعلم في هذه القضية الخطيرة، وأنّ الدين لا يملك سوى بعض القصص الأسطورية، وبعض التصوُّرات الخرافيّة، وأنّ الدين بذلك

يقف أمام حائط مسدود، يجب تجاوزه للحاق بركب العلم والتقدم.

[أقول : الإسرائيليات لا يُعتمد عليها ، ولا يُعتد بها، وما جاء في القرآن الكريم هو الحق من ربّ العالمين ، فإذا كان الدكتور لم يطّلع على كتابي : "القرآن وأوهام القراءة المعاصرة" (أجيز من الأزهر الشريف) الذي رددت فيه على كتاب الدكتور محمد شحرور، وبيّنت فيه أنّ أشباه البشر الذين خلفهم آدم بعد أن بادوا،كانوا متوحشين، أشراراً وسفاكي دماء، ولم يكونوا من البشر، وهو ما دلّ أو أشار إليه القرآن، والأقرب إلى ما أقرّه العلم الحديث، فإذا علمنا أنّ القرآن ليس كتاب فلك ولا تاريخ ولا هو في علم الأحافير، صار واضحاً وجوب عدم إقحامه في مثل هذه التفاصيل التي لا طائل تحتها، ناهيك أنّ الدكتور شاهين في ردِّه على العلمانيين بهذه الخُزعبلات، كان كمن راح يُكحِّلها فأعماها].

وها نحن أولاء نجد الدين في نصوصه الحقّة (القرآن) يسبق العلم سبقاً بعيداً، ويحدد هوية الحياة على الأرض تحديداً لا يتصادم مع العقل والرؤية العلمية اللاحقة، بل إنّه يتوافق مع الحقائق العلميّة، ويدعو إلى الاعتماد عليها في فهم قضية (بدء الخليقة)،كما سبق أن قرأنا ذلك في آية سورة العنكبوت : **{قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة}**، [أقول : لكنّ الله تعالى يقول : **{كما بدأنا أول خلق نعيده}** (الأنبياء ١١٠) فهل ستحتاج النشأة الآخرة إلى بضع ملايين من السنين أيضاً ؟! وهل يتفق ذلك مع قوله تعالى: **{ثمّ نُفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون}** (الزمر ٦٨) ، فأمر الله بين الكاف والنون، فما لكم كيف تحكمون؟!] وبذلك

يكون العلم بياناً لنصوص القرآن فيما توصل إليه من حقائق، كما أنّه في طريقه إلى موافقة القرآن في كل ما قرر من نظريات تحتاج إلى مزيد من البحث والتحقيق. [أقول : القرآن كلام الله ربّ العالمين ، كلّه حق ، ليس فيه ما يحيله العقل السليم ، ولا ما يناقض العلم الحقيقي ، أو الواقع المشاهد المحسوس ، لذلك فكل ما جاء به العلم موافقاً له ، نعدّه من العلم حقيقة ، وكلّ ما جاء مناقضاً أو غير موافق له ، فلا نعدّه علماً، وإن خُدع الناس به بعض الوقت ، فسيأتي زمان يتكشّف لهم فيه أنّه ليس علماً، والشواهد على ذلك كثيرة ، أذكر منها نظريّة داروين وسقوطها المُريع ، وسرعة الضوء ...إلخ. أمّا الذين زعموا تعارض القرآن مع العلم، فمنهم من لم يفقه معاني آيات القرآن ومنهم من اعتمد على تفسيرها الخطأ، أو ما ورد في الإسرائيليات، ومنهم من لم يقارن آيات القرآن مع علم حقيقي مستقر، بل قارنها مع تخمينات أو نظريّات أو تقديرات للعلماء ، وليس هذا من النـــزاهة، ولا العلم في شيء ، ومنهم من نظر إلى الإسلام نظرة عدائيّة مسبقاً، فكان للهوى دور كبير في نتائج أبحاثه].

آدم أبو البشر [وأبو الإنسان]

هل آن الأوان لنجيب عن السؤال الذي طرحناه من قبل ، وهو : هل كان وجود هذه الخليقة البشريّة مشروعاً واحداً في الأرض .. أرادته القدرة الإلهية وتابعته في مراحله المتطاولة ، وسارت به حتى انتهى إلى آدم عليه السلام ؟ ... أم كان وجود الخليقة في صورة مجموعة من المشروعات المتنوعة أو المتقاطرة على الساحة الأرضيّة عبر الوجود الزمني الهائل، وكان آدم أحد هذه المشروعات ؟

[أقول: هذه أسئلة افتراضيّة لا واقع لها، إذ لا نصّ في القرآن على المراحل المتطاولة، ولا مجموعة المشروعات المتنوّعة أو المتقاطرة، ولا أنّ آدم كان أحد هذه المشروعات، فبأيّ حق يُقوِّل الدكتور عبد الصبور القرآن ما لم يقله ؟! وأين الأمانة العلميّة ؟!]

إننا نبادر إلى نفي الشق الثاني من السؤال نفياً قاطعاً لأسباب تفرض نفسها: أنّ البشريّة تعني في المفهوم الديني القرآني جنساً واحداً ، لا عدة أجناس مقتبس بعضها من بعض على **ما قرّرته النّظريّة الداروينيّة .. التي أسقطها العلماء في الشرق والغرب على السواء .**

وقد تميّزت هذه الخليقة بصفاتٍ ثابتة في كل المراحل .. مشتركة بين أفرادها وأجيالها .. مختلفة عما عرفت به أجناس الخلائق الأخرى من خصائص وميزات وصفات، وهو ما يعنيه قول الله تعالى : **{ والله خلق كل دابةٍ من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع }** (النور : ٥٤) ، والعلم يؤكد صدق هذه الآية بتقريره أنّ البشر منذ وجدوا كانوا يسيرون منتصبي القامة، بعكس الأجناس الأخرى، **والاختلاف في هذه الخاصيّة يعني تعدد أجناس الخلق، وهو الحقيقة المقرّرة حتى الآن فيما نشاهد من أصناف الخلق ، ما دقّ منها وما جلّ .**

ثمّ إنّ الله سبحانه وتعالى أخبر الملائكة أزلاً [أقول :كلمة " أزلاً " لا وجود لها في كتاب الله ولا في سنّة رسوله، فكيف أعطى الدكتور لنفسه حقّ الإضافة إلى دين الله ما ليس منه ؟!] أنّه **{خالقٌ بشراً من طين}**، وأنّ هذا البشر سوف يتعرّض للتسوية والتعديل في أطوار نضجه، حتى يكتمل، وحينئذٍ يتعين على

الملائكة أن تسجد له، فلو تعدّدت المشروعات الخلقيّة لما تقررت حكمة الخالق في أمره بالسجود لهذا المخلوق بالذّات، دون غيره من أجناس الخلق الأخرى، فهو متعين منذ كان طيناً، لم يخف أمره على ملائكة الرحمن، وهي تتابع ما يطرأ عليه من تغيّر وتنام عبر الدهور، حتى أصبح بشراً سويّاً .. أي : إنساناً متكاملاً، وهو آدم عليه السلام { **فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلاّ إبليس** } (ص : ٧٣-٧٤).

[أقول : الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وقد أمرهم الله أن يسجدوا لآدم الذي خلقه الله من طين بيديه (بنفسه)، والدكتور يقول : إنّ الملائكة قد انتظروا بضع ملايين من السنين قبل تنفيذ أمر الله لهم بالسجود، فإذا علمنا أنّ النصّ لم يذكر ولم يشر إلى ذلك الانتظار الهائل غير المعقول، وغير المفهوم، بل جاء صريحاً بالسجود فوراً، ونفّذه الملائكة في الحال، فسجد الملائكة كلّهم أجمعون إلاّ إبليس ــ لاحظ حرف العطف (الفاء) في "فسجد" الذي يدلّ على الترتيب والتعقيب دون تراخٍ ــ فهذه الآية تنسف نظريّة الدكتور عبد الصبور من أساسها ، ولا تبقي له حجّة ؟!]

إنّ منطوق القرآن ومفهومه يؤكّدان وحدة المشروع الذي بدأ بأول بشر خلق من طين، { **ثم جعل نسله من سلالةٍ من ماءٍ مهين * ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السّمع والأبصار والأفئدة**} (السجدة : ٨-٩) ، ولا مانع في نظرنا من أن نتصوّر البشر الأول بلا سمع ولا بصر، ولا فؤاد.

[أقول : الدكتور هنا يتّهم الله تعالى بأنّه يخلق خلقاً ناقصاً، ثمّ يحسّنه بخلق نسخ محسّنة ومطوّرة عنه عبر ملايين السنين، والله تعالى لم يقل ذلك بتاتاً، ولم

يفعله، بل أتقن كلَّ شيء خلقه] ثمّ كان ذلك في مراحل مختلفة على طريق استكمال مقومات هذا الخلق البشري، وقد سبقت الإشارة إلى مغزى هذه المرحلة، واللغة من أخطر مقومات هذا الخلق ، ويبدو أنها بلغت درجة من الكمال في المرحلة الآدميّة الحاسمة، حتى تفوق آدم على الملائكة في أول اختبار.

لقد كانت ملحمة هائلة!! تلك التي استغرقها خلق البشر وتسويته وتزويده بالملكات العليا التي أصبح بها (إنساناً) تتألق فيه كمالات النبوّة، فاختاره الله واصطفاه كما قال :{**إنّ الله اصطفى آدم**} (آل عمران :٣٣) ، فصار آدم نبياً ، كما قال سبحانه :{ **ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى**} (طه : ١٢٢) .

لقد استغرقت هذه الملحمة ــ كما سبق أن قلنا ــ ملايين السنين، ولكنها مرّت ظلاماً في ظلام، أو: غيباً في غيب ، حتى أذن الله للصبح أن ينبلج ــ فأشرق الإنسان من سلالة البشر، واكتمل المشروع، وجاء آدم !!

[أقول : لا وجود لتلك الملحمة المزعومة، إلاّ في خيال الدكتور عبد الصبور، شفاه الله وغفر له وعافاه، وجعل الجنّة مأوانا ومأواه]

ليس غريباً أن نتصور ــ بناء على هذا ــ أنّ آدم جاء مولوداً لأبوين [1] ، وأنّ حواء جاءت كذلك [أقول : لقد صار واضحاً هنا ومؤكَّداً، أنّ الدكتور عبد الصبور جاء يُكحّلها فأعماها ؟ فهذا القول يناقض القرآن صراحة، بل ويُدخل مُعتقده دائرة الكفر، لأنّ خلق آدم من الطين وتسويته، وقول الله تعالى

---

[1] ذكر الشيخ رشيد رضا أنّ وثنيي الهند يزعمون أن لآدم أماً ولها في مدينتهم المقدسة (بنارس) قبر عليه قبّة بجانب قبّة قبره (المنار ٣٠٨/٨) .[**أقول : الاستدلال بما عند الوثنيين ــ في الدين ــ حرام**].

له :"كن فيكون" من المعلوم من الدين بالضرورة، بل قد جاء نصّاً محكماً ، قال تعالى : { **إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون**} (آل عمران : ٥٩)] على الرغم مما سوف يلقى هذا التصوّر من معارضة تلقائية ، ورفض عنيف!! وبلا تفكير!!

[أقول: لاحظ أخي القارئ الكريم كيف احتكر الدكتور عبد الصبور التفكير، واتّهم غيره سلفاً].

إنّ هذا التصور لا يتصادم في رأينا مع حقيقة خلق الإنسان من طين، ذلك أنّ المشروع الذي بدأ منذ ملايين السنين بالجسد الطيني ـــ كان هدفه النهائي والوحيد خلق (آدم)، وكلّ ما مضى من أحداث بين التاريخين ـــ إن كان ثمة تاريخ ـــ إنما هو وقائع بناء جسد آدم ، وعقله، وروحه، وملكاته، وخصائصه، وقد تّم ذلك كله في غيبوبة الزمان، حيث استوى الصفر والمليون، فما هي إلاّ سِنَة استمرّت بضعة ملايين من السنين، حتى استوى الإنسان (آدم) الذي نبت في التراب ، وانبثق من الأرض، لقد تبدّدت الأحداث والوقائع، ولم يبقَ منها سوى الحقيقة الترابية.

[أقول : أين الدليل على أنّ الزمان مرّ بغيبوبة ؟ وهل يُعقل أن يخلق الله الكون كلّه في ستّة أيام (ستّة آلاف سنة قمريّة)، ثمّ يحتاج في خلق آدم لبضعة ملايين من السنين ؟! وهل هذا من العقل أو الحكمة في شيء ؟! ألهذا الحد بلغ استهتار الدكتور بحكمته وقدرته جلّ وعلا ؟! ناهيك عن استهتاره بعقول المسلمين ؟!].

وهو تصوّر ليس غريباً ، ولا بعيداً عن الواقع الذي قرره القرآن ـــ مثلاً ـــ

عن الآخرة حين قال تعالى: **{كأنّهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاّ عشيّة أو ضحاها}** (النازعات : ٤٦) .. أي : إنّ الزمان يكون قد انطوى وسقطت في جبّه كل الأحداث مهما تعاظمت ، واستغرقت مئات السنين ، وهو كذلك ما كرره القرآن في قوله تعالى : **{ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلاّ قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون}** (المؤمنون : ١١٢-١١٤).

[أقول: أخطأ الدكتور مرّة أخرى، فهذه الآيات ومثيلاتها تتحدّث عن عدم شعور الميّت بعامل الزمن، لا عن إلغاء الزمن، فالزمن يتوقّف تماماً عند الميّت، حتى يبعثه الله يوم القيامة، أي أنّ مدّة بقاء الأموات (عند الأموات) في برزخ، تساوي صفر زمن، وتلك الحقيقة من أهم أدلّة عدم وجود عذاب في القبر].

وبهذا تكون الحقيقة الترابية أثبت الحقائق وأبرزها في وجود كل مخلوق يدخل في مضمون الضمائر (أنا ــ ونحن ــ وانت ــ وأنتِ ــ وأنتما ــ وأنتم ــ وأنتن ــ وهو ــ وهي ــ وهما ــ وهم ــ وهنّ) ؛ وخبرها جميعاً (من تراب) : **{صلصال من حمإ مسنون}**.

الباب الثاني

وقائع القصة

الفصل الأول

البشر واللغة

كانت اللغة هي معجزة الخلق التي أثمرها تزويد المخلوق البشري بالملكات العليا، وفي قمّتها: العقل .. وإذا كان البشر قد عاشوا ملايين السنين حتى تتم عمليّة التسوية، والنفخ الإلهي ــ[أقول : تكرار هذه المقولة التي ينقصها الدليل، لا يجعل منها حقيقة علميّة] فإنّ من أخطر مظاهر الكمال الخَلقي أن يدرك الأفراد معنى العلاقات المتبادلة فيما بينهم، وهي علاقات لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال اللغة ، ونحن نستخدم (اللغة) هنا بالمفهوم العام الذي يشمل الجاذبية الجنسية ، وهي أقدم لغة وصلت ما بين طرفي النوع البشري من أول لحظة ، كما يشمل التدافع والاحتكاك المادي ، والإشارة والصوت المبهم ... إلخ، وعلى طريق النضج البشري بدأت الجوارح تصل ما بين الفرد والفرد ، وما بين الذكر والأنثى ، ونحسب أنّ صوت الجنس كان أقدم الأصوات التي صدرت عن البشر أو صرخوا بها .

[أقول :لا أدري أين تقع كلمة"ونحسب" في قاموس العلم ؟! فهي فيما أعلم تُستخدم في مجال الظن، والظنّ لا يفيد العلم، بل إنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً].

كما بدأت وظائف الجوارح تتحدّد في سلوكيات ماديّة ، قابلة للترقّي والتطوّر والتنويع، وما أشبه البشر آنذاك ــ والزمان طفل لم يتجاوز بضعة ملايين من السنين ــ بأطفالنا الآن في أيامهم الأولى ، وهو ما عبّرت عنه الآية

الكريمة: {**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**} (النحل : ٧٨).

[أقول: هذه آية تتعلّق بخلق بني آدم، وأنّ الله تعالى خلق لهم السمع والأبصار والأفئدة قبل إخراجهم إلى الدنيا، ولا يصحّ تعميمها على واقع مختلف دون دليل]

ومن المسلّم به علمياً أنّ وجود البشر كان مسبوقاً بوجود الكائنات الأخرى من الطير والحيوان في البر والبحر، وكانت هذه تشكل عالماً من الكائنات بأشكالها وأنواعها، كما كان لها تأثير مباشر على الوجود البشري، فمنها كان قوت البشر ووسائل عملهم .. بل تولى بعض الطيور مهمة تعليم هذا المخلوق ما هو بحاجة إليه من سلوكيات، ودور الغراب في قصة ابني آدم ذو دلالة ظاهرة في هذا المجال: {**فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه**} (المائدة :٣١) ، أي أنّ الإنسان في مطلع فجره لم يكن يدفن جثث الموتى من جنسه حتى شاهد ـــ وهو في قمّة مأساته ـــ الغراب يلقنه درس الدفن ، بعد ما بلغ سنّ الرشد ، ودخل في المرحلة الآدميّة الجديدة .

[أقول : لا دليل على وجود مرحلة آدميّة قديمة، حتى تكون هناك مرحلة آدميّة جديدة ،كما لا يصحّ تعميم حادثة موت إنسان واحد، حصلت لأوّل مرّة، وتعليم أخيه كيفيّة دفنه على أناس كثيرين دون دليل، ولأنَّ الدكتور عبد الصبور يكرر هنا ما قاله الدكتور شحرور، إليك أخي القارئ ما جاء في كتابي: القرآن وأوهام القراءة المعاصرة (ص٢٢٠-٢٢١) في ردّي على الدكتور محمد شحرور في هذا الشأن : يقول المؤلّف شحرور (ص٣١٧) : "وهذا يؤكّد

مرّة أخرى قوله تعالى: {**وعلّم آدم الأسماء كلّها**} بأنّ الأسماء لا تعني الألسن واللغات" أ.هـــ.

أقول : هذا صحيح ، فالألسن واللغات ظهرت ـــ فيما بعد ـــ من اختراع الإنسان لحاجته للتفاهم مع بني جنسه، بعد حصوله على المعلومات السابقة من الله تعالى (مُسمّيات الأشياء)، لذلك تعدّدت اللغات، واختلفت الألسن من قوم لآخرين بسبب العزلة الطويلة التي عاشتها بعض الشعوب في العصر الحجري وما بعده .

ويقول المؤلّف (شحرور): " فكيف يمكن أن يتعلّم آدم فعل (دفن) مثلاً باللسان العربي، وهذا الفعل ليس له مدلول في ذهنه ، لذا فتفسير (الأسماء) على أنّها أسماء الأشياء كلّها ولا ندري بأيّة لغة؟ هل هي بالعربيّة أم بالإنجليزيّة ؟ وأنّها جاءته إلهاماً، هذا تفسير خاطىء" أ.هـــ.

أقول : لم يُذكر في القرآن الكريم أنّ ابن آدم قتل أخاه أمام أبيه آدم، بل الدلائل تشير إلى أنّه قتله خفية عن أبيه، ثمّ ندم ندماً شديداً، خاصّة أنّه لم يدر ما يفعل بجثّته وقد بردت، وبقاؤها مكشوفة على الأرض يعرّضها للوحوش والحشرات والأخطار، فلا يُعقل أن يذهب ليخبر أباه أنّه قام بقتل أخيه قبل أن يتصرّف بجثّته، فالذي عُلّم دفن الميّت هو ابن آدم (القاتل)لا بني الإنسان، ولا آدم، أرسل الله للقاتل غرابين يقتتلان، فقتل أحدهما الآخر، فجاء إلى مكان قريب من ابن آدم (القاتل) فحفر في الأرض حفرة ألقى فيها الغراب الميّت، ثمّ طمر جثّته بالتراب ومضى، فقام ابن آدم (القاتل) بتقليد ذلك الغراب، بأن دفن جثّة أخيه، وعاد إلى أهله (تمّ بيان ذلك في سورة المائدة، الآيات : ٢٧

ـ ٣١)، وعليه فإنّ ادّعاء وجود بشر قبل آدم ، وأنّ آدم كان إنساناً بعد أن كان بشراً بنفخة الروح فيه (فصار واعياً مكلّفاً) هو مجرّد وهم من شحرور، ذلك أنّه التبس عليه وجود أقوام كانوا يُفسدون في الأرض (قبل آدم) ويسفكون الدماء، لم يكونوا إنساً ولا بشراً، إلاّ أنّ الملائكة كانوا خبيرين بهم وبأعمالهم ،كما التبس عليه وجود أناس من البشر قد تاهوا في الغابات وانعزلوا عن المدنيّة والعلم، فقلّدوا أصوات الحيوانات، وعاشوا مثل الوحوش (حياة الإنسان الأوّل) آلاف السنين، فظنّ المؤلّف أنّهم كانوا بشراً غير عاقلين، مع أنّ آدم هو أبو البشر، وهو أبو الإنسان ،كما أنّ إبليس من الجن، وهو أبو الشياطين، فقول المؤلّف بوجود أكثر من آدم ، وأكثر من مرحلة تطوّريّة للإنسان استغرقت ملايين السنين قول هراء، وهرف بلا دليل].

ولا يبعد أن نتصوّر أنّ البشر كانوا في بداية وجودهم ، وقبل رشدهم يتآكلون ويتفارسون .. أي : يأكل بعضهم بعضاً .

ولو أنّنا تصوّرنا حياة الصدام، والصراع بين البشر وسائر أجناس الخلق ــ فإنّ ذلك يعني أنّ العلاقات بين الموجودات والبشر كانت هي القوت اليومي ، بوجهيها السلبي والإيجابي .

وقد كانت هذه العلاقات تتنامى دائماً،كمّاً وكيفاً، وهي تُحدث بصماتها، وتحفر في العقل البشري آثارها، وكان البشر قد ميّزوا بالفؤاد ، أي : بالعقل، وهو ما يعني أنّهم كانوا قادرين على الاحتفاظ بالتجربة في ذاكرتهم ، ثمّ صاروا يفيدون من رصيد التجارب المتراكمة، في الحركة، وفي الصوت .

[أقول : العقل هو أهم آثار نفخة الروح، ولو كان عند الهمج أشباه البشر

(الذين عاشوا على الأرض قبل خلق آدم) عقل، لكانوا مكلّفين، وهو ما لم يكن]

لقد كانت للطير أو للحيوان طريقته التي لا تتغيّر في التعامل مع جنسه، وغير جنسه، ولكنّه يأتي من ذلك ما يوصف بالتلقائيّة الأبديّة ، والثبات الغريزي المتواصل عبر ملايين السنين ، وإن حدث تغيّر أحياناً في الشكل ، أمّا رصيد التجارب البشريّة فقد كان في نمو دائم ، وتغيّر مستمر، رغبة في تحسين الأداء، وتمكين الجنس البشري من السيطرة على سائر الأجناس ، ومن هنا كان التوجّه إلى استخدام الأدوات الحجريّة لمضاعفة القدرة ، وتأمين السيطرة .. هذا في جانب الحركة.

[أقول : لم يثبت في الحفائر ولا في غيرها، أنّ أحداً استخدم الأدوات الحجريّة قبل خلق آدم (أبو البشر) والأدوات الحجريّة التي عُثر عليها لا يزيد عمر أقدمها على عشرات آلاف السنين، فمن أين جاء الدكتور ب : "عبر ملايين السنين" هذه ؟! لا أدري]

فأمّا في جانب الصوت فقد كان أغزر مادّة، وأكثر حدوثاً إذ كانت الضوضاء - وما زالت - هي غذاء الحياة وقوتها ، ودليلها ، سواء صدرت الضوضاء عن البشر، أم صدرت عن المادة المتعلّقة بالحركة، وليس بوسع مخلوق أن يأتي بحركة إلاّ مقترنة بصوت، ينبعث أثر احتكاك المادة بعضها ببعض، أو يصدر عن الإنسان، وهو يتعامل معها، ثم يتحوّل الصوت إلى مقطع، ثم إلى كلمة، ثم إلى درجات من التركيب المتنوع، ثم تتطوّر هذه الحالة التي اقترن فيها الصوت بالحركة، ليصدر الصوت مستقلاً عن الحركة، وقد يكون في هذه

الحال مجرّد صوت، وقد يرتبط بهدف حيوي، أو تعبير عاطفي، وهكذا نشأت اللغة البشريّة، مع التجاوز البالغ عن تفاصيل كثيرة.... كثيرة جداً تتعلّق بأوعية الزمان والمكان،واحتمالات الفعل والترك، والإيجاب والسّلب، والعطاء والمنع، والذكاء والغباء، والتناقض والاستواء...إلخ.

ولا شك أنّ البشر كانوا محوطين بأصوات أخرى تصدر عن الطيور والحيوانات، ولهم من دون الخلائق جميعاً قدرة على تقليد الأصوات، ونادر من الطيور ما عرف بتقليد الأصوات (الببغاء)، أمّا الإنسان فقد لذّ له دائماً التخاطب مع تلك الكائنات، أو التجاوب معها من باب التسلية أو الترويض، وقد لاحظ أولئك البشر أنّ لكل كائن نوعاً من الضوضاء يستخدمه في قيادة القطيع، أو نداء الأنثى، أو تحذير الصغار، أو مواجهة الأخطار، فلم لا يكونون كذلك ؟ وهم يملكون قدرة هائلة على التنويع، وهم - كذلك - يعقلون المعنى الوظيفي للصوت حين ينطلق بوجه من الوجوه، ولم لا يكون تعاملهم مع هذه الكائنات من قناة اللغة بحيث يضعون لها أسماء تميزها عند التعامل معها ؟

هكذا تخلّقت اللغة خلال ملايين السنين.

[أقول: عمر الإنسان الناطق لا يزيد على مائة ألف سنة وفق أحدث التقارير التي قبلها الدكتور، ورغم ذلك فقد درج الدكتور على قول :"ملايين السنين" بسبب وبغير سبب، ودون أدنى دليل] حتى صارت مكّونة من أصوات متشخصة، وكلمات متخصصة، وحتى أصبحت تضم الأُلوف من الكلمات .. بل حتى تنوّعت فبلغت عدّة اللغات أكثر من ألفي لغة ينطقها الإنسان الآن، وكلها مبنيّة على عدد محدّد من الأصوات هو غاية ما يصدره

جهاز النطق، لا يزيد ولا يتنوّع .

لقد أولع كثيرون بالبحث عن أصل اللغة، فمن قائل: إنها من وحي الله .. نزّله على بعض عباده من الأنبياء،كآدم، واسماعيل ! وللحافظ هنا مقولة : إن الله فتق لهاة إسماعيل بالعربيّة على غير مثال سبق (مختارات فصول الجاحظ/مخطوط بدار الكتب) .

وقائل : إنّها مواضعة حدّدت لكل شيء اسمه المتفق عليه - وهو قول ابن جني في (الخصائص ١/ ٤٤) .

وقائل : إنّها محاكاة لأصوات الطبيعة !!

وقائل : إنّها نتيجة انفعالات تعرّض لها الإنسان !!

وتصوّر أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس - رحمة الله عليه - (أنّ الكلمات الإنسانية الناشئة كانت كثيرة المبنى، قليلة المعنى، فالمجتمع جماعة من الشباب يمرحون، ويلعبون، ويستمتعون بالنطق، دون هدف معيّن سوى المتعة واللعب بألسنتهم، كما كانوا يلعبون بأيديهم وأرجلهم، أي : إنّ اللغة نشأت في صورة لعبٍ ممتع، لا يهدف إلى إيصال معنى إلى السامع .. بل كانت أشبه بمناغاة الطفل وأصواته المبهمة... فلم يكن الإنسان الأول معنيّاً بالأفكار، ولكن عنايته كانت مقصورةً على الغرائز والعواطف، ولعل الحب والغريزة الجنسيّة أقوى هذه العواطف، فهو ينطق أو يصوّت ليستلفت انتباه الأليف، ويثبت وجوده واستقلاله، كالطير حين ينتقل من فنن إلى فنن ، وهو يغني غناءً متواصلاً ، لعله بهذا ينال الحظوة لدى أليفه من الطيور.

كذلك كان الإنسان الأول يغني في أثناء صيده، وفي حربه، وفي كل ما

يقوم به .. غناءً لا كغنائنا - يهدف إلى الطرب - وإنّما هو تصويت منسجم تتردد فيه الأصوات والمقاطع .

ثم تطوّر هذا النطق من مجرد اللعب والمتعة، وأصبح ذا هدفٍ فيما بعد، واستغل في التعبير عن كل ما يدور بخلد الإنسان من خير أو شر[1]

والواقع أنّ كل افتراض لتفسير نشأة اللغة له نصيب، ولو ضئيل، من الصواب ، فكل الآراء تجتمع لتنسج ثوب اللغة في صورة مكتملة ، غير أنّها جميعاً وقعت في خطأ مشترك هو خلطها بين البشر والإنسان من ناحية، وتصورها أن اهتداء الإنسان للغة كان خلال الفترة الزمنيّة القريبة التي عاشها الإنسان منذ آدم عليه السلام باعتباره أول مخلوق[بشري وإنسان] .. من ناحية أخرى .

والحق الذي نؤمن به هو أنّ اللغة ظاهرة بشريّة معقدة شديدة التعقيد، ظهرت في حياة البشر على مدى الملايين من السنين التي عاشوها قبل ظهور آدم عليه السلام.

[أقول: وجود لغة مفهومة قبل آدم، على مدى ملايين السنين، يعني وجود مخلوقات تعقل وتفكّر وتنطق، وهو ما لن يستطيع الدكتور ولا غيره إثباته]، أمّا وقد بلغت درجة من الكمال باعتبارها أداة تعامل على مشارف العهد الإنساني الآدمي، حتى تحملت ما دار من حوار بين الله والملائكة، وبين الله وإبليس، وبين الله وآدم وحوّاء، بكل ما حوته هذه الحوارات من معان دقيقة وراقية .. أقرب شيء إلى التجريد مستوى من الرّقي اللغوي لا تعرفه سوى اللغات

---

[1] دلالة الألفاظ صفحة ٢٣ وما بعدها .

الحضاريّة النّاضجة التي تجاوزت المحسوس إلى المجرد .

بل إنّنا حين نقرأ قصة ابني آدم (هابيل وقابيل) يبهرنا فيها غزارة التجريد في المعنى، وثراء اللفظ، حتى إنّ الإنسانية ما زالت دون بلوغ الأفق الأخلاقي والقيمي الذي عبرت عنه تلك القصّة، مما يدل على درجة من الحضارة الدينيّة، بلغها الإنسان في ذلك الزمان،بعد أن كافح ملايين السنين في مرحلته البشريّة.

[أقول : ما نعلمه من آيات القرآن الكريم المحكمات أنّ الله تعالى بعد أن نفخ من روحه في آدم، وأسجد له الملائكة، علّمه الأسماء كلّها، أي علّمه مسميّات الأشياءكلّها، ومنها المعلومات السابقة، التي يحتاج إليها كل إنسان لعمليّة الإدراك (العقل)، وبديهيّ أنّه قد علّمه لغة مفهومة، وقد استخدمها أبناء آدم وأحفاده زمناً، أمّا تكوّن آلاف اللغات واللهجات فيرجع إلى اختلاف البيئات، وانعزال بعض الجماعات في المناطق الجغرافيّة المختلفة نتيجة زيادة عدد الناس، وخروج جماعات منهم للبحث عن الطعام بعيداً في الغابات والوهاد، وانقطاع الاتّصال، واختلاف أنواع الطعام والهواء والرطوبة وغيرها، وهي عوامل كثيرة كان من نتائجها ضياع بعض المفردات وتعويضها بغيرها من البيئة الجديدة، ومع الزمن صار لكلّ مجموعة بشريّة لغة مميّزه، والله أعلم].

ولنقرأ نص القصة، يقول الله تعالى : {**واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قرّبا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين * لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين * إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النّار وذلك جزاء الظالمين * فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله**

فأصبح من الخاسرين * فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين } (المائدة : ٢٧-٣١)

فقد ذكرت القصة :القربان، وهو معنى ديني خاص، وذكرت قبول القربان أو عدم قبوله، ودلالة ذلك على التقوى، والتهديد بالقتل والتسامح في مواجهة التهديد، خوفاً من الله، رب العالمين، وذكرت : مفهوم الإثم، ومضاعفته، وعاقبة الظلم وهي النّار، وسيطرة النفس الأمّارة بالشر على القاتل حتى قتل أخاه، وصار بذلك خاسراً دنياه وأخراه، وأخيراً ذكرت الدرس الذي تلقاه القاتل من الغراب ، فتحوّل فعل الطير إلى معنى كبير من لوم النّفس ، والندم العميق .

وكل هذه المعاني الدينيّة ذات دلالة على الرقي النسبي الذي بلغه الإنسان، لعهد آدم.. لقد اجتازت اللغة مرحلة التعبير المادي فأصبحت معبرة عن المعاني الغيبيّة .. أي : إنّها عبرت مستوى الحقيقة إلى المجاز، وهو تقدم خطير، لم تبلغه البشريّة إلاّ عبر ملايين السنين[متى ينتهي الدكتور من هذه اللوثة؟!! عجبي!!] وقد توّجت هذه المرحلة باصطفاء آدم ، نبيّاً يحمل رسالة الله إلى بنيه ، وهم الجيل الأول من أجيال الإنسانيّة.[بديهيّ أن تكون لغة آدم وإبنيه في أرقى صورها، لقربها من المصدر، ولأنّه لم يكن خالط نقاءها لغات أخرى ، لقرب العهد بتعلُّمها من الله ربِّ العالمين]

ومن المعاني الغيبيّة المجردة ذات الدلالة العميقة على مذهبنا هذا – ما جرى على لسان إبليس وهو يغري آدم وزوجه بالأكل من الشجرة المحرّمة – قال :

{ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين} (الأعراف : ٢٠) !! فمتى عرف آدم وزوجه معنى الخلود ؟ وكيف لهما أن يتخيَّلاه، وهو معنى مرتبط بواقع لم يحدث من قبل، على فرض أنّهما أوّل المخلوقات البشريّة ؟؟ ونعني به واقع (الموت)، وهو ضد الخلود ؟

[أقول : لقد سمع آدم حوار الله مع إبليس، وقول إبليس لربّه : **{أنظرني إلى يوم يبعثون}** وقوله تعالى لإبليس: **{إنّك من المنظرين}**،وقد فهم إبليس أنّ آدم ونسله سيكونون خلفاء في الأرض، ومعلوم أنّ الخلائف تموت، (وقد أخطأ كثير من المفسّرين عندما قالوا إنّ آدم خليفة الله في أرضه، لأنّ الله تعالى لم يقل:"إنّي جاعل في الأرض خليفة لي" وإنّما قال : **{إنّي جاعل في الأرض خليفة}**)، وعليه فلا دليل للدكتور هنا].

إنّ ذلك يؤكّد أنّهما عاينا أجيالاً سابقة حصدها الموت ، وابتلعها الفناء، ولعلّ الخلود أو البقاء كان حلماً يراودهما، فجاءهما الشيطان من هذا الباب وقد عرف حلمهما أو نقطة ضعفهما، فقاسمهما : **{إني لكما لمن النّاصحين * فدلاهما بغرور}** (الأعراف : ٢١-٢٢) [أقول : لا دليل على أنّ آدم وحوّاء قد عاينا أجيالاً سابقة حصدها الموت، لأنّهما كانا في الجنّة، ولم يرد أنّه كانت هناك مخلوقات من لحم ودم في الجنّة غيرهما].

إنّنا لا نشك في أنّ آدم قد صُنع على عين الله ،[أقول : بل خلقه الله بيديه (بنفسه)،أي دون مساعدة ولا توكيل أحد من ملك أو غيره، قال تعالى مخاطباً إبليس: **{ما لك ألاّ تسجد لما خلقت بيدي}** فلماذا اللف والدوران يا دكتور؟!]، وأنّه ظفر برعاية ربانيّة استثنائيّة جعلته في ذاته معجزة إلهيّة، وكان

آدم بذلك مدداً للمرحلة القادمة التي بدأت به مع زوجه حواء ، ومن خلال آدم بدأت الإنسانيّة مسيرتها بخطوات قاصدة راشدة، على حين بادت الموجودات البشريّة الطليقة الشاردة لتبدأ المرحلة الجديدة .. مرحلة التكليف الديني .. بعبادة الإله الخالق الواحد، بعد أن تمّ للإنسان التعرّف على الكون من حوله، من خلال الأسماء التي تحدد وجود كل شيء، والتي أعانه الله سبحانه على استيعابها [هو كلام] .

ونعود إلى حديث اللغة فنقول :

لقد اقترنت نشأة اللغة بمجموعة هائلة من الصدف العشوائيّة،

[أقول : لا وجود للصدف العشوائيّة هذه، إلاّ في مخيّلة الدكتور الذي سفّه نفسه بإتيانه بمثل هذه الترّهات، وعدّها من العلم، وما هي من العلم، فلا وجود للصدفة في هذا الكون، عشوائيّة كانت أم غير عشوائيّة، بل كلّ شيء خلقه الله بقدر، وما قد يُظنّ أنّه وقع صدفة ما وقع إلاّ بقضاء الله ربّ العالمين] يجلّ حصرها، وكان المخلوق البشري أشبه بطفل جلس إلى جهاز كمتور [1] ضخم ذي مفاتيح كثيرة كثيرة، فأخذ الطفل في البداية يلمس هذه المفاتيح، ويرقب أثر لمساته، وكلما وجد أثراً على شاشة الجهاز كرر اللمس ليستمتع به أو بغيره، حتى تكونت بينه وبين الجهاز أُلفة أغرته بالمزيد ، فمضى يستخدم خبراته المثبتة نتيجة التكرار، ويبني تجارب أخرى مركبة من تجاربه البسيطة، إلى أن سيطر على الجهاز مع تقدمه في العمر، وصار به خبيراً...[مع احترامي للدكتور ورأيه الخطأ، فهذا مثال غبي، لا أدري كيف جاء به الدكتور هنا،

---

[1] الكمتور : نحت عربي – للمؤلف – من كلمة كمبيوتر .

ذلك أنّ أي جهاز أو آلة معقّدة يستحيل على أي إنسان تشغيلها، أو أن يصبح خبيراً بها دون اطّلاعه على كتالوجاها،وتعلّم طريقة تشغيلها،وتلك بديهيّة] فكذلك الإنسان، الذي ورث التراث البشري، وتألقت في شخصه كل المواهب البشريّة، وزاده الله مدداً وتعليماً ، فكان آدم عليه السلام العلامة الأولى لبدء عهدٍ جديد ، هو عهد الإنسان المتديّن : آدم وبنيه .

وبقي سؤال لم يطرحه أحد ممن تناولوا هذه القصة في القديم والحديث ، وهو : من أين جاءت تسمية آدم ؟!

والإسم رمز المسمى ؛ فهل يمكن أن يطلق على آدم هذا الإسم دون أن تكون البشريّة قد قطعت شوطاً هائلاً في الرقي اللغوي قبل مرحلة الإنسانيّة الآدميّة ؟ وإذا قرأنا قوله تعالى: { **وعلّم آدم الأسماء كلّهـــا** } (البقرة : ٣٠) - فهل لا يوحي منطوق الآية على هذا النحو بأنّ الساحة كانت حافلة بأسماء كثيرة لموجودات ماديّة، أو أسماء لمعانٍ مجرّدة ، وأنّ حصيلة ذلك كانت في عقل آدم ؟ أو استطاع آدم أن يحصلها !!

قد يقول قائل : إنّ اسم (آدم) هو اختيار الله ، أطلقه على أول خليفة في الأرض!! [آدم ـــ عليه السلام ـــ خلف أقواماً من الهمج عاشوا قبله ، ثمّ أبادهم الله لم ينفخ الله من روحه فيهم(والله أعلم) لذلك كانت لغة التفاهم بينهم معدومة، فكان القتل والإفساد في الأرض] ولكن التناسب الذي نجده بين الإسم والمسمى .. أي : بين معنى كلمة (آدم) والمادة التي ينتمي إليها وهي (أديم الأرض) - هذا التناسب لا يمكن أن يُتصوّر حدوثه على سبيل الصدفة أو الفجاءة ، فالفجاءة خروج على سنة الله في الخلق والتسوية والإبداع ، وهي

آيات العظمة الإلهيّة ودلائلها .

[أقول : ليس بالضرورة أن كانت الساحة حافلة بأسماء كثيرة لأشياء ماديّة ناهيك أنّ من المعجزات ما حدثت فجاءة ، والدليل تحوّل عصا موسى إلى ثعبان بمجرّد إلقائها على الأرض، فقول الدكتور أعلاه غير مطّرد] فلم يبق إلاّ أن نفترض مستوى من النّضج اللغوي بلغته البشريّة في أواخر مرحلتها، وفي بواكير العهد الإنساني، وهو ما يعني أنّ العربيّة قديمة .. قدم التاريخ الإنساني على هذه الأرض .. على الأقل.

[عندي أنَّ اللغة العربيَّة هي لغة آدم، وأصل جميع لغات البشر،والله أعلم].

الفصل الثاني

الإنسان والملائكة

الملائكة عالم من عوالم الكون التي برأها الله، خلقهم من مادة النور ، بهذا جاء الحديث برواية أحمد ومسلم رضي الله عنهما : (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق الإنسان مما وصف لكم) .

[أقول : لا دليل في القرآن الكريم على خلق الملائكة من نور، أمّا الحديث أعلاه فقد رواه مسلم برقم ٥٣١٤ (وفق ترقيمه على دسك الكمبيوتر ــ الإصدار الأول لشركة صخر)، ومداره على راو واحد، وهو حديث لم يصل درجة الصحيح سنداً، فيه عبد الرزّاق بن همّام بن نافع لم يوثّق ، قال فيه :

ابن عدي : أرجو أنّه لا بأس به .

ابن حبّان : وثّقه ، وقال : كان ممن يُخطىء .

ورواه أحمد برقم ٢٤٠٣٨ وفيه عبد الرزّاق أيضاً.

وعلى أيّة حال فمعرفة مادة خلق الملائكة لا يترتّب عليها أي تكليف].

وليس بلازم أن نبحث في ماهيّة هذا النور، وهل هو النور الذي نألفه من مصدر كالقمر، أو الضوء الذي عهدناه من مصدر الشمس ، أو هو نور آخر مختلف العناصر والأطياف لا ندري كنهها ؟ ويكفي أن نذكر قياساً يَقفُنا عند حدود أقدارنا، فقد خلقنا الله من تراب ، وشتان ما بين هذا التراب واللحم الآدمي في الشكل، وإن اتحدت عناصرهما عند التحليل، فالمسافة هائلة لا يمكن للعقل أن يقطعها، وكذلك الملائكة ..هم من النور، ومع ذلك نتصور أنّ

هيئتهم التي خلقوا عليها بعيدة جداً عن مادة النور التي نألفها وكل ما نملكه هو أن نؤمن بهم كما أخبر الله عنهم وكما طلب منا الإيمان بهم، فهم ملائكة الله وجنده ، وهم جزء من عالم الغيب الذي حجبت عنا حقيقته، واستحالت علينا رؤيته، لعلنا نتذكر هنا أنّ البشر قد كانوا في أقدار الخلق هم العالم الظاهر، في مقابل العالمين المخلوقين الخفيين : عالم الملائكة وعالم الجن، وما شاء الله من خلق لا نعلمه.

[أقول : لقد أعلمنا القرآن الكريم أنّ الملائكة يتشكّلون على هيئة رجال من البشر، وعندها يمكن للبشر رؤيتهم، قال تعالى:{**ولقد جاءت رُسُلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام...**}(هود:٦٩) فأين ما يدّعيه الدكتور عبد الصبور من انقراض البشر قبل وجود آدم ؟! وأين زعمه أنّ آدم المخلوق من طين هو غير آدم أبو البشر (أبو الإنسان) الذي سجدت له الملائكة ؟!]

ونحن من خلال الدين ندرك الدور الذي تؤديه الملائكة في عالمنا الإنساني، فمنهم ملهمون بالخير، ومنهم حفظة .. سفرة ..كرام كاتبون ، ومنهم حملة العرش، ومنهم ملائكة السماء والسحاب والمطر والأرزاق، ومنهم الموكَّلون بحياة العباد وموتهم، إلى ما لا يُحصى من مهمات خصّهم الله بالقيام عليها في إدارة الكون، في السماوات والأرض: { **وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون *يسبحون الليل والنهار لا يفترون** } (الأنبياء : ١٩-٢٠)

علاقة الإنسان بالملائكة

بدأت علاقة الانسان بالملائكة على مشارف المرحلة البشرية، وذلك حين أعلم الله الملائكة أنّه خلق، أو أنّه يريد خلق (بشر من طين) ، إعداداً لهم في مواجهة ما سوف يحدث من متغيرات على ساحة الارض، وقد اختارها الله لإيجاد هذه الخليقة البشرية، بعد أن جعلها مهداً، وكان البلاغ الإلهي منطوياً على جملة من العناصر المستقبلية إضافة إلى ما كان منجزاً منه .. كان مشروع (خلق البشر) قد أنجز، أو هو بسبيله إلى الإنجاز.

[أقول : لم يكن خلق آدم قد أنجز، ولا كان بسبيله إلى الإنجاز، بل لم يكن قد ابتدأ بعد، ولا يُفهم من هذا التزييف، وهذه المراوغة إلاّ محاولة تمرير كذبة كبرى تقول : إنّ الملائكة مكثوا ملايين السنين وهم ينتظرون خلق آدم الإنسان حتى يسجدوا له، والسؤال الملح هنا هو: كيف عرفت الملائكة آدم المطلوب السجود له من بين مئات آلاف الأوادم الذين خلقهم الله(على زعم الدكتور هذا) مع أنّهم جميعاً يُفترض أنّ لهم الجسد نفسه والشكل نفسه، وهو ما يقتضيه كون آدم الأول قد خُلق من طين بعد عمل الطين تمثالاً وتجفيفه ليصبح صلصالاً كالفخّار، واشتراكهم جميعاً في الشيفرة الجينيّة، والحمض النووي؟! وهل من العدل أن يوجّه الله للملائكة أمراً سيتم تنفيذه بعد ملايين السنين دون إعلامهم مسبقاً بذلك؟! وهل يُعقل أن تنتظر الملائكة بضع ملايين من السنين قبل تنفيذ أمر الله، وهم الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؟! وأسئلة كثيرة ليس لها أجوبة مقنعة، ناهيك أنّ ذلك يتناقض مع

النص، قوله تعالى : {**كن فيكون**}].

وهو دلالة الجملة الاولى: {**إني خالق بشراً**}، ثم جاءت الأمور المستقبلية في شكل هذا الأسلوب الشرطي: {**فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**}.. وكأن الله يريد من الملائكة أن تراقب ما يحدث من تغيّرات في أحوال هذا المخلوق الظاهر وصفاته ومقوماته، حتى يسجدوا له كما يأمرهم، إذعاناً لأمره، وإعظاماً لروعة إبداعه، ومضت ملايين السنين، وطحنت عشرات الألوف من الأجيال ، وربما مئاتها في عمليّة التسوية والتزويد بالملكات العليا، والملائكة تراقب أحوال ذلكم المخلوق وتحركاته، حتى آن أوان السجود.

[أقول : لا أدري من أين لبست الدكتور عبد الصبور لوثة ملايين السنين هذه؟! ولا ما هو دليله على وجود مئات آلاف آدم قبل أبينا آدم ؟! وفي رأيي فإنّه لا يقبل أو يصدّق هذا القول إلاّ مجنون أو جاهل، أمّا من يعتقد بما جاء في كتاب الله المحكم من أنّ الله قد خلق الكون كلّه في ستّة أيام، فيستحيل عليه تصديق شعوذات وخرافات الدكتور هذه ، أمَّا قول الله تعالى في سورة: { **وإنَّ يوماً عند ربِّك كألف سنة مما تعُدون**} (الحج : ٤٧) فيُفهم منه أنَّ السنة هنا هي السنة القمريّة ، وقد فهمنا ذلك من قوله تعالى عن نوح عليه السلام أنّه بقي يدعو قومه ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً، ومن قصّة أهل الكهف الذين ناموا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ، وهو ما يُعادل ثلاثمائة عام شمسيّ]

كان المدخل إلى معرفتهم بأنّ السجود قد آن أوانه، خطاب الله سبحانه لهم بقوله : {**إني جاعلٌ في الأرض خليفة**} (البقرة : ٣٠)

[أقول: هذه الآية تفسّر قوله تعالى: {**إنّي خالق بشراً من طين**} والمقصود

بها آدم نفسه (أبو البشر وأبو الإنسان) فالله تعالى لم يخلق سوى آدم واحد) الآية الأولى بيّنت وظيفته ومهمّته على الأرض، وهذه الآية بيّنت مادة خلقه، والآيتان فيهما دليل لنا، ومهما حاول الدكتور تحويرهما أو فهمهما على مراده فلن يُفلح أبداً، لأنّهما آيتان محكمتان، أي لهما معنى واحد فقط]. وهو خطاب يتضمّن إخبارهم بأنّ التسوية قد تمت، وقد صار البشر مزوّداً بالنّفخة من روح الله، وكان لهذا القول وقع المفاجأة على أسماعهم، فهم يتابعون منذ ملايين السنين أحوال هذا المخلوق (البشر)، ويعاينون من شئونه ما يحيِّرهم.

[أقول : القول بوقع المفاجأة، ومتابعة الملائكة لآدم منذ ملايين السنين، قول ينقصه الدليل، بل هو مجرَّد تخريف] ولذلك بادروا إلى سؤال المولى عزَّ وجلّ :**{أتجعل فيها من يـــُفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك}** (البقرة : ٣٠)، وكأنّهم يقولون لربهم : أهذا هو المخلوق الذي أمرتنا بالسجود له، حين أخبرتنا بخبره منذ ملايين السنين؟

[أقول: أين ومتى أخبرهم الله ذلك؟! وأين النص على ملايين السنين؟! عجبي!] لقد راقبنا أحواله منذ ذلك العهد السحيق، فما رأينا منه غير الإفساد في الأرض وسفك الدماء، وهم يشيرون بذلك إلى السلوكات الحيوانيّة التي كان عليها البشر، في مختلف مراحل تسويتهم ، حتى اكتمال ملكاتهم بالنفخة الإلهية وثـــمراتها.

[أقول: لم ينصّ القرآن على أنّ أولئك المفسدين كانوا بشراً، بل أبهمهم، وكل ما جاء في القرآن أنّهم كانوا يفسدون في الأرض، ويسفكون الدماء بغير حق ، وهو ما فهمناه من موقف الملائكة منهم، وهم من خبروهم، ناهيك أنَّ

الدكتور هنا يتّهم الملائكة هنا بأنّ سؤالهم كان استنكاريّاً، مع أنّه كان من قبيل الاستهجان والاستعلام فقط، فالملائكة لا يعلمون الغيب، لكنّهم قد خبروا المخلوقات طينيّة الأصل التي عاشت على الأرض من قبل، فربطوا بينها وبين الخليفة الجديد وفق علمهم القاصر المحدود، ظنّاً منهم أنّ هذا الخليفة الجديد لن يختلف عمّن سبقوه ، وكانوا أشراراً متوحّشين، لا شغل لهم سوى الإفساد في الأرض وسفك الدماء (وجود بعض الشبه بينهم وبين البشر في الخلقة لا يعني بالضرورة أنّهم كانوا بشراً) فقال الله للملائكة :{ **إنّي أعلم ما لا تعلمون** } بما يُفهم منه أنّ آدم ونسله لن يكونوا كمن وصفتم ، وهو ما ثبت فيما بعد أنّهم بشر عاقلون مكلّفون، منهم المصلح ومنهم المفسد .

جاء في كتابي :" القرآن وأوهام القراءة المعاصرة" الذي رددت فيه على كتاب: الكتاب والقرآن ــ قراءة معاصرة للدكتور شحرور (ص١١١ــ١١٢) تحت عنوان : "الإنسان ليس خليفة لله في الأرض"، ما نصّه :

يقول المؤلّف (شحرور) :" فالإنسان "مؤمناً أو كافراً" خليفة الله في الأرض، في مقام الربوبيّة فأصبح مالكاً لها مسيطراً عليها ، متصرّفاً بها ، ثمّ سيتصرّف في السماوات ." أ.هـ .

أقول : هذا كلام يناقض نصوص القرآن، فالله تعالى لم يقل : إنّي جاعل في الأرض خليفة لي، وإنّما قال:{ **إنّي جاعل في الأرض خليفة** } فكلمة خليفة الله في الأرض لا وجود لها، ولا دليل عليها في الكتاب ولا في السنّة، فالله تعالى يقول : { **إن يشأ يُذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء** } (الأنعام : ١٣٣) ويقول تعالى :{ **ويستخلف ربّي قوماً غيركم ولا تضرّوه شيئاً** } (هود

: ٥٧) فالله تعالى يُذهب ما يشاء من أقوام ومخلوقات، ويخلق غيرهم ليخلفوهم في الأرض، ومعلوم أنّ الولد يخلف أباه (جاء في المفردات : خلف فلان فلاناً: قام بالأمر عنه، إمّا معه وإمّا بعده، والخلافة : النيابة عن الغير، إمّا لغيبة المنوب عنه، وإمّا لموته، وإمّا لعجزه...إلخ) وأبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، خلف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في رئاسة المسلمين وإمامتهم، فسمّي خليفة رسول الله، فإذا علمنا أنّ الله تعالى لا يموت، ولا ينام، ولا يعجز، فكيف ولماذا يكون له خليفة ؟! أمّا حقيقة الأمر فهي أنّ آدم وبنوه جاءوا ليخلفوا قوماً مجرمين قتله، عاشوا على الأرض قبلهم، وقد أباد الله نسل أولئك القوم، فلم يبق منهم أحداً].

ويحلو لبعض المفسرين - أو لجمهورهم - أن يفترضوا أنّ الملائكة كانوا يرون أنّهم جديرون بهذه الخلافة دون البشر، وهو افتراضٌ لا يقبله العقل، فقد كانوا يتمتعون بميزات الشهود والقرب من الله سبحانه وتعالى وهي مرتبة عليا في سلم المخلوقات - لم يبلغها غيرهم من الكائنات الأخرى!! إنّ الكون كله صفحةٌ مبسوطة بين أيديهم وأنوارهم ، يرتادون آفاقه ، ويجوبون أنحاءه ، ويعلمون من أمره ما أذن الله لهم بعلمه ، وأين هذا البهاء والسناء من أحوال ذلك المخلوق الحيواني ، اللازق بالأرض ، النّابت من التراب ، المعربد في ممالك الطير والحيوان السافك لدماء جنسه وغير جنسه ؟!

فما الذي تتمناه الملائكة أكثر مما هي فيه من اتصال بالملأ الأعلى ؟

إن معنى سؤال الملائكة لا يتضمن رغبتهم في تلك الخلافة، أو حسد البشر عليها .. بل هو تعبير عن استغرابهم لما يتوقعونه من استمرار الفساد، وتزايد

التشويش في الأرض على تسبيحهم وتحميدهم وتقديسهم لجلال الله وعظمته، فموقع الجملة الملائكيّة: {**ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك**} - موقع الحال، أي : إننا غارقون في أنوار التقديس، في حين أنّ هؤلاء والغون في بحار الدماء، لا يعرفون ديناً، ولا يعبدون إلهـــاً.

[أقول : لم يوفّق الدكتور في تفسير هذه الآية الكريمة، إذ ما المانع في أن يغبط الملائكة هذا الخليفة الجديد(آدم) وقد أمروا بالسجود له ، فالملائكة لا شهوة ولا اختيار لهم ؟ والإنسان التقي إذا ارتقى إيمانيّاً وروحيّاً صار أفضل عند الله من الملائكة، وهو ما حصل لآدم بعد أن نفخ الله فيه من روحه ، وهو تكريم وميزة لم يرد حصول الملائكة على مثلها، والله أعلم].

وقال الله { **إني أعلم ما لا تعلمون** } وسكتت الملائكة .

ونبادر هنا إلى تسجيل ملاحظة على عبارة الملائكة : {**ويسفك الدماء**} فهي إشارة إلى إنتشار جرائم القتل في تلك العهود بين البشر، [أقول : لم تكن تلك المخلوقات بشراً، بل وحوشاً فيها بعض الشبه بالبشر من حيث الشكل فقط] ولم يكن قتل قابيل لهابيل إلاّ استئنافاً لسفك الدماء في العهد الإنساني، عهد التكليف بعبادة الله وحده، بعد انقراض بقيّة البشر، وانتهاء العهد البشري الذي لم يعرف تكليفاً ولا تلقّى رسالة، ولا اتّبع ديناً.

[أقول: العهد البشري بدأ بآدم، والذين عاشوا وانقرضوا قبله كانوا من الهمج الأشرار، الذين لا عقل لهم، لأنّه لم يرد في القرآن أنَّ الله نفخ في أحد منهم من روحه، وبديهيٌّ أنَّ العقل من آثار تلك النفخة].

فهذه الجريمة كانت أولى الجرائم في العهد الإنساني، وتميزت بالاهتداء إلى

دفن الموتى من بني آدم لأول مرة، بعد أن كانت الجثث تترك في العراء كسائر الحيوانات النافقة، تأكلها الضواري أو تتآكل ..

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما رواه البخاري والنسائي عن مسروق عن عبد الله : (لا تُقتل نفسٌ ظلماً إلاّ كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها ، وذلك أنّه أوّل من سنّ القتل)

[أقول : هذا الحديث رواه البخاري في كتاب الجنائز تحت رقم ٣٠٨٨ ، وفيه عمرو بن حفص بن غياث ، لم يوثّق (صدوق يهم): قال فيه :

أحمد بن حنبل: صدوق .

أمّا ابن حبّان : فذكره في الثقات، وقال : ربّما أخطأ

وفيه الأعمش ، وهو مدلّس ــ وقد عنعنه.

ورواه النسائي تحت رقم ٣٩٢٠ وفيه الأعمش ، ومداره عليه ، أي لا شاهد عليه ، وعليه فهو خبر لم يصل درجة الصحّة، بل هو ضعيف، ومتنه يتعارض مع قوله تعالى: **{ولا تزر وازرة وزر أخرى}** (فاطر : ١٨) ومعلوم في الشريعة الإسلاميَّة أنّ قاتل المؤمن متعمّداً جزاؤه جهنّم خالداً فيها، وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً].

يشير أيضاً إلى موقع ذلك الجرم من المسئوليّة ، فقبل ارتكاب هذه الجريمة لم تكن هناك مسئوليّة عن قتل النّفس ، لأنّه لا مسئوليّة إلاّ بعد إرسال الرسل ، وقبل آدم لم يكن رسول ولا دين ، فلا مسئوليّة ، وبعد آدم بدأ العهد الإنساني فكانت المسؤليّة الدّينيّة ، فتحمل ابن آدم الأوّل وزر أخيه ، وعليه كفل من دم كل نفس تُقتل ظلماً ، لأنّه أول من سن القتل ، أي : هو أول من خرج على

الدين ، واتخذ لنفسه سنةً أخرى ، هي سنة الظلم والقتل ، لا سنة الدين والعدل، وفي حديث : (من سنّ سنّة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة) لقد قال الله سبحانه لملائكته :{ **إني أعلم ما لا تعلمون** } ومضمون هذا الخبر أمر لهم بالسكوت ، فسكتوا .

[أقول : أرجو أن لا يُفهم من ذلك أنّ الله قد استخدم مع الملائكة أسلوب القمع، فكون الله أعلم منهم، حقيقة يعلمونها من قبل، وهم بها مؤمنون].

ودارت الأقدار على نهج المشيئة، وبدأ الدرس الأول ، أو الرسالة الأولى في تاريخ الإنسانيّة : { **وعلم آدم الأسماء كلها**}...وحتى هذه اللحظة لم تكن الملائكة تعلم: من ذلك الذي جعله الله من بين البشر خليفة في الأرض ؟!! ولم يكن آدم قد ظهر على المسرح .

[أقول : هذا فهم سقيم، وبلا دليل، وإلاّ فأين جاء ذكر البشر قبل ذلك حتى يُقال: "من بين البشر"؟! فآدم هو الخليفة الجديد، وهو أول بشر] فاصطفاؤه كان في علم الله وحده ..وهم معذورون لأنهم لا يرون في تلك الخليفة إلاّ الجانب السلبي، أمّا الجانب الإيجابي فمحجوب عنهم ، ولم يكشف الله لهم شيئاً من أسراره .

وجاء وحي الله بالرسالة والاصطفاء إلى آدم {**وعلم آدم الأسماء كلها**} وهذه أول مرة يذكر فيها لفظ (آدم)، وتعليم الله له هو فحوى رسالته التي لم تُذكر إلا في هذه الآية، وهي آية لا يمكن تفسيرها إلاّ في ضوء قوله تعالى :

{ إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين } (آل عمران :٣٣).

إنّ آدم رسول مصطفى من الله ، تماماً كنوح وإبراهيم ، ولقد كانت لنوح ملحمة كبيرة تحدث عنها القرآن في أكثر من موضع ، وكانت لآدم – قبل نوح – ملحمته الكبرى التي بدأت بهذه اللمحة الإلهيّة ، فقد علّمه ما لا تعلم الملائكة .. علمه الدين، والرسالة التي سوف يبلغها لبنيه ، وهو ما بدأ متألقاً في الحوار الذي دار بين ابنيه متضمناً كل المفاهيم التوحيدية وأمهات الأخلاق الدينيّة ، وتلكم هي الأسماء التي تعلمها آدم عن ربه. ولأمرٍ ما حرص القرآن على أن يؤكّد أنّه تعلّم **{الأسماء كلها}**، فلعلّ آدم كان يعرف بعض الأسماء فتولى الله سبحانه تعليمه كل الأسماء .

[أقول : من أين لآدم أن يعرف بعض الأسماء وقد خُلق لتوّه، وكلمة لعلّ لا تفيد اليقين، ثمّ ألا يكفي النص (قوله : الأسماء كلّها) دليلاً على أنّه لم يكن يعرف قبلها، أو غيرها شيئاً؟! ثمّ ما أدرى الدكتور أنّ تلك الأسماء هي مضمون رسالة أو نبوّة آدم؟!]فيما يتصل بالمهمّة التي سينهض بها ، خليفة في الأرض، ومن بين الأسماء التي تعلّمها أسماء الملائكة المشاركين في هذا الحوار، وقد تضمن القرآن بعض هذه الأسماء فتعلمها المؤمنون من الوحي.

كان اصطفاء آدم للرسالة الإنسانيّة الأولى غيباً محجوباً عن الملائكة ، لا يعلمه إلاّ ربّ العزّة، وكانت الأسماء التي تعلمها متعلقة بالأمانة التي ناطها الله بآدم وذريته،[لا دليل هنا] وهو ما لم تعلمه الملائكة من قبل .. إنّها بداية عهد جديد، وإشراقة جيل الإنسان على أنقاض الركام البشري .

[أقول:" الركام البشري" مصطلح مُحدث، بل بدعة، وهو ومردود]

وحين عرض الله سبحانه هذه المضامين على الملائكة : { **فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا إنّك أنت العليم الحكيم** } (البقرة :٣١-٣٢).

ولا مانع من أن يُشار إلى المعروضات الماثلة في الموقف بإشارة العقلاء (هؤلاء) لأنّ الأسماء تتعلق بأشخاص وأشياء تفرّد آدم بعلمها ، وأقرت الملائكة بأنّها لا تعلم إلاّ ما سمحت به مشيئة الله من قبل { **قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال إنّي أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون** } (البقرة : ٣٣) .

ووضح في الموقف تفوُّق آدم، واختصاصه بالرسالة والاصطفاء، وهنا حانت لحظة السجود لآدم، تنفيذاً للأمر الصادر منذ بضعة ملايين من السنين .

[أقول : قول الدكتور إنَّ الملائكة انتظروا بضعة ملايين من السنين قبل تنفيذهم أمر الله لهم بالسجود أقل ما يُقال فيه أنَّه بلا دليل، بل نوع سفسطة، ولأنَّه يُناقض القرآن ، لذلك حُقَّ لي أن أقول : يا عقلاء اسمعوا ، ويا مجانين صدّقوا !!!].

الفصل الثالث

السجود للنبي الإنسان

ورد موضوع السجود لآدم في سبع سور من القرآن ، هي بترتيب النـــزول :

١ - السورة السابعة والثلاثون (ص) : { **فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلاّ إبليس استكبر وكان من الكافرين** } (ص : ٧٣- ٧٤) .

٢- السورة الثامنة والثلاثون (الأعراف) : {**ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين** } (الأعراف : ١١)

٣- السورة الرابعة والأربعون (طه) : { **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى** } (طه : ١١٦) .

٤- السورة التاسعة والأربعون (الإسراء) :{**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً**} (الإسراء :٦١)

٥ - السورة الثالثة والخمسون (الحجر) : { **فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلاّ إبليس أبى أن يكون مع الساجدين**} (الحجر: ٣٠ -٣١) .

٦- السورة الثامنة والستون (الكهف) : { **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاَّ إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه** } (الكهف : ٥٠) .

٧- السورة السابعة والثمانون (البقرة) : { **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاَّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** } (البقرة : ٣٤) .

[أقول : لاحظ أخي القارئ الكريم تصدّر حرف "الفاء" في كلمة {فسجد}، وَ {فسجدوا}، في جميع تلك الآيات، والفاء حرف عطف يُفيد الترتيب والتعقيب دون تراخ، بما يُفهم منه أنّ الملائكة قد سجدوا بعد أمر الله مُباشرة، وهو ما كان، وليس بعد ملايين السنين كما زعم الدكتور شاهين].

ويلاحظ على ما سبق من النصوص القرآنية ما يأتي :

١- أنّ النصوص الستة الأولى مكيّة ، والنص السابع مدني .

[أقول : لا دليل على ذلك ، بل هو مكّي ، ومجيء آية أو آيات مكّية في سورة مدنيّة وبالعكس ، أمر شائعٌ في القرآن الكريم] .

٢- أنّ النص في سورة (ص) يجعل السجود عقب تمام النفخ من روح الله، وكأنه جزاء وجواب للشرط{ **فإذا سويته** .. }، [أقول : كلمة "إذا" هنا تدلّ على الانتهاء، أي "فإذا انهيت خلقه"] وكذلك أيضاً السياق في نص سورة (الحجر)، أمّا النص في سورة (الأعراف) فيوحي بوجود مسافة زمنيّة بين مرحلة التصوير(أو التسوية) وبين الأمر بالسجود ،كما سبق ملاحظته.

[أقول : الخلق هنا قُصد به آدم عليه السلام، أي الخلق الأوّل، والتصوير قُصد به بنوه، والدليل قوله تعالى في خلق آدم :{**فإذا سوَّيته**}، ولم يقل : "فإذا صوَّرته"، أمَّا في خلق أبناء آدم فقال :{**هو الذي يُصوِّركم في الأرحام كيف يشاء**} (آل عمران :٦) ، ثمّ عاد السياق ليتحدّث عن آدم عليه السلام، وأمر الله الملائكة بالسجود له، وبديهيّ استخدام "ثمّ" أداة العطف التي تدلّ على الترتيب مع التراخي] ولكن استجابة الملائكة للأمر كانت في سياقها فوريّة مقرونة بالفاء .

[أقول : وهذا يؤكّد ما سبق أن قلته : أنّ تسوية آدم ، والنفخ فيه من روح الله، وسجود الملائكة له، وفسق إبليس ،كلّ ذلك كان في مشهد واحد ، وهو اعتراف من الدكتور ينفي به كل ما سبق أن قاله عن ملايين السنين].

وتتشابه النصوص في بقيّـــة السور المكيّة في (طه، والإسراء، والحجر، والكهف) - إذ يأتي السجود جواباً للأمر : (اسجدوا) (فسجدوا) .

أمّا النص المدني في سورة البقرة فيجعل الأمر بالسجود عقب فصل هام من القصة ، وهو الحوار بين رب العزة والملائكة في شأن (الخلافة في الأرض)، وهي إضافة بارزة لم ترد في أي نص قرآني سابق أو لاحق .

[أقول : لم يأت نصّ مدنيّ واحد في قصّة خلق آدم ، ومن زعم ذلك فعليه الإتيان بالدليل ، وهيهات.].

لقد كان أهل التفسير يرون دائماً أنّ السجود الملائكي قد حدث عقب نفخة الله سبحانه، التي أنهضت آدم (بشراً مسوّى)، وهو رأي سائد في كل التفاسير، [أقول: هذا دليل على أنّ آيات خلق آدم محكمة، وأنّ هذه المسألة ليست خلافيّة] إذ أنّ الملائكة رأت في تحرك هذا المخلوق الطيني آية إلهية تستوجب السجود - تكريماً لآدم ، وطاعة لله عزّ وجل،بحسب الرؤية القديمة، وهو ما يقوله الأستاذ البهي الخولي (ص ٥٩) : (سجدوا - الملائكة - له بأمر من الله عز وجل عندما نفخ فيه سبحانه من روحه).

[أقول: لولم يسجد الملائكة (بعد الأمر) مباشرة لكانوا من العاصين ، والعصيان منهم مُحال، أمّا أن يأتي تنفيذهم لأمر السجود بعد ملايين السنين، فلا يعني إلاّ التمرُّد على الأمر، أو الاستهتار به، وهو من الملائكة مُحال، بل إنّ

ذلك أمرٌ عجاب، لا يُقنع أولي الألباب].

أمّا نحن فنرى طبقاً لتصورنا أنّ نص سورة البقرة[سورة البقرة مدنيَّة نزلت في السنة الأولى للهجرة على الأرجح، لكن ذلك لا يمنع وجود بعض الآيات المكيَّة فيها، وهو أمر لا خلاف فيه بين العُلماء فيما أعلم] وهو النص الأخير الذي يحكم جميع النصوص السابقة، ويهيمن عليها .

[أقول: أولاً: هذا تحكُّم بلا دليل، وثانياً: لا يوجد نصّ أول وأخير في القرآن، ولا نصّ يهيمن على نصّ آخر، بل يجب إعمال جميع النصوص في المسألة الواحدة، فالقرآن يفسِّر بعضه بعضاً، والدكتور لم يلتزم تلك الحقيقة، مع الأسف] هذا النص، قد طرح ترتيباً آخر للأحداث ، فجاء بالأمر بالسجود بعد مشهد الحوار بين الله وملائكته عن اتخاذ خليفة في الأرض ، ولم يكن آدم معلوماً آنذاك للملائكة، رغم أنّه كان موجوداً على الساحة بين أغمار البشر، [أقول: أين الدليل على هذا الزعم غير المسبوق ؟! ومن أين جاء الدكتور بمصطلح " أغمار البشر"هذا؟!] ولذلك عمّمت الملائكة الحكم على البشر، وأنّهم يُفسدون ويسفكون الدماء ، ولو كانت الملائكة تعرف أنّ المقصود آدم فربما استثنته من هذا التعميم ، [أقول : هذا كلام أولى بالمشعوذين ، لا علماء الدين] ولذلك قال الله : { **إنّي أعلم ما لا تعلمون** }، وهنا دخل آدم إلى مسرح الحوار{**وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة**} (البقرة : ٣١) كان التعليم هو الوحي الذي علم آدم ما لم يكن يعلمه، وهو اصطفاؤه نبيّـــاً، وتزويده بالضروري من التعاليم الدينيّة، ليبدأ الموكب الجديد، موكب الإنسان المكرم في شخص آدم : { **ولقد كرمنا بني آدم** } (الإسراء : ٧٠)

[أقول : تكريم أو تفضيل بني آدم كان على كثير ممّن خلق، وليس على جميع ما خلق، فلا يشمل ذلك الملائكة، أمّا آدم فقد أسجد الله له (وحده) الملائكة] وموقف آدم عليه السلام في هذا هو موقف محمد صلّى الله عليه وسلّم، وقد قال الله له: {**وعلّمك ما لم تكن تعلم**} (النساء : ١١٣)

في هذا الموقف علمت الملائكة لأول مرة أنّ المقصود بالخليفة هو (آدم) وليس غيره .. إنها النبوة، طليعة الموكب الإنساني، وقاعدة انطلاق المشروع الذي بدأت خطواته التنفيذيّة منذ ملايين السنين،[أقول : لوثة ملايين السنين التي ما فتئ الدكتور يكرّرها سبق أن رددت عليها غير مرّة]، فوجد كماله في شخص آدم ، النبي المصطفى... يا لها من قدرةٍ هائلة ؛ تابعت عملية الخلق خلال هذا الزمن المتطاول !! ويا له من إنجازٍ رائع تجلّى أعظم تجلٍ في شخص آدم الرسول، الذي تفوق على ملائكة الرحمن !!!

[أقول: الله هو من فضّل آدم على الملائكة بنفخه فيه من روحه، ولو احتاج خلق آدم كل هذا الزمن المتطاول لما كان في خلقه إنجاز رائع ولا غيره، أمّا روعة الإنجاز فهي ما نراه من تكوّن الشيء بعد أو عند أمر الله له :{**كن فيكون**}] .

في هذا المشهد الكوني العظيم أمر الله ملائكته بالسجود لآدم ، تكريماً وتكليفاً :{**إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين**} – إنّه موقف يثير من الأعماق كوامن الطاعة والإعجاب، كما يحرك دوافع الحقد ودفائنه ، وفي هذا المشهد ولد الشيطان !! الكافر المتأبّي المستكبر!!

ولا بُدّ أن نتعرض هنا لمعنى السجود والمراد به في هذا الموقف ، وننقل عن

الأستاذ البهي الخولي ما قاله في كتابه (آدم عليه السلام ص ٥٩) : (ومن البديهي أنّ هذا السجود لم يكن سجود عبادة ونسك ، فإنّ ذلك لا يكون لغير الله، إنّما هو سجود تحية تكريم ومؤآنسة، وليس ضرورياً أن يكون سجوداً وضعوا له الجباه على الأرض، كما نفعل في سجودنا لله عزّ وجل، فللسجود هيئات كثيرة تتنوع بتنوع أصناف الخلائق، والله سبحانه يقول في ذلك : { **والنجم والشجر يسجدان** } (الرحمن : ٦)، ويقول على لسان يوسف لأبيه: { **إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين** } (يوسف : ٤)، ويقول:{**ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابةٍ والملائكة وهم لا يستكبرون**} (النحل: ٤٩) ، ومن البديهي أنّ سجود الدواب ليس كسجود الملائكة، وسجودهما ليس كسجود الكواكب والشمس والقمر، وسجود هؤلاء جميعاً ليس كسجود الشجر والزرع الصغير ... وهكذا ... ذلك إلى أنّ من معاني السجود في اللغة التطامن والتواضع، ويقول صاحب المصباح المنير: (وسجد البعير: خفض رأسه عند ركوبه، وكل شيءٍ ذلّ فقد سجد) فإذا كان في سجود الملائكة معنى الذّل فليس هو ذلّ العبودية، ولا الذل المضيّع للكرامة، إنّما هو ذلّ التطامن والمودة الذي ترى شيئاً منه في قوله تعالى{ **واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة** } (الإسراء : ٢٤)، وتراه فيما يتبادله رحماء المؤمنين بينهم من انكسار الأخ لأخيه المؤمن ، الذي عبر عنه الحق تبارك وتعالى بقوله { **أذلّة على المؤمنين أعزةً على الكافرين** }(المائدة : ٥٤).

فهو سجود فيه معنى التحية والمودة وخفض الجناح، والإقرار بالفضل، قال القرطبي في الجامع: (وقال قوم : لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم، الذي

هو وضع الجبهة على الأرض، ولكنه مبقى على أصل اللغة ، فهو من التذلل والانقياد .. أي : خضعوا لآدم ، وأقروا له بالفضل) (القرطبي :١/ ٢٩٣) .

والواقع أنّ الموقف لم يكن بحاجة لهذا العناء لتفسير السجود بالتذلل أو خفض الجناح، أو الإقرار بالفضل، فذلك كله مبني على التصوّر القديم الذي يرى الموقف محصوراً في اللحظات التي انبهرت فيها الملائكة بدبيب نفخة الله في جسد آدم ، وهو تصوّر تبين قصوره عن فهم الموضوع في ضوء معطيات العلم، واحتمالات النصوص القرآنيّة.

[أقول: العلم في هذه المسألة تقديري تخميني، لم يستقر بعد، باعتراف الدكتور نفسه، والاحتمالات التي ذكرها الدكتور هنا بعيدة عن النصّ بُعد السماء عن الأرض، ولنا في قصّة خلق عيسى عليه السلام للطير بإذن الله عبرة قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام : { **أنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله**} (آل عمران : ٤٩)، الفاء في كلمتي : "فأنفخ" و" فيكون " تدلّ على الترتيب والتعقيب دون تراخٍ ، بما يُفهم منه معنى :{**كن فيكون**}، فهل يجرؤ الدكتور عبد الصبور على قول : إنّ الناس الذين جرت معجزة عيسى هذه أمامهم قد انتظروا ملايين السنين حتى تحرّك الطير الطيني بدبيب الحياة فيه ؟! أو هل يجرؤ على قول : إنّ عيسى مكث ملايين السنين وهو يصنع تمثال ذلك الطير من الطين ؟! أو أنّه صنع منه طيراً ناقصاً، ثمّ طوّره عبر ملايين السنين؟! ولله المثل الأعلى.].

والذي نطمئن إليه هو أنّ سجود الملائكة كان يعني تكليفهم لحيطة الحياة الإنسانية، إبتداءً من (آدم)، وهو تكليف ماضٍ إلى يوم القيامة، تتولى الملائكة

فيه المحافظة على بني آدم وإلهامهم إلى الخير[بل الاستغفار للمؤمنين، والدُعاء على الكافرين المُفسدين]، طبقاً لمشيئة الله سبحانه، في مقابل ما توعّد به إبليس آدم وذريته من الغواية والاحتناك والهيمنة ، والتضليل .

فالملائكة هم بموجب أمر السجود - أحد طرفي المعادلة في الحياة الإنسانيّة التي قامت على الصراع بين الخير والشر.

[أقول:"إلهام الملائكة بني آدم إلى الخير" كلام لا دليل عليه ، إذ كل ما جاءت به النصوص أنّ الملائكة يُصلّون على النبي، ويستغفرون للذين آمنوا في الحياة الدنيا، وربما شفعوا لبعضهم يوم القيامة، ويلعنون الكافرين ، والله أعلم].

وعلى ذلك فقد سجد الملائكة، وما زالوا ساجدين لآدم، ولبني آدم.

[أقول : هذا كلام ناتج عن جهل مُدقع، أو افتراء مُفجع، فالملائكة لم ولن تسجد للكافرين، ومن هم أسفل سافلين من أبناء آدم، بل تلعنهم آناء الليل وأطراف النهار] وهذه هي الكرامة التي كفلها الله لهذه الذريّة المصطفاة من خليفته البشرية طبقاً لما قررته آية سورة الإسراء :{**ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلا**} (الإسراء : ٧٠) وهي أيضاً الكرامة التي أشار إليها إبليس في قصة الحوار في سورة الإسراء:{**قال أرأيتك هذا الذي كرّمت علي**} (الإسراء : ٦٢)، فقد احتقن حين رأى ما خصّ الله به آدم من تكريم وكرامة، فتوعد بأنّ يضله وذريته، ليظهر عدم استحقاقهم لهذه الكرامة.

[أقول: التكريم شيء (وهو لآدم أو لجنس الإنسان النقي)، والإيمان والكفر شيء آخر، ولا نصَّ على سجود الملائكة لبني آدم مؤمنهم وكافرهم، فافهم!]

الفصل الرابع

موقف إبليس من السجود

لإبليس في قصة آدم موقفان : موقف مع ربّ العزة ، وموقف مع آدم وزوجه حواء ، والموقفان يتحولان في النهاية إلى موقف واحد ، هو موقف الصراع بين الخير والشر ، أو التناقض بين الملائكة والشياطين ، ومجال الصراع دائماً هو نفس الإنسان (آدم وذريته) .

ويظهر إبليس في مشهد التكليف بالسجود فجأة ، ودون مقدمات ، فلم يرد له ذكر قبل هذا المشهد ، وما كان سوى واحد من (الجن) المنتشرين في أرجاء الأرض ، ولعله كان ذا حظوة واقتراب من عالم الملائكة حتى جاء الأمر بالسجود وكأنّه مقصود به معهم .

[أقول : بل كان إبليس مقصوداً معهم، فلا لزوم ولا مكان لكلمة "كأنّه" هنا، ولو لم يكن مقصوداً معهم لما عُدّ تمرّده فسقاً وكفراً] ، والقرآن ينصّ على ذلك في قوله تعالى :{**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربه**} (الكهف : ٥٠) .

ولعل تجاهل القرآن لذكره في خبر الأمر بالسجود ـــ إنّما كان لأنّه مجرد فرد من (الجن)، على حين أنّ الخطاب كان لعالم الملائكة بإطلاق، فلما شذّ في موقفه وأعلن رفضه لأمر الله ..{**ففسق عن أمر ربه**}؛ صار علماً على الشر، في مقابل استجابة الملائكة الذين صاروا أعلاماً على الخير.

ونحسب أنّ الأمر لم يكن بالصورة التي يتخيلها العامة من المفسرين ، من

مثول الملائكة ومعهم إبليس بين يدي الله، جلّ وعلا، وآدم واقف ينتظر حدوث السجود، فقد استقر رأينا على أنّ السجود كان لآدم النبي الذي اختير خليفة، والذي استهل به عهد الإنسان، لا لآدم المخلوق ـــ من الطين ـــ [أقول : بل سجدوا لآدم (أبو البشر) المخلوق من الطين، بعد النفخ من روح الله فيه، ونصوص القرآن قطعيَّة في ذلك]، فإنّ حدث الخلق كان قد مضت عليه ملايين السنين، وإن لم يكن فرق بين السَّنة والسِّنة.

[أقول : لو لم يكن ثمّة فرق بين السَّنَة والسِّنَة لما فرّق الله تعالى بين النوم والسِّنة، والنوم مدته أكثر من السِّنة، وأقل من السَّنة، قال تعالى {**الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم لا تأخذه سنَةٌ ولا نوم**} (البقرة :٢٥٥) فما بالكم كيف تحكمون؟!].

وعليه: فإنَّ تكليف الله سبحانه للملائكة بالسجود كان يعني تكليفهم بالاشتغال بحفظ ذلك الخليفة النبي، وذريته إلى يوم القيامة،[أقول : ليس غريباً على عبد الصبور شاهين (وقد ثبت عدم اتّزانه في هذا الكتاب) عدم التفريق بين حفظ الملائكة للنبي والمؤمنين، ولعنهم الكافرين من أبناء آدم، قال تعالى: {**أولئك جزاؤهم أنّ عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**} (البقرة :١٦١)] وقد رفض إبليس أن يخضع للأمر الإلهي، وأن يعمل في خدمة الإنسان كالملائكة، [أقول : الملائكة لا تعمل في خدمة الإنسان، بل في خدمته تعالى] وبذلك انشق على الأمر الإلهي، وصار عدواً لآدم وذريته، كما صار عدواً لله خالقه، وقد استعلن بهذه العداوة، فلم يرجع عنها رغم زعمه أنّه عبد الله !!

وعلى هذا تكوّن التشكيل الجديد للحياة كما أرادها الله : صراعاً بين

الخير والشر، وتناقضاً بين الشيطان والملائكة، في شأن الحياة الإنسانية ، وآدم وذريته موضوع الصراع ، وأدواته ، وهم أبطاله أو ضحاياه ، تمهيداً للمرحلة التالية من الملحمة الوجودية ، مرحلة الحساب ، والجنة والنار ، والخلود فيهما .

إنّ إبليس الذي رفض السجود والتكليف ـــ كان عاصياً لأمر الله من ناحية، وكان أداة لتنفيذ إرادة الله من ناحية أخرى، ولولا أنّه رفض السجود، وركب رأسه ما كانت هذه الدنيا، وهو أمر لم يكن مقصوداً له حين عصى ربه ، ولم يكن يدريه قبل أن يكون .

ولنعد الآن إلى النص الأول من التنـــزيل، الذي ذكر هذا المشهد في سورة (ص) :{**إذ قال ربك للملائكة إنّي خالق بشراً من طين * فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلاّ إبليس استكبر وكان من الكافرين * قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين * قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال فاخرج منها فإنك رجيم *وإنّ عليك لعنتي إلى يوم الدين * قال ربّ فأنظرني إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلاّ عبادك منهم المُخلَصين * قال فالحق والحق أقول * لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين**} (ص:٧١-٨٥)

ويبدو لنا هذا النص أشبه بتلخيص للحوار، أو بالأحرى للقصة التي جاءت تفاصيل كثيرة منها في السورة التالية نزولاً، سورة (الأعراف)، حسبنا الآن هذا الموجز الذي يقتصر على جانب الحوار بين الله، والمتمرّد إبليس .

وفي بداية النظر في مكونات الحوار نؤكد هنا على ضرورة مراعاة المسافة بين ما ينبغي لله من جلال وعظمة وعلو شأن ، وهو سبحانه الخالق البارئ المصوّر ، وبين إبليس من حيث هو مخلوق يواجه خالقه ، وهو لا يزيد في قدره عن أي مخلوق متمرد على أوامر الخالق ، مصرّ على معصيته ، سواء أكان من الإنس أم من الجن .. هذا من ناحية ..

ومن ناحية أخرى يجب أن نستبعد الصورة الساذجة التي يتخيلها بعض من تناولوا هذه القصة .. أعني : صورة المواجهة المباشرة في هذا الحوار، فلا ريب أنّ الشيطان كان في موقعه من الكون، لا يستطيع أن يتجاوز قدره، فيتطاول إلى المقام الأسمى، مقام ربّ العزة، ليجابهه بتلك المقولات، فالله أعلى وأجل من أن تُدركه الأبصار أو تحدّه الأوهام والظنون، وغاية ما نتصوره أن يكون الحوار قد جرى من خلال الوحي النفسي ، الذي أحاط بتفاصيل من يعلم السرّ وأخفى ، فهو ــ والله أعلم ــ حوار جرى في نفس إبليس ، حين رفض الأمر بالسجود ، من منطق اعتقاده بأنّه خير من آدم من حيث الأصل ، فهو من نار ، وآدم من طين، وذلك رداً على ما ثار في نفسه من أنّ إباءه السجود لا تفسير له إلاّ الكبر والغطرسة، وحينئذ جاءه الأمر الإلهي ــ أيضاً ــ من طريق الوحي النفسي : {**اخرج منها فإنك رجيم * وإنّ عليك لعنتي إلى يوم الدين** } .. وهكذا سار الحوار إلى نهايته ، بكل ما تضمن من حقائق وأقدار عبّرت عنها كل رسالات الأنبياء ، من لدن آدم إلى محمد ، عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم السلام.

[أقول: القول بالوحي النفسي لا دليل عليه، بل فيه ابتعاد عن النص،

وتحكّم واضح] .

وقد يحلو لبعض المتفلسفة أن يروا في هذا الموقف الإبليسي تعبيراً عن القوة والشجاعة الأدبيّة .. بل وزاد بعضهم في المغالطة فرأى في هذا الموقف آية على منتهى التوحيد، فهو لا يسجد إلاّ لله وحده !! .. وتخيّـل بعضهم أنّ إبليس حين تمرّد على الله صار رمز الحريّة، وزعيم الأحرار الرافضين للقيود !! ..

والواقع أنّ موقف إبليس في ذلك الحوار يعكس ملامح شخصية متناقضة غبيّة، غاية في الغباء والتناقض، والضعف، والجبن، والجهالة، وذلك إذا ما احتكمنا إلى المقاييس الأخلاقية المثالية، وإنّما أضفى عليه حلم الله الواسع هالة من التعاظم تليق بمتكبر حقود ، هو إبليس .

فليس من القوة أن يتصدى المخلوق للخالق ، ويتمرد عليه ، وهو يعرف يقيناً أنّه هو الخاسر في النهاية .. بل وهو يعلم أنّه يُخاطب ربّه ذا القوة المطلقة ، والبأس الشديد وليس من الشجاعة أن يتجرأ على الله ، وهو يعلم أنّ ذلك يودّي به إلى جهنم، وبئس المصير، ثم يستمر في هذا التجرؤ إلى حد الوقاحة والتحدّي العبيط!!.. وليس التوحيد إلاّ الإذعان بالعبودية والطاعة المطلقة لله وحده لا شريك له ، والانصياع لأوامره ، وإبليس حين رفض السجود لآدم لم يكن إلاّ رافضاً لأمر الله، وقد أوقعه في هذا الجرم سوء تأوّله ، أو لنقل : إنه قد ركبه في هذه اللحظة شيطان آخر أعتى منه ـــ لو صحّ التصوّر ـــ فأغراه بالتمرّد ، وأعماه عن تبيّن وجه الحق الذي أدركته الملائكة ، فالملائكة هم في الواقع أذكى منه ، وأعمق توحيداً ، على حين خرج هو عن دائرة التوحيد !!

ويكفي دليلاً على غباء إبليس أنّه وقد خفي عليه المعنى الصحيح للسجود

وهو موالاة آدم وذريته ــ إلى يوم القيامة ، كما أدركت ذلك الملائكة ــ انبرى بعقله الغبي يعقد مقارنة بين النار والطين، ويزعم خيريته على آدم من هذا الجانب، مع أنّ الطين عند التأمل خير من النار، فهو زكي معطاء، وهي أداة إهلاك وعذاب.

وفضلاً عن ذلك ؛ فإنّ الأمر بالسجود لآدم لم يكن يعني أفضليته ، بقدر ما كان يعني إرادة تنظيم الحياة الجديدة على أساس من تعاون المستويات الخلقية الثلاثة : النور والطين والنار، أو الملائكة ، والبشر ، والجن ، وخضوع الجميع لأمر الله وإرادته.

وهب ــ يا إبليس ــ أنّ السجود كان يعني الأفضلية ، فإن هذه الأفضلية لم تكن تعني الأصل المادي ، بل هي تعني تعلق الإرادة الإلهية بالأمر وتنفيذه من ناحية، ثمّ إنّ معيار الأفضلية في مستواها العلوي ليس مادة الخلق ، من طين أو من نار ، بل هو التنافس في طاعة الله ، كما قال تعالى في محكم التنــزيل: {**إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم**} (الحجرات : ١٣) ، فقد يحلّق في سماوات الرضوان جني من نار، وقد يرسب في قاع الجحيم إنسي من الطين، لأنّ المعيار هو التقوى.

لقد سجل إبليس على نفسه نقطة غباء ، حين حصر نفسه في ملاحظة الفرق بين الطين والنار، ولو كان ذلك صحيحاً لفخرت الملائكة عليه بأنّها من (نور) ، وهو خير من النار قطعاً، بمقياس إبليس .. بل وبكل مقياس !!

وإذا كان أتباع الشيطان وعَبَدَته قد تصوروا أنّ إلههم هو رمز الحرية، وزعيم الأحرار فما ذلك إلاّ أثر من آثار تسلطه بغبائه على عقولهم، إن كانت

لهم عقول، لقد تعلقوا بمفهوم التمرّد الذي أبداه إبليس في مواجهة أمر خالقه، ولم ينظروا إلى أنّه لم ينكر ربوبية الله، في مطلبه أن يُنظره إلى يوم البعث، وفي قسمه بعزة ربّه، وهو مسلك يصمه بالتناقض أو بالجنون، إذ كيف يقبل منه أن يتمّرد على (رب العزة) باعترافه، ويختار طريق الغواية والإغواء والذلّة ، عامداً متعمداً... اللهم إلاّ أن يكون غبياً غاية في الغباء، أو منقاداً لشيطان أعتى منه تسلّط عليه حتى أضله هذا الضلال المبين؟!حتى فقد القدرة على التمييز فلم يلحظ تناقضه الفاضح؟ فإذا لم يكن هناك شيطان قبله، فهو إذاً انطماس البصيرة، وعمى البصر ، وهو أولاً وآخراً الحقد الذي ملكه تجاه آدم وذريته .

أين هي الحرية إذاً ؟ اللهم إلاّ أن يكون معنى الحرية هو الانتصار للرذيلة، والتحلل من كل قيمة تعمر بها الحياة .. أن يكون معنى الحرية هو تخريب الدنيا، وتدمير بنائها الإلهي، ونشر الفساد والإلحاد، وإشاعة الفوضى والانفلات ، وسيادة الحقد على وجوه الحياة كلها ؟!

ومع ذلك، إنّ إبليس كان في موقفه مغروراً، لأنّه زعم لنفسه القدرة على إغواء الناس أجمعين ، إلا المخلَصين منهم من عباد الله ، وعجيب أن يدرك هذا الفرق بين الغواية والإخلاص ثم يستمر في مزاعمه ، فكان نذير الله له بأن يملأ جهنم منه ومن أتباعه أجمعين ، وبهذا ختم الحوار ــ كما قدمته سورة (ص) في أول سياق يتعرض لهذه القصة .

فإذا قرأنا ما جاء في السورة التالية لها، في سورة الأعراف ــ الثامنة والثلاثين ــ وجدنا مزيداً من التفاصيل عن أساليب إبليس في إفساد الحياة الآدمية (الإنسانية)، وهو مضمون قوله (لأغوينهم) : **{ قال فبما أغويتني**

لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين} (الأعراف :١٦-١٧).

وفي السورة التاسعة والأربعين ــ الإسراء ــ يخاطب إبليس ربّه : **{ قال أرأيتك هذا الذي كرّمت علي لئن أخّرتني إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذريّته إلاّ قليلاً }** (الإسراء :٦٢) .

ويجيبه الله سبحانه : **{ قال اذهب فمن تبعك منهم فإنّ جهنّم جزاؤكم جزاءً موفوراً * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غروراً}** (الإسراء : ٦٣-٦٤) .

وفي السورة الثالثة والخمسين ــ الحجر ــ **{ قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين إلاّ عبادك منهم المُخلَصين }** (الحجر : ٣٩-٤٠).

وفي السورة الثالثة والتسعين ــ النساء ــ يأتي حديث عن الشيطان، والمقصود به إبليس ــ قال تعالى : **{ إن يدعون من دونه إلاّ إناثاً وإن يدعون إلاّ شيطاناً مريداً * لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتّكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرنّ خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً * يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غروراً }** (النساء : ١١٧-١٢٠) .

وهكذا ــ عبر النصوص المتتابعة ــ يتّضح المقصود بالغواية في قوله تعالى : **{ لأغوينهم }** فهو يقعد لبني آدم على الصراط المستقيم ، بأن يعترضهم على

طريق الإسلام.

[أقول: تفسير الدكتور الصراط المستقيم بأنّه الإسلام هو عين الصواب، أمَّا الجسر أو الصراط فوق جهنم فمُجرَّد خُرافة ، ما أنزل الله بها من سلطان ، ناهيك أنَّ جميع أخباره آحاد، ضعيفة سنداً، أو مردودة متناً (دراية)] وهو يتسلل إلى حياتهم من كل اتجاه بوسوسته بقدر ما يستطيع، وقد ورد في الحديث :(إنّ الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ؛ قعد له بطريق الإسلام فقال له : تدع دين آبائك ، فعصاه فأسلم ، ثمّ قعد له بطريق الهجرة فقال له : تدع ديارك فتتغرّب، فعصاه فهاجر، ثمّ قعد له بطريق الجهاد فقال له : تقاتل فتقتل فيقسم مالك، وتنكح امرأتك، فعصاه فقاتل) (الكشاف ٢/٧٠-٧١).

وإبليس يتوعّد هنا أن يحاصر بني آدم من جميع الجهات ، كناية عن محاولته الهيمنة عليهم ليذهلهم عما خصّهم الله به من الكرامة ، وهو ما جاء في النص التالي من سورة الإسراء ، التاسعة والأربعين نزولاً ، في الآية الكريمة: **{قال أرأيتك هذا الذي كرّمت علي لئن أخّرتني إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذريّته إلاّ قليلاً}** (الإسراء :٦٢)، والاحتناك مأخوذ من الحنك ــ فكأنه يتوعّد بأن يلتهم بوسوسته بني آدم ، إلاّ قليلاً منهم ، ممن يعصم الله من غواية الشيطان، وهذه صورة أخرى من تفسير معنى الإغواء .

ويرد الله سبحانه وتعالى عليه هذا الوعيد :{ **قال اذهب فمن تبعك منهم فإنّ جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غرورا * إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى**

بربك وكيلا } (الإسراء : ٦٣-٦٥) . وفي هذا الرد توصيف لوسائل الإغواء ، ومدى ما يمكن أن يكون لإبليس من أساليب تخريب الحياة الإيمانية؛ أن يستفزّ الناس ويستخفّهم بصوته، وأن يجلب عليهم، ويصيح بهم بكل ما يملك من خيل ورجْل، وهو كناية عن الضجيج والصخب ، والتسلط ، وقد يدخل في مضمون الصوت والجلبة كل كلام من العبث والجنون، والفحش والبذاء، ونداءات الجنس، وأفلام الانحلال ، وكل هذه أساليب شيطانية تحقق أهداف إبليس .

وحسبنا في هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم : (إنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)، فهو جار إلى المخ مباشرة، [أقول : المعنى في هذا الخبر مجازي، والمقصود به وسوسته لا شخصه]، ويبقى في الآيتين السابقتين قوله تعالى:{**وشاركهم في الأموال والأولاد**}، وقد فسّره الزمخشري بقوله : وأمّا المشاركة في الأموال والأولاد فكل معصية يحملهم عليها كالربا، والمكاسب المحرمة، والبحيرة والسائبة، والإنفاق في الفسوق والإسراف، ومنع الزكاة، والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام، ودعوى ولد بغير سبب، والتسمية بعبد العزى، وعبد الحارث، والتهويد والتنصير، والحمل على الحرف الذميمة، والأعمال المحظورة (ووعدهم) المواعيد الكاذبة من شفاعة الآلهة، والكرامة على الله بالأنساب الشريفة، وتسويف التوبة، ومغفرة الذنوب بدونها، والاتكال على الرحمة وشفاعة الرسول في الكبائر، والخروج من النار بعد أن يصيروا حمماً، وإيثار العاجل على الآجل. (الكشاف ٢/٤٥٧)

[أقول : لا يخلد في النار من الموحّدين إلاّ أحد سبعة هم : ١ـــ من يشرك

بالله، ٢ ــ قاتل المؤمن متعمِّداً. ٣ ــ الفار من الزحف. ٤ ــ العائد إلى أكل الربا بعد تحريمه. ٥ ــ من يتعلّم السحر ويُمارسه. ٦ ــ قاذف المؤمنات المحصنات الغافلات .٧ــ الذي يقسّم الميراث خارج حدود الله(خاصّة من يأكل مال اليتيم)، وقد جاء النص القرآني بذلك، ويشملهم جميعاً حديث السبع الموبقات الصحيح (أنظر كتابي: " مرتكبو الكبائر والخلود في جهنّم". الطبعة المنقّحة والمزيدة] .

وهذه هي أساليب الغواية الشيطانية التي نزلت فيها الآيتان من سورة الحجر، وهي الثالثة والخمسون نزولاً: {**قال ربّ بما أغويتني لأزيّنن لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين * إلاّ عبادك منهم المخلَصين** }(الحجر : ٣٩ - ٤٠) فعبارة (لأزينن لهم في الأرض) تلخيص لما ورد من أساليب الغواية في سورة (ص والأعراف والإسراء) ، وقد جاءت الآيات من سورة النساء المدنية ، وهي الثالثة والتسعون نزولاً ــ وهي أيضاً آخر ما نزل في وصف ألاعيب الشيطان ، جاءت تلك الآيات بمثابة الاستقصاء النهائي لتلك الألاعيب .. قال تعالى: {**إن يدعون من دونه إلاّ إناثاً وإن يدعون إلاّ شيطاناً مريداً * لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً *يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غروراً**} (النساء: ١١-١٢٠)

والنصّ هنا يذكر من أساليب الشيطان (الإضلال) وهو لفظ عام يشمل كل ما مضى ويضيف النص أسلوب (التمنية) بالأماني الباطلة من طول الأعمار

وبلوغ الآمال، ورحمة الله للمجرمين بغير توبة، إلى غير ذلك من الأماني الكواذب ، ثم يذكر ما كانت تعرفه الجاهليّة من تبتيك آذان الأنعام، أي : شق أذن النّاقة إذا ولدت خمسة أبطن، وجاء الخامس ذكراً، وتحريم الإنتفاع بها، ثم يلي ذلك ما كانت تعرفه الجاهليّة أيضاً من (تغيير خلق الله) ، وكان ذلك يتمثل في فقوء عين الفحل الحامي ليعفى من الركوب، كما يتمثل في خصاء بني آدم، وقيل: إن المقصود تشويه الإسلام، وهو فطرة الله التي فطر الناس عليها. وقيل : الوشم وقيل: التخنث . (الكشاف :١/ ٥٦٤-٥٦٤) .

ونسجل هنا بضع ملاحظات :

الأولى : أنّ إبليس فيما توعّد به لم يكن يرسم خريطة الحياة الآدميّة المستقبلة، فما كان بالذي يعلم الغيب، ولكنه كان في موقفه يطفح حقداً، وينطق كذباً وغروراً .. هو صورة مما يتمنى أن يكون، ولسوف نجد أنّ ما ذكره من عوائد الجاهليّة لم يكتب له البقاء، ولم يعد له أثر.. بل تلاشى من الحياة الإنسانيّة تماماً، ولعله استبدل به أساليب أخرى تتناسب مع فنون العصر وجنونه .

والثانية : أنّ تلقينا لمقولات إبليس لا ينبغي أن يخدعنا عن حقيقته ، وهي أنّه غبي ومغرور، بل هو (الغَرور) .. لم يتصف كائن بذلك سواه : { **ولا يغرنكم بالله الغَرور** } (فاطر : ٥)، أي: الغوي الأكبر، وكل مواقفه وأساليبه تدل على ذلك ، ولسوف نزيد هذه الملاحظات عمقاً في حديثنا عن شخصية الشيطان كما تُصورها آيات القرآن .

والثالثة : أنّ ما ذكرنا من أساليب الإغواء الشيطاني ليس إلاّ الشكل

النظري ، والتوعد المغيظ - إن صحّ التعبير - فأما التطبيق العملي فهو في كل عصر بحسبه ، ومع كل إنسان بحسبه أيضاً، والهدف الرئيس أن يزيد من حصيلة جهنم من بني آدم ، حتى لا يصلاها وحده، أو مع أتباعه من شياطين الإنس والجن وحدهم .

ويبقى من هذا الحوار ما جاء من قوله تعالى في سورة (ص) : { **قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإنّ عليك لعنتي إلى يوم الدين**} (ص : ٧٧-٧٨) وقد جاء في مقابلها في سورة الأعراف:{**قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبّر فيها فاخرج إنّك من الصاغرين**} (الأعراف : ١)، كما تكرر هذا الأمر بعدما أظهر إبليس من وقاحة في مخاطبة المولى عزّ وجل : { **قال اخرج منها مذءُوماً مدحوراً** } (الأعراف : ١٨) .

وما جاء في سورة الحجر لا يختلف عما في سورة (ص) :{**قال فاخرج منها فإنّك رجيم * وإنّ عليك لعنتي إلى يوم الدين**} (ص: ٧٧-٧٨) .. وقد استخدم النص الكريم أحد لفظين: (قال فاخرج منها) أو (قال فاهبط منها) وكلاهما يثير سؤالاً عن المقصود بالضمير (منها) ، علام يعود هذا الضمير ، ولم يتقدم ذكر لما يعود إليه ؟... وذلك مع ملاحظة أنّ الأمر موجه إلى إبليس وحده، على خلاف الأمر الآخر الذي جاء في الحوار مع آدم وزوجه بعد الوقوع في الخطيئة : { **قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو**} (الأعراف : ٢٤)، أو: {**قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو**} (طه : ١٢٣) ، أو : { **قلنا اهبطوا منها جميعاً** } (البقرة : ٣٨) .

إنّ المتأمل في الأمر الموجه إلى آدم وزوجه لا يعسر عليه أن يلاحظ عود

الضمير إلى (الجنة) المذكورة في السياق المتقدم من القصّة ، أما الأمر الموجّه إلى إبليس وحده فهو الذي يثير التساؤل، وقد ذهب الزمخشري إلى أنّ المراد هو الهبوط أو الخروج من السماء التي هي مكان المطيعين المتواضعين من الملائكة إلى الأرض التي هي مقر العاصين المتكبرين من الثقلين .. { **فما يكون لك أن تتكبّر فيها** } وتعصي { **فاخرج إنك من الصاغرين** } أي: من أهل الصغار والهوان على الله، وعلى أوليائه لتكبرك ... وذلك أنّه لما أظهر الاستكبار أُلبس ثوب الصغار. (الكشاف ٦٩/٢) .

ويرى صاحب المنار : (أنّ الهبوط هو الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه، أو من مكانة ومنـــزلة إلى ما دونها، ثم قال : والضمير عائد إلى الجنة التي خلق الله فيها آدم، وكانت على نشز مرتفع من الأرض"(المنار ٢٩٦/٨) ولعل بيان الزمخشري أقرب إلى العقل، لعدم تقدم ما يعود عليه الضمير سوى ما يُفهم من المقام، والأمر ليس إهباطاً مادياً .. بل هو نوع من الزجر، كما قال سبحانه وتعالى :{ **إذهب فمن تبعك منهم** ...}، ولأنّ الجنة التي وردت في الحوار مع آدم قد أسكنه الله إياها بعد صدور هذا الأمر إلى إبليس ، وقريب من ذلك ما ذكره صاحب المنار عن الحافظ بن كثير قال : (يقول تعالى لإبليس بأمر قدري كوني : فاهبط منها بسبب عصيانك لأمري، وخروجك عن طاعتي، فما يكون لك أن تتكبّر فيها ؛ قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنـــزلة التي هو فيها من الملكوت الأعلى (**فاخرج إنك من الصاغرين**) .. أي : الذليلين الحقيرين .. معاملة له بنقيض قصده ، ومكافأة لمراده بضده ، فعند ذلك استدرك اللعين ، وسأل النظرة إلى

يوم الدين). (المنار ٨/ ٢٩٧) ، وعلى نسق هذا الأسلوب تجري تعبيرات مماثلة على ألسنة العوام ، لا تراد حرفيتها .. بل المراد مضمونها الموقفي ، كقول العامة: (اطلع منها وهي تعمر)، فالمقصود هنا مجرد الانصراف عن الموضوع وعدم التدخل فيه. ولقد يُعين على تبيّن المراد بالأمر الموجّه إلى إبليس (اهبط منها) ـــ أنّه اقترن في آية الأعراف بما يفسّر هذا المراد، وهو قوله تعالى : { **فاخرج إنك من الصاغرين** }، و(الهبوط) حركة رأسيّة من أعلى إلى أدنى ، و(الخروج) حركة أفقية من مكان إلى آخر، والجمع بين البعدين على المستوى المادي متناقض ، فلم يبقَ إلاّ المستوى الأخلاقي، وهو الهبوط من قمة الطاعة إلى درك التمرّد والخروج من حرم الرضوان إلى حمأة الفسوق والعصيان ، ولذلك يمكن تفسير الهبوط بالخروج. أن يُقال : إنّ الأرض أقل من السماء فقول لا موضع له ، لأن الكون كله خلق الله وصنعته، وهو مجال لأمره سبحانه، ولله الخلق والأمر، والأماكن تشرف بأنها صنعة الخالق ، لا بمن تعلّق بها من المخلوقات طائعاً أو عاصياً، فاستوى بذلك الظرف والمظروف ، وقد يخص الله بعض خلقه ببعض الأماكن، كما يخص بعض الأماكن ببعض خلقه، وكل ذلك في إطار الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

إنّ الله سبحانه لا يكره خلقه لذواهم ، بل يكره منهم أفعالهم التي نهاهم عنها، ويدعوهم إلى مزايلتها، مزايلة لإبليس الذي افتضح أمره، وتعرّى من ملابسه، وأغرقهم في وساوسه، كما أنّ الله يدعوهم إلى فعل المأمورات حتى يحبّهم، ويزيد في الإحسان إليهم، فمن أطاع الله فقد ارتقى في درجات الملأ الأعلى صعداً، ومن عصى الله فقد ارتكس في دركات العذاب حدراً، وبئس

المصير، وهذا هو الأصل، أو هي السنة التي عامل الله بها خلقه المكلفين بطاعته منذ كان التكليف.

الفصل الخامس

بـــين إبليس وآدم في الجنّة

يبدأ الفصل الخامس من الحوار في قصة الخلق، بعد افتضاح أمر إبليس ، وإعلانه السافر عن عداوته لآدم وذريته - يبدأ هذا الفصل بتوجيه الله لآدم أن يسكن هو وزوجه (حواء) الجنة، وأول آية تحدّثت عن هذا التوجيه هي آية الأعراف : {**ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا منها حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**} (الأعراف : ١٩). ولا مناص من التسليم بأنّ آدم هو ابن الأرض، وقد كانت حياته قبل الاصطفاء وبعد الاصطفاء على الأرض، وقد اختار الله للزوجين بقعة رائعة من البقاع المثمرة، توفر فيها الغذاء، والكساء، والماء والظل، وسائر مقومات الحياة الرخيّة، وقال له :{ **إنّ لك ألاّ تجوع فيها ولا تعرى * وأنكّ لا تظمأ فيها ولا تضحى** } (طه : ١١٨-١١٩) ، وكان لهذه الجنة (أو الحديقة) وظيفتان :

الأولى : أن يمارس فيها آدم أساسيات الرسالة التي اصطفاه الله لتبليغها إلى ذريته،[أقول : الحديث هنا عن ذريّة آدم سابق لأوانه، إذ لم يكن آدم وحوّاء قد اكتشفا سوآتهما بعد، ولم يكونا يعرفان معنى الجنس، وبالتالي فلم يكونا قد أنجبا بعد، فما هذا الهذيان؟ وما هذا الحديث عن تبليغ ذرّيتهما في الجنّة، وآدم لم يُكلَّف بشيء بعد ؟! قال تعالى: {**فتلقّى آدم من ربِّه كلمات فتاب عليه إنَّه هو التوَّاب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعاً فإمَّا يأتينَّكم مني هُدى فمن تبع هُداي فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون**} (البقرة : ٣٧ ، ٣٨)] ولا سيما

التكاليف الأخلاقية، والتعاليم الدينية المتصلة بالدنيا والآخرة، وهو ما يبدو متألقاً في قصة ابني آدم (هابيل وقابيل) في سورة المائدة، ولا ريب أنّ الولدين قد تلقيا عن أبيهما كل ما دار في حوارهما من تعاليم كالتقوى والفجور، والتوحيد والشرك، والحلال والحرام، والعدل والظلم، والجنة والنار، وفي هذه الجنـّة الأرضية كانت الخطيئة التي سوف نتعرض لمناقشتها بعد قليل .

[أقول : آدم وحواء لم يُنجبا قابيل وهابيل في الجنّة، وإنّما أنجباهما على الأرض بعد هبوطهما إليها من الجنّة، وبعد أن بدت لهما سوآهما،لا قبل ذلك]

الثانية : أنّ هذه الجنة كانت بمثابة الملجأ الآمن الذي يعزل آدم وزوجه بعد الاصطفاء ـــ عن سائر البشر، خارج نطاق التكليف الديني . ريثما تخلى الساحة الأرضية من وجودهم،[أقول : هذه أوهام تتبعها أوهام ، وقد سبق أن قلت : إنَّ أول بشر هو آدم عليه السلام، وهو أبو البشر جميعاً، وأمّا أشباه البشر المفسدون في الأرض فقد كانوا قد انقرضوا منذ زمن بعيد].. إذ إنّ الأرض لن تكون بعد ذلك إلاّ لآدم وذريته ، وهي بداية العهد الإنساني .

لقد خلق آدم من تراب الأرض، ليعمر هذه الأرض، وذلك قدر الله منذ شاء خلق البشر، وهم أصول آدم .

[أقول : هذه أغاليط، وكلام يُطلقه الدكتور دون دليل، أمَّا الصواب فهو ما بيَّنته آيات القرآن المُحكمات؛ أنَّ آدم هو أبو البشر، وأصله من تراب، بل من الطين بعد تجفيفه (لا ندري كيف)، ولم يكن على الأرض بشر قبله بتاتاً].

وما أشبه ما حدث آنذاك، حين عزل آدم وزوجه في الجنة، بما حدث بعد ذلك إبان الطوفان، فقد حمل نوح في فلكه من كل زوجين اثنين، وأهله معه،

ثمّ تولّى الطوفان تطهير الأرض من المشركين وآثارهم، وقاد نوح الفلك حتى{**استوت على الجوديّ وقيل بعداً للقوم الظالمين**}، لقد كان بدء العهد الإنساني يتطلب إخلاء الأرض من المفسدين وسفاكي الدماء، وهو ما تولّت القدرة الإلهية تنفيذه فترة سكنى آدم وزوجه في الجنة .

[أقول : لو كان حصل لآدم وزوجه ما حصل لنوح وقومه لأخبرنا الله به، ولما ترك بيانه لأهواء المنظّرين والمشعوذين ، فالقرآن جاء تبياناً لكلِّ شيء].

على أنّنا ينبغي ألاّ تفوتنا ملاحظة ظهور زوج لآدم، لم يرد ذكرها قبل ذلك،[أقول: وماذا لو ظهرت قبل ذلك ؟ وماذا يترتّب على ذلك ؟ وقد ثبت أنّ ترتيب السور القرآنيّة بحسب النـــزول عمل اجتهاديّ مُختَلَفٌ فيه؟!] وهو ما يعني أنّ آدم كان متزوجاً قبل الاستخلاف والاصطفاء، وذلك ما يدل عليه سياق القصة. يقول الشيخ رشيد رضا : (والآية تدل على أنّ آدم كان له زوج .. أي : امرأة ، وليس في القرآن مثل ما في التوراة من أنّ الله تعالى ألقى على آدم سباتاً، انتزع في أثنائه ضلعاً من أضلاعه، فخلق له منه حواء امرأته، وإنّها سمّيت امرأة (لأنّها من امرئ أخذت)، وما روي في هذا المعنى فهو مأخوذ من الإسرائيليات، وحديث أبي هريرة في الصحيحين : (فإن المرأة خلقت من ضلع ..) على حد { **خلق الإنسان من عجل** } (الأنبياء : ٣٧) ، بدليل قوله : (فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء) .. أي : لا تحاولوا تقويم النساء بالشدّة) (المنار ٨/ ٣٠٨). [أقول : زوج آدم (حوّاء) خُلقت من آدم، لا ندري كيف ، وربَّما كان ذلك بطريق الاستنساخ، مع تغيير الجنس، والله أعلم]

وعلى أيـــّة حال فإنّ اختيار القرآن إبراز وجود الزوج كان على أعتاب الجنّة، ودخل الزوجان الجنّة أو السكن الذي اختاره الله لهما ليبدءا حياة لا يدريان من ملامحها إلاّ ما أذن الله لهما بمعرفته، فليست هذه الجنّة نهاية المطاف، ولكنها مرحلة سوف تشهد أحداثاً وفصولاً في قصة الحياة على هذه الأرض .

على أنّ من الضروري أن نشير هنا إلى أنّ دلالة لفظ : (الجنّة) على (البستان الأرضي) هي الدلالة الحقيقيّة والأصليّة، وفي مقابلها دلالة اللفظ على (دار النعيم الأُخروي)، وهي دلالة مجازيّة، جاء بها القرآن،كما جاء بالدلالة الحقيقيّة، ومن ذلك ما جاء في سورة (القلم) وهي السورة الثانية نزولاً – من قوله تعالى:{**إنّا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنّة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين * ولا يستثنون**} (القلم :١٧-١٨)، وهو أول استعمال للفظ (الجنـــّة) في القرآن، فجاء به على دلالته الأصلية (البستان)، ثم ثنّى بذكر جنّة الآخرة في نفس السورة، في قوله تعالى:{**إنّ للمتقين عند ربهم جنات النعيم**}(القلم :٣٤) وكأنّ القرآن قصد إلى إثارة المقابلة بين (جنة) الدنيا، وهي عرضة للنوازل، و(جنات النعيم) في الآخرة ..التي ينالها المتقون، وذلك في فترة مبكرة جداً من نزول الوحي القرآني، فسورة القلم هي ثاني سور القرآن نزولاً .

ونعود إلى الجنة وساكنيها اللذين زودهما ربّهما بكل ما يلزمهما من تنبيهات وتحذيرات من حقد إبليس عليهما، ولكن هيهات لآدم وزوجه، وهما حديثا عهد بالتكليف ، قليلا الخبرة بألاعيب العدو وأخلاقه الوضيعة .. هيهات لهما أن يقاوما ما واجها معه من إغراء؛ أثار شهيتهما، وحرك غرائزهما.

[أقول: هذا اعتراف من الدكتور يُناقض ما قاله سابقاً من وجود ذريّة

لأدم وهو في الجنّة].

لقد كان توجيه الله لهما:{ **كُلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة** } وما أعظم ما أباح لهما من نِعم، وما منحهما من الحرّية ، بالقياس إلى ما منعهما منه، وجاء الشيطان يوسوس لهما، صارفاً لهما عن نعم الله الوفيرة والمباحة، مركّزاً على تلك الشجرة المحظورة، وهي معيار الطاعة والمعصية .. جاء الشيطان قائلاً لهما: { **ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين** }(الأعراف :٢٠) ، كانت القضيّة واضحة، تتعلق بتوجيه الله سبحانه لهما ألاّ يأكلا من تلك الشجرة، وكان هدف الشيطان أن يأكلا من الشجرة، وأن يفعلا ذلك بأي ثمن من الكذب والخداع، فهو إذن التصادم بين أمر الله وهدف الشيطان، وقد بدأ يمارس مهمة الإغواء، وينفذ وعيده الذي أعلنه{**لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين**}، ولا ريب أنّ تلك الشجرة كانت مغرية، تدعو إلى تجربة مذاقها، وجاء إبليس بكلام كله كذب، فربط بين الشجرة والارتقاء إلى درجة الملائكيّة أو تحقيق الخلود، وكلا الأمرين مطمح لآدم وزوجه، لقد علما أنّ لله ملائكة مقربين، مخلوقين من النّور، لهم عند الله الدرجات العلى،كما علما أنّ كل نعيم لا محالة زائل بالموت، كما فنيت أجيال قبلهما، ولا مهرب من الموت إلاّ بتحقيق الخلود، وما أعزه مطلباً، وما أهونها وسيلة، أن يأكلا من الشجرة .. مجرد مذاق .. ولن يكلفهما ذلك إلاّ أن يمدا أيديهما إلى ثمرها، وزادهما تعلّقاً بالدخول في هذه التجربة أنّ اللعين أخذ يقسم لهما بالله إنّه يريد صالحهما وإنّه ناصحٌ لهما ... {**وقاسمهما إنّي لكما لمن النّاصحين**} (الأعراف:٢٠) وهو كاذبٌ في كلامه،

كاذبٌ في قسمه،ولكنهما لم يتصورا أن يوجد من يجرؤ على الكذب بهذه الصورة الفاجرة، حتى ولو كان إبليس، وغاب عنهما تماماً في هذه اللحظة تحذير الله لهما : {**فقلنا يا آدم إنّ هذا عدوٌ لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنّـــة فتشقى**} (طه :١١٧)، وعلا صوت الشيطان في أذنيهما يدعوهما أن يأكلا من الشجرة، {**فأكلا منها**} في لحظة ذهول وضعف، وكانت القشّة التي قصمت ظهر البعير .. كانت الخطيئة التي جعلتهما من الظالمين ... يا لهول الموقف !!

أيـــّة شجرة هذه التي كان الاقتراب منها سبباً في تتابع تلك النتائج الهائلة في حياة الإنسان ؟!

لسنا نميل إلى التعويل على معرفة نوعها، أو أثرها، فكل ذلك لا يهم إذا ما قيس بموقف معصية الإله العظيم، رغم التحذير والتذكير، يقول الأُستاذ سيد قطب : (ويسكت القرآن عن تحديد هذه الشجرة، لأنّ تحديد جنسها لا يزيد شيئاً في حكمة حظرها ، مما يرجح أنّ الحظر في ذاته هو المقصود، لقد أذن الله لهما بالمتاع الحلال، ووصاهما بالامتناع عن المحظور، ولا بدّ من محظور يتعلم منه هذا الجنس أن يقف عند حد، وأن يدرب المركوز في طبعه من الإرادة التي يضبط بها رغباته وشهواته، ويستعلي بها على هذه الرغبات والشهوات، فيظل حاكماً لها.. لا محكوماً بها كالحيوان، فهذه هي خاصيّة (الإنسان) التي يفترق بها عن الحيوان ، ويتحقق بها فيه معنى (الإنسان) (الظلال ٨/ ١٢٩) .

وهكذا – رغم التحذير الإلهي – سقط الزوجان في شرك الغواية : {**فدلاّهما بغرورٍ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق**

الجنّـــة} (الأعراف :٢٢)، وعبارة القرآن (فدلاهما بغرور) تعني أنّه أوقعهما في الغرور والانخداع حين استدرجهما إلى الحضيض ، والتدلية : الإسقاط إلى الأسفل، وتلك هي النتيجة ألاأخلاقـيّة التي قصد إليها الشيطان؛ أن يكشف عن ضعف آدم وزوجه، لأنّهما - في رأيه - لا يستحقان التكريم الذي خصهما الله به ، وبذلك لم يعد الشيطان وحده هو المتورط في المعصية .. بل (استوى الماء والخشبة)، فهما في الخطيئة سواء، غير أنّ وصف القرآن للآثار الماديّة للأكل من الشجرة يستأهل الوقوف عنده والــتأمل في واقعه المعقول .

لقد تناقل المفسرون رأياً واحداً عن السوأة ، وهي : العورة ، وقالوا - دون اختلاف - إنّ نتيجة الأكل من الشجرة كانت ظهور عورة كل منهما لنفسه ولصاحبه، وكانا من قبل لا يريان ذلك لمواراة سوآتهما عنهما، والغريب أن يقول صاحب المنار: (والأقرب عندي أنّ معنى ظهورها لهما أن شهوة التناسل دبّت فيهما بتأثير الأكل من الشجرة، فنبهتهما إلى ماكان خفي عنهما من أمرها، فخجلا من ظهورها، وشعرا بالحاجة إلى سترها، وشرعا يخصفان، أي : يلزقان، أو يضعان ويربطان على أبدانهما من ورق الجنّـــة) (المنار ٨/ ٣١١) .

وكل ما يُقال في هذه المسألة هو محض اجتهاد يسمح به أسلوب الآية ووصفها لما حدث، وعلى ذلك يجوز أن نجتهد في فهمها انطلاقـاً من الملاحظات الآتية :

١ ـــ أنّ القرآن ذكر (السوأة) بالجمع مضافاً إلى مثنى ، وهو ما يعني أنّ ما بدا منهما ليس عورتيهما .. بل هي عورات كثيرة، ولو كانت العورة الغليظة هي

المقصودة لقال النص الكريم (بدت لهما سوأتاهما) لكن الجمع يوحي لنا بمعنى آخر.

[أقول :كل واحد (آدم، وحوّاء) له سوءتان ــ القبل والدبرــ والمجموع أربع سوءات، فلا وجه هنا لاعتراض الدكتور، فإذا علمنا أنّ العورة غير السوءة، وأنّ عورة الرجل من تحت السرّة إلى ما فوق الركبة، وعورة المرأة جميع بدنها ما عدا الوجه والكفّين، وأنّ العورة مكانيّة، تبيّن لنا وهاء ملاحظة الدكتور . أنظر كتابي : "الرأي الصواب في الزينة والحجاب"]

٢ ــ افتراض أنّهما فوجئا برؤية ما لم يكونا يريانه مخالف لمعنى الزوجيّــة، وسنّة الله فيها، وآراء المفسرين قائمة على افتراض أنّهما أوّل زوجين في تاريخ البشريّة، وهو أمر أثبتنا خلافه .

[أقول: لم تُثبت يا دكتور شيئاً، بل هما أول زوجين (إنسانين)، وهما أصل جميع البشر] فقد كان الاتصال الجنسي بين الذكور والإناث - منذ ملايين السنين - بلا قيد أو شرط خلال العهد البشري، حيث لم يكن دين ولا تكليف .

[أقول : كان هناك اتصالاً حيوانيّاً غريزيّاً، ولم يكن هناك عهد بشري، ولا بشر، بل وحوش لا تمت إلى آدم ولا إلى البشر بصلة ، أمّا سكّان الجنّة آنذاك (آدم وحوّاء)، وهما من خُلقا للتو، فلم يرد في القرآن نصّ واحد يدلّ على أنّهما ألبسا شيئاً من اللباس، بل كل الشواهد القرآنيّة تشير إلى أنّهما كانا عراة من الثياب المعروفة لنا، بدليل قوله تعالى:{**فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة**} فالآية تقول "عليهما"، أي على عموم الجسد، ولم تقل يخصفان

على سوآتهما، وبدليل أنّ الله أنزل لهما(ولذرّيتهما) لباسهما بعد إهباطهما من الجنّة إلى الأرض، قال تعالى :{**يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً**} (الأعراف :٢٦)].

٣ ــ أنّ آدم لم يكن يعيش في الجنّــة عارياً بدائيّاً، وهو ما قرره القرآن في قوله تعالى:{**يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنّــة ينــزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما**} (الأعراف : ٢٧)

[أقول: لم يرد نصّ يبيِّن نوع اللباس المقصود في هذه الآية، والقول بأنّهما فطنا لغريزة الجنس، وربطا بينها وبين أعضائهما التناسلية فاستحييا من بروزها هو الأقرب لمنطوق النص، والله تعالى أعلم].

٤ ــ قوله تعالى :{**وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّــة**} يؤكد أنّ الضمير في (عليهما) لا يعود على (السوءات) ، وإلاّ لقال : (عليها) بل إنّ عائد الضمير هو (آدم وحواء) بشخصيهما.

[أقول: نعم هذا صحيح، والنص لا يمنع أن يكونا بدءا بستر سوآتهما أولاً].

والصورة كما تبدو لنا في موقف الزوجين صورة هائلة :

فقد شعرا حين ذاقا الشجرة أنّهما خالفا أمر ربهما، وقد حذرهما من الشيطان تحذيراً صارماً، ومعنى ذلك غضب الله عليهما، وهو ما هيج مشاعرهما، ووضعهما في مواجهة عاقبة لا يحتملانها، وركبهما النّدم من هذا التعرّي أمام الله، فأخذا يحاولان التخبؤ والاستتار حياءً منه وخجلاً، وذلك بأن يتخذا من ورق الجنّــة غطاء يسترهما، وكأنّهما يهيلان عليهما هذا الورق.

وبينا هما في هذه الحال الرهيبة {**ناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما**

الشجرة وأقل لكما إنّ الشيطان لكما عدو مبين}، وكان هذا النداء بمثابة حبل الإنقاذ لهما فتعلقا به، وقالا: {**ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**} (الأعراف : ٢٣) .

وهذه الكلمات هي التي أشارت إليها الآية الكريمة : { **فتلقّى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنّه هو التواب الرحيم** } (البقرة : ٣٧) .

وقد عبّر القرآن عن الموقف كله بقوله : { **وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى** } (طه : ١٢١-١٢٢) .

وأرجع سبب الوقوع في الغواية إلى أنّه لم يكن عامداً .. بل ناسياً : { **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً** } (طه : ١١٥) .

ويمكن تفسير نسيان آدم من قبل بأنّه داخل في مضمون الجهالة في قوله تعالى: {**إنّما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب**} (النساء : ١٧) .

وهو موقف يختلف عن موقف إبليس الذي علم السوء، وفعله، وأصرّ عليه ، ولذا استحق آدم وزوجه أن يتوب الله عليهما .

وعند هذا المقطع من تسلسل الأحداث اكتملت معادلة الحياة الدنيا بكل عناصرها : (الأمر - الوسوسة - المخالفة - النّدم - المغفرة) ، فآن الأوان لنـــزول آدم إلى معترك الحياة الدنيا، وقد ترسخت في عقله ونفسه تلك المعادلة، بعد أن هيئت له الساحة، وأخليت الأرض من المفسدين وسفاكي الدماء،ولم يعد فيها سوى الإنسان الجديد، (آدم : أبو الإنسان، وحواء : أمه) في مواجهة إبليس عدوهما اللدود ، وقامت الحياة على هذا العداء المتبادل :

{ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون } (الأعراف : ٢٤-٢٥) .

ولسنا بحاجة إلى تكرار أنّ الأمر بالهبوط مرداف للأمر بالخروج .

الفصل السادس

اللغة والأسماء القديمة

الله

الملائكة – آدم – إبليس – الشيطان

الله : كان القرآن ــ ولا يزال ــ الوثيقة اللغوية التي نعتمد عليها في معرفة الأسماء التي وردت في قصة الخلق، وما يتصل بها، وأقدم الأسماء على الإطلاق هو لفظ الجلالة (الله) ، فهو الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية، والمفروض أنّه قبل ظهور (الإنسان) ــ لم يكن البشر يعرفون شيئاً سوى ما تهيئه لهم طبيعة مرحلة النمو التي يعيشونها ، فقبل أن يكون العقل ، وقبل أن تتكون اللغة لم يكونوا يدركون شيئاً عن حقيقة الحياة ، وطبيعة الوجود .

[أقول وأكرر: لم يكن أولئك بشراً، بل كانوا همجاً فيهم بعض الشبه من حيث الشكل بالبشر] إلى أن كان اصطفاء (آدم) فعرفت الخليقة خالقها، بدءاً من معرفة آدم لربه، وفي نفس الموقف برزت أسماء بعض المخلوقات : الملائكة ــ البشر ــ آدم ــ إبليس ، ولا ريب لدينا من أنّها أسماء قديمة، استخدمت قبل أن تظهر اللغة العربية إلى الوجود [أقول : لا دليل على ذلك] وقد وردت هذه الأسماء في كلام الله ضمن حديث القرآن عن قصة الخلق، أولى قصص الوجود البشري والإنساني معاً.

ونحن لا نتصوّر أنّ هذه الأسماء كلمات مأخوذة من العربيّة للتعبير عن

شخصيات القصة، فقد كانت القصة قبل أن تكون اللغات بالشكل المعروف ، نوعاً وعدداً ، وقد عرفت تلك الشخصيات بهذه الأسماء التي جاءت في كلام الله، وهذا هو السرّ في شيوعها في كثير من اللغات الإنسانية بصور نطقية متقاربة ، فلفظ الجلالة : (الله) معروف هكذا في اللغات السامية القديمة ، ومنها العربية ، كما تعرفه اللغات الأوروبية .

ولقد حاول الاشتقاقيون أن يردّوا لفظ الجلالة (الله) إلى جذر اشتقاقي، فقال كثير منهم إنّه مُشتق من (أَلِهَ) بمعنى : فَزِعَ ، أو بمعنى : تحير، أو بمعنى : عبد، أو بمعنى : أقام، وقال بعضهم : إنّه من (وَلِه) بمعنى : أَحَبّ، وقال غيرهم : إنّه من (لاه) بمعنى احتجب أو ارتفع .

وأغلق بعضهم باب الاشتقاق وقال بأنّه غير مشتق .

وفريق ثالث قال : بأنّه غير عربي ، فهو سرياني ــ أو عبراني .

والأكثرون على أنّه عربي .

والذي نراه أنّ ذلك كله خبط في ظلماء مدلهمّة، لأنّ الله سبحانه أخبر عباده بأنّه (الله) وطلب منهم أن يعبدوه ويوحدوه لأنّه (الله) ، والخطاب هنا ليس عربياً لقوم عرب .[أقول : بل هو عربي، خوطب به العرب بنصِّ القرآن] بل هو خطاب إلهي كوني صدر عن خالق الكون والإنسان ، واللغات ، فهو إذن ليس اسماً صاغته ألسنة المخلوقات .. بل تلقته هذه الألسنة من الملأ الأعلى عَلَماً على ذات المعبود بحق، واستوعبته العربية، كما استوعبته سائر اللغات التي تلقت رسالات السماء ، ونطقت به حسب قوانينها ، وتقاليدها ، وقدراتها النطقية . فلا ينبغي أن يدرج في معجم العربية على أنّه كلمة من كلماتها .. بل

على أنّ اللسان العربي نطقه هكذا كما لقنه، وكما نطقه غير العرب، وقد اخترع العبرانيون إلوهيم، أو يهوه، كما ورد إيل، وإلّ، ولكن يبقى (الله) ، وتتلاشى كل الاختراعات أو الواردات فلفظ الجلالة هو أصل الأسماء، وأولها، ومصدرها كما أنّه مصدر اللغات والألسنة، وصدق الله: {**ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم**} (الروم : ٢٢) وهو القديم، وما سواه محدث وهو قديم بذاته، وباسمه قبل أن تكون اللغات .. بل قبل أن تكون الكائنات .

الملائكة : وأمّا عن (الملائكة) فهي كلمة إسلامية أيضاً .. لم تُستخدم في العربية قبل أن يرد ذكرها في بداية الوحي [أقول: هذا مجرّد تخمين، إذ ما أدرى الدكتور أنّها لم تُستخدم في العربيّة قبل ذلك ؟ وكيف يجزم بذلك دون دليل؟!]، في سورة المدثر، وهي رابع سور القرآن نزولاً، وقد ردّها اللغويون إلى الجذر (ألك)، الذي اشتقت منه كلمة (مألك) ، ثم حدث قلب مكاني ، فصارت (ملأك)، ثم جمعت فصارت (ملائكة) ، ولا دليل على استخدامها في العربية قبل القرآن .

وأقطاب (الملائكة)، وفي مقدّمتهم(جبريل وعزرائيل)، جاءت تسمياتهم مركبة، وهي شائعة في كثير من اللغات، فكلمة (جبرائيل) جزؤها الأول (جبر) بمعنى (رجل) ، وكلمة (عزرائيل) جزؤها الأول (عزر) بمعنى (قوة)، وهما مضافتان إلى لفظة (إيل).. أي: الله، وكأن الأول يعني : (رجل الله) ، والثاني هو (قوة الله) ، وهي ترجمة بقدر ما تسعه اللغة الإنسانية، وإلاّ فليس في الملائكة رجال أو نساء ، ولا يليق أن تحصر قوة الله في ملك مخلوق واحد ..

بل إنّ التجريد هنا غير لائق (إذ إن القوة ومنها : القوي، من أسماء الله وصفاته الحسنى) وليست ملكاً بعينه، خاصّة وأنّ اختصاص توفّي الأحياء معزوّ في القرآن إلى الله سبحانه : {**الله يتوفى الأنفس**} (الزمر: ٤٢) ، ومعزوّ إلى رسل الله من الملائكة : {**حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا**} (الأنعام : ٦١)، ومعزوّ إلى ملك الموت { **قل يتوفّاكم ملك الموت الذي وُكّل بكم** } (السجدة : ١١) .. أي : إنّ قوة الإماتة ليست محصورة في ملك بعينه.

[أقول : بل هي وظيفة ملك الموت وأعوانه من الملائكة، بأمر الله تعالى (المتوفّي الحقيقي)] .

وعلى أيّة حال فإنّ القرآن لم يذكر من أسماء الملائكة سوى (جبريل وميكال)، ولسنا مكلفين بترجمة معاني هذه الأسماء ، أو التعامل معها على أساس معانيها، فالأسماء لا تعلل، إنما هي كتل صوتية لا يُلتفت إلى مكوناها .

إنّ ذلك يعني أنّ هذه التسميات كانت قبل اللغة العربية .. بل هي فعلاً قبل اللغات البشرية، وأنّ ما حاول الاشتقاقيون أن يستخرجوه من المعاني في ضوء الربط بين الاسم ، وجذره اللغوي المفترض ـــ هو في الحقيقة افتعال يقلب القضية رأساً على عقب !!

آدم : ومثل (ابليس) في هذا مثل (آدم)، حاول الاشتقاقيون أن يؤصلوا له في (أديم الأرض) الذي خلق منه ، والحق ـــ في نظرنا ـــ أنّ أديم الأرض اشتق من (آدم) الذي يعني (الإنسان) بالمعنى العام في كثير من اللغات ، وكان مرتبطاً دائماً بالتراب ، والطين ، فأطلق على مادته التي خلق منها : أديم ، على سبيل الاشتقاق من الجوامد ، وهو مجاز مرسل علاقته الأصلية والفرعية، إن

صحّ التصور .

ويمكن أيضاً أن يقال : إنّ (الأدم) بمعنى : الجلد .. مشتق كذلك من(آدم)، ويطلق على الجلد : البشرة، وللبشرة علاقة لفظية بالكلمة القديمة الأولى في ملحمة الخلق، كلمة (بشر) التي تفرّدت بها العربية ــ كما سبق أن قلنا .

[أقول : ويمكن إضافة كلمة " البشر" وهو ما يظهر على بشرة وجه الإنسان من تعابير الفرح والسرور وغيرهما، وهي صفة في الإنسان غير موجودة في غيره من المخلوقات، وقد جاء في كتاب :"المفردات في غريب القرآن "للأصفهاني: بشر: البشرة ظاهر الجلد، والأدمة باطنه ، كذا قال عامّة الأدباء، وجمعها بشر وأبشار، وعُبّر عن الإنسان بالبشر اعتباراً بخلوّ جلده من الشعر، بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الشعر أو الوبر، واستوى في لفظ البشر الواحد والجمع، وثُنّي فقال تعالى : { **أنؤمن لبشرين مثلنا** } وخُصّ في القرآن كلّ موضع اعتبر من الإنسان جثّته وظاهره بلفظ البشر، نحو : {**وهو الذي خلق من الماء بشراً**} وقال عزّ وجل: { **إنّي خالق بشراً من طين** }، وأبشرت الرجل وبشّرته أخبرته بسارّ بسط بشرة وجهه، وذلك أنّ النفس إذا سُرّت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر.أ.هـ].

إبليس: أمّا كلمة (إبليس) فهي موجودة في لغات قديمة كاليونانية (ديابولوس) وهي كلمة تبدو مركبة من جزءين : (ديا + بولوس) ، وقد أخذت اللغات الأوروبية، باعتبارها أحدث من اليونانية ــ الجزء الأول من التركيب ــ (ديا) ونطقتها (ديابل Diable) ، وأخذت العربية وأخواتها الساميات الجزء الثاني

من التركيب كما هو (إبليس) مع تنوع في طريقة النطق ، هذا ما قرّره محقق الزينة .

ولا يبعد في تقديرنا أن تكون الكلمة من عطاء القرآن للعربية .. وهي أقدم اللغات السامية .. فلم نعثر على ما يشهد بوجودها قبل الإسلام في لسان العرب .. بل إنّ الكلمة ليس لها مقابل لفظي أو دلالي في العبرية ، وقد وردت لأول مرة في القرآن في سورة (ص) .. أي : في سياق قصة آدم، وذكر المعجم الوسيط أنّ جمع الكلمة: أبالس ، وأبالسة.

أمّا .. كيف عالج أهل اللغة لفظها ومعناها ؟!

فقد قال اللغويون العرب : إنّه على وزن إفعيل، مشتق من أبلس الرجل: إذا انقطع و لم تكن له حجة، ويُقال : هو من يَئِس، قالوا في تفسير قوله تعالى : { **فإذا هم مبلسون** }، قال : يائسون، قال ابن عباس : (لما لعنه الله أبلس من رحمته) ، وقال الفراء : (مبلسون ، يعني : في العذاب) ، وقال: (المبلس: اليائس من النجاة والقانط ، وهو أيضاً المنقطع الحجة ..).

ويُقال أيضاً : أبلس ، إذا سكت ولم يُحِرِ جواباً ... ، ويقال : المُبْلس : الحزين النادم ، وقد أبلس الرجل إبلاساً ، أي : اكتأب وحزن ، وفي قوله تعالى : { **يبلس المجرمون** } ..قال: الإبلاس : الفضيحة ، وقال غيره : الإبلاس : الخشوع .. { **فإذا هم مبلسون** } : قال : خاشعون ، وقال غيره : المبلس : المتروك المخذول.

[أقول : هذه قضايا لغويّة لا علاقة لها بخلق آدم ، ووجودها هنا لا يُفهم منه سوى التمويه، ومحاولة إعطاء انطباع معيّن يُغطّي على ما سبق من محاولات

الدكتور إثبات ما لا سبيل إلى إثباته].

قال صاحب الزينة : (وكل هذه المعاني قد جاءت في الإبلاس ، وهي قريبة بعضها من بعض ، فكأن إبليس هو مأخوذ من ذلك ، لأنه افتضح بعصيانه، فيئس من رحمة الله، وحزن وندم ، فصار مخذولاً متروكاً ذليلاً منقطع الحجة، ساكتاً، فقيل له : إبليس) (الزينة ١/١٩٢ ــ ١٩٣)

[أقول : بل كان اسمه إبليس قبل تمرّده، وقبل كفره، قال تعالى : {**فسجد الملائكة كلّهم أجمعون . إلاّ إبليس استكبر وكان من الكافرين**} (ص:٧٤)]

هذه ــ كما قلنا رؤية الاشتقاقيين العرب ، ويكفي أن نلاحظ خطأ استنباطها حين رأى صاحب الزينة أنّه قيل له : (إبليس) بعد أن حدث له ما حدث، على حين أنّ (إبليس) كان قبل أن يحدث شيء من ذلك !! وإن أطلق عليه بعضهم قبل افتضاحه (عزازيل) ولم يثبت ذلك !!

ويرى علماء الغرب أنّ الكلمة قد دخلت محرّفة في العربية من اليونانية : (ديابولوس)، وجاء في المعجم الكبير ١/١٦١: أنّ العرب حذفت (ديا) في أول الكلمة، وتوصلوا للنطق بالساكن بزيادة ألف في أوله، وأنّه لم يرد ذكره في المعاجم الآرامية والسريانية، يقول محقق الزينة : (فقد يكون العرب أخذته من اليونانية مباشرة باتصالهم بنصارى العرب الموالين للكنيسة البيزنطية، كما أشار إليه جفري) (الزينة : السابق ــ هامش).

[أقول : إبليس اسم جاء في كلام ربّ العالمين، وقد فهم العرب مدلوله، وآمنوا بكل ما جاء في وصفه، وأنّه عدوّ الإنسان الأوّل، بما يدلّ على أنّ اسم إبليس عربي أو كان قد عُرّب قبل نزول القرآن ، والله أعلم.]

ونقول بعد هذا كله ما سبق أن قلناه من أن ذلك افتعال يقلب القضية رأساً على عقب ، والذي نراه هو أنّ اللفظ قديم ، مستمد أساساً من علم الله بالقضية ووقائعها، وعناصرها، وأنّ هذه الألفاظ دخلت اللغات الإنسانية عن طريق الأديان والكتب المقدسة ، بأيّة لغة كانت هذه اللغة، وقد يتفق هذا مع ما قاله أبو عبيدة من أنّ اللفظ اسم أعجمي، غير أنّ الأعجمية تعني في اصطلاح العلماء: أنّ اللفظ (إبليس) مستمد من لغة غير عربية، وهو ما نحاول هنا أن ننفيه، فاللفظ مستمد من علم الله ، وهو اسم لذلك (المخلوق الملعون) ويكفي أن نتعامل معه بهذا الاعتبار ، دون حاجة إلى تأصيله في العربية، أو تحليل مادته اللغوية، وإرجاعه إلى جذر اشتقاقي، فذلك كله في نظرنا تلفيق لا يفيد اللغة شيئاً مهما فسر(الإبلاس) بما ذكر من المعاني السابقة، وقد حدث للكلمة في الاستعمال العربي بعض النضج ، فجمعت، واشتق منها (الأبلسة) .

الشيطان : أمّا كلمة (شيطان)، وجمعها : شياطين فهي عربية قديمة ، وقد تكون من الأصل : شطن ، بمعنى البعد ، فالكلمة بوزن فيعال ، والنون أصلية ، وقد تكون من الأصل شيط ، شاط ، أي : احترق من الغضب ، فيكون بوزن فعلان، نحو: حيران، وهيمان، فالنون زائدة (الزينة ١٧٩ ـــ ١٨٠) .

ويُطلق على كل عاتٍ متمرّد من الجن والإنس والدواب : شيطان ، ويقول العرب لكل منفرد بقوته وجلده ، قوي مستقل بنفسه ، منهمك في أمره : شيطان ، قال جرير :

أيام يدعونني الشيطان من غزلي وكنّ يهوينني إذ كنت شيطاناً

أي : إنّ النساء يدعونه (شيطاناً) لتفرده بأفعال الشبان من الغزل وغيره .

ويطلق اسم (شيطان) على الحيّة خفيفة الجسم قبيحة المنظر، وهو أحد وجهي التفسير في قوله تعالى: {**طلعها كأنّه رؤوس الشياطين**}(الصافات : ٦٥) انظر (الزينة / ١٨١) .

ومن صفات الشيطان :(المارد) ، وهو في قوله تعالى : { **وحفظاً من كل شيطان مارد** } (الصافات : ٧) ، وهو خارج عن الطاعة ، ومنه أيضاً قوله تعالى : {**وإن يدعون إلاّ شيطاناً مريداً لعنه الله**} (النساء : ١١٧ــ١١٨)

ومن صفاته (الرجيم) في قوله تعالى: {**فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم**} (النحل: ٩٨)، والرجيم هو المرجوم ، كاللعين أي : (الملعون) ، وهو أيضاً كذلك بمقتضى الخطاب الأول إليه: {**وإنّ عليك لعنتي إلى يوم الدين**} (ص : ٧٨).

ومن صفات الشيطان (الغول)، وهو ساحر الجن، وكذلك (السعلاة) وهي أخبث من الغول وأعظمها سحراً .

ومن صفاته: (الوسواس الخناس)، والوسواس هو الذي يلقي بوسوسته في القلوب، حتى يختبل الإنسان ، والخناس هو الذي يهرب عند ذكر الله سبحانه .

ومن صفاته (الغَرور) لم يوصف بذلك غير الشيطان، وهو وصف على فعول، مثل : ظلوم وحقود ونؤوم ــ صفات مبالغة، وقد يفسر (الطيف) أو (الطائف) بأنّ المقصود به الشيطان، وكذلك (الخيال)، ويذكر صاحب الزينة أنّ من الشياطين جنساً يُقال له :

(الخُبّل)وهم الذين يخبّلون الناس ويؤذونهم،وقد يدفعونهم إلى الجنون، يقال: رجل مخبّل: إذا كان به مس من الجن، والخبال هو الجنون واختلاط العقل.

ومن أسماء الشيطان أيضاً (الطاغوت) ، وهو وارد في قوله تعالى : **{ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت}**(البقرة : ٢٥٧).

ومن أجناس الشياطين : العفريت ، وجمعه : عفاريت ، [أقول : العفاريت من الجنّ، والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر] وهو وارد في القرآن : **{قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك}** (النمل: ٣٩)، والعفريت من كل شيء : (المبالغ، ويقال: عِفْرِيَة نِفرِية ، وعُفارية. وهو الموثق الخلق الشديد المصحح. (الزينة /١٩١).

ولم يذكر صاحب الزينة من صفات الشيطان: (القرين)، وجمعه قرناء وقد وردت الكلمتان في آي القرآن ، الأولى في قوله تعالى : **{ ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نُقيّض له شيطاناً فهو له قرين }** (الزخرف : ٣٦) ، والثانية في قوله تعالى: **{وقيّضنا لهم قُرناء فزيّنوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم}**(فصلت: ٢٥) كما ورد ذكر (القرين) في سورة (ق) ، في الآيتين : **{ وقال قرينه هذا ما لديّ عتيد }** (ق : ٢٣) وقوله :**{ قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد }** (ق : ٢٧) .

وورد ذكر القرين أيضاً في سورة النساء ، في قوله تعالى : **{ ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً }** (النساء : ٣٨) .

وواضح أنّ وظيفة القرين بمقتضى الآيات شرّ كل الشر ، غير أنّ أثر وجود القرين انحصر في الغفلة عن ذكر الله ، أو محاولة الإغفال ، والمشاغلة بالدنيا ، والعكوف عليها ، دون تجاوز ذلك إلى اختصاص الشيطان الأكبر (إبليس)

الذي يحرص على أن يحقق من وراء إغوائه الشرك بالله ، فهو يترك أسباب الشرك من المعاصي ، ومقدماته من الآثام ـــ لمساعديه من شياطين الجن والإنس ، حتى إذا شارف الإنسان حدود الشرك تحرك الملعون بصوته وخيله ورجله ليتم مهمته الكبرى ويشهد انتصار وعيده ، وتفوق الغواية على الهداية

وجاء في الآثار ذكر شيطان اسمه (خترب)، فذلك في حديث مرفوع عن ابن مسعود : أن للشيطان لمعة للإيعاد بالشر ، والتكذيب بالحق ، والقنوط من الخير ، ويبدو أنّ هذا الشيطان متخصص في الحيلولة بين المؤمن وصلاته . (زاد المعاد ٢/٣٩)

[أقول: هذا كلام غير مسند، لذلك لا عبرة به، وهو هنا من قبيل الحشو]

إبليس في القرآن

وقد ورد ذكر إبليس في القرآن إحدى عشرة مرة ، منها عشر مرات في مكة ، ومرة واحدة في المدينة في سورة البقرة .

[أقول : لا يمكن الجزم بأنّ آية البقرة تلك نزلت في المدينة].

ويُلاحظ أنّ مواضع ذكره لم تتجاوز قصة آدم في تسع مرات ، وجاء ذكره مرتين في غير القصة، إحداهما في سورة الشعراء ، في سياق يتحدث عن المشركين، ممن اتخذوا من دون الله آلهه، قال :{**فكُبكِبُوا فيها هم والغاوون * وجنود إبليس أجمعون**} (الشعراء :٩٤-٩٥)، وموضوع الآية جنود إبليس، لا إبليس ذاته، وإن كان إمام أهل النار، والأخرى في سورة سبأ، في سياق يتحدث عن موقفهم من دعوة الله، فأرسل الله عليهم سيل العرم، وسجّل ذلك عليهم فقال:{**ولقد صدق عليهم إبليس ظنّه فاتّبعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين**}

(سبأ : ٢٠)، وواضح أنّ الواقعة تشهد بأنّ إبليس ماثل بشخصه في الموقف ، فقد حقق وعيده حين قعد لبني آدم على طريق الإسلام : {**لأقعدنّ لهم صراطك**} فدفعهم إلى اتخاذ الشركاء ، وأضلّهم فكانوا من الغاوين .

فإذا لاحظنا أنّ إبليس لم يُذكر في وحي المدينة سوى مرة واحدة، في سورة البقرة ــ وأنّ أكثر ما ذكر كان في الفترة المكيّة، وفي قصة آدم وحدها ــ أدركنا أنّ اسم (إبليس) ليس علماً على جنس من المخلوقات الخفية ..بل هو اسم ذات تفرّدت بقيادة الخلق إلى الشرك، وهو الذي مثل الدور الأكبر في قصة بداية العهد الإنساني، وقد كان لذكره في مكة مناسبة ضروريّة، حيث كثر أولياؤه من كفار مكة، وعتاة الجاهليين ، فكان التركيز عليه لإبراز دوره والتنفير منه .

[أقول : لا دليل مع الدكتور هنا، فأغلب الظنّ أنّه لم تنــزل آية واحدة في المدينة يُذكر فيها إبليس].

فأمّا في المدينة فقد برزت على الساحة أحداث أخرى، حين كثر أنصار الحق وقامت دولته، وصرحت المواجهة بين جند الله، وأعدائه ، فناسب أن يقوم بمهمته معه ذريته من كبار الشياطين وصغارهم، وهم الذين تمّ التعريف بهم وبشرورهم في كثير من آيات الوحي المكّي والمدني على سواء .

وقد أشار القرآن إلى أنّ لإبليس ذريّة، فقال :{ **أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو**} (الكهف :٥٠) . ولا ندري كيف تكاثرت الشياطين من ذرية إبليس.. اللهم إلاّ إذا أخذنا بما ذكره صاحب المستطرف من أن إبليس (لا يلد ، بل يلقح كالطير ويبيض ويفرخ ، قيل: إنه يخرج من كل بيضة

ستون ألف شيطان) (المستطرف / ٤٠٢) ، فإذا استبعدنا هذا من قياس التكاثر بين الشياطين على غرار تكاثر الطيور والحشرات، فقد نتصور أنّ طبيعة إبليس النارية تقبل التكاثر بما يشبه الانقسام، فيحدث عند احتدام حقده تولّد الشرر ، فيكون من كل شرارة شيطان وليد ، يكبر برعاية أبيه ، ويبقى معه إلى أجله المسمى .

[أقول : هذه أوهام وسفسطات ما كان للدكتور إيرادها في كتاب قُصد به أن يكون كتاب علم، وكان يكفيه القول : إنّ الله تعالى لم يُطلعنا على طريقة تكاثر الشياطين ، لأنّ ذلك لا يعنينا في شيء].

وبذلك يبرز دور الشياطين إلى جانب دور (إبليس) زعيمهم الأكبر، وأبيهم اللعين، ليتولوا إضلال المؤمنين عن طريق الاستقامة، ودفعهم إلى المعاصي، من الكبائر والصغائر، فمن الواضح إذاً أن كلمة (إبليس علم أطلق على ذلك الشيطان الأكبر دون ذريته من الشياطين والمردة، ولهذا لم يتسمّى باسمه أحد غيره، فلم يرد في الاستعمال (إبليس الإنس) ، كما ورد (شياطين الإنس)، وهم الذين نفخ إبليس في قلوبهم فصاروا له جنداً.

وربما نستطيع أن نتصور واقع العمل بين إبليس وذريته وجنوده من الشياطين، في ضوء دلالة النصوص القرآنية بحيث يتولى إبليس محاربة بني آدم ليصدّهم عن الإسلام، ويغرقهم في الشرك، وفي كل ما يؤدي إليه من قول أو عمل، وتلك مهمة رهيبة تتصل بالمبادئ والعقائد والأديان، على أن يتولى بقية الشياطين مهمات دون ذلك، في مجال الرذيلة والشر ..كل حسب اقتداره على الإغواء والإضلال، وإشاعة الفساد، فمنهم الذكي والغبي، والنابه والكسول،

ولسوف نزيد الصورة وضوحاً عند استعراض النصوص الواردة بشأن (الشيطان) على أنّ (إبليس) وصف في القرآن بأنه (شيطان) وهو ما يشي به .. مثلاً .. قوله تعالى في سورة العنكبوت : {**وعاداً وثمود وقد تبيّن لكم من مساكنهم وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل وكانوا مستبصرين**} (العنكبوت :٣٨) فهذه المهمة الضخمة، المتمثّلة في صرف هؤلاء الكفرة عن الإيمان، وصدّهم عن التوحيد ــ هي مهمة هائلة لا يقدر عليها سوى (إبليس) ذاته، الذي وصف بأنّه (الشيطان) ــ هكذا معرفاً (بأل) العهدية ، أي : الشيطان الذي تعرفون ، وتذكرون قصّته ووعيده ، والموقف هنا مع عاد وثمود الذين عاشوا في الفترة ما بين نوح وإبراهيم .

وأوضح من ذلك دلالة على أنّ المراد (بالشيطان) هو (إبليس) قوله تعالى في سورة (يس): {**ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألاّ تعبدوا الشيطان إنّه لكم عدوّ مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم**} (يس : ٦٠-٦١) ، إنّنا نستطيع أن نطّردها قاعدة في كل شيطان معرف (بأل)، فهو (إبليس) ويعتمد في ذلك أيضاً على دلالة السياق، فأمّا إذا جاء اللفظ منكراً فإننا نرجح أن يكون المراد به واحداً ، فالمراد به واحد من جنس الشياطين .

الشيطان في القرآن

ورد ذكر الشيطان في القرآن مفرداً، وجمعاً في سياقات توحي باختلاف المعنى المقصود منه، وقد جاء مفرداً في التنــزيل المكّي ثلاثاً وثلاثين مرة ، وجاء مفرداً في التنــزيل المدني ثمانية وعشرين مرة .

أمّا وروده جمعاً ــ فقد جاء في التنــزيل المكّي خمس عشرة مرة ، وفي

التنـــزيل المدني ثلاث مرات .

ولقد نستطيع أن نميِّز بعض وجوه المعنى المراد من خلال ملاحظة ورود الكلمة معرفة أو منكرة ـــ كما سبق أن قلنا ، فإذا جاء معرّفاً: (الشيطان) فهو (إبليس)، وإذا جاء منكّراً (شيطان) فهو واحد من جنس الشياطين (من ذرية إبليس) ، وقد جاء اللفظ منكّراً فعلاً في خمسة مواضع هي على التوالي بحسب النـــزول :

السورة السابعة (التكوير): {**وما هو بقول شيطان رجيم**}(آية ٢٥ ـــ مكية)

السورة الرابعة والخمسون(الحجر): {**وحفظناها من كل شيطان رجيم**} ـــ آية ١٧ـــ مكية.

السورة السادسة والخمسون(الصافات): {**وحفظاً من كل شيطان مارد**} ـــ آية ٧ ـــ مكية .

السورة الثانية والستون(الزخرف) :{**ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً**} ـــ آية ٣٦ ـــ مكية .

السورة الثالثة والتسعون (النساء) :{**وإن يدعون إلاّ شيطاناً مريداً**} ـــ آية ١١٧ ـــ مدنية .

ويُلاحظ أولاً : أنّ الآية في سورة التكوير هي أولى الآيات التي تعرّضت لذكر الشيطان في القرآن، فجاءت به منكراً، وقد كانت العرب تعرف (الشيطان)، وتراه في أطياف الشعراء، فجاء القرآن لينفي أن تكون آياته كأبيات الشعر من طائف الشيطان الذي عرفوه : { **وما هو بقول شيطان رجيم** }.

ونحسب أنّ وصف الشيطان هنا بأنّه (رجيم) هو جديد في هذه البداية، لتعريف المخاطبين بأنّ شأن الشيطان أن يُرجم بالحجارة، وهو ما لم يعرفه أهل الجاهليّة ، وكأنّه يقول لهم إنّ ما يمليه الشيطان على عقل الشاعر لا يحمل هداية ولا يدعو إلى خير ، فهو عكس ما يتلوه عليكم محمد صلّى الله عليه وسلّم :{**إن هو إلاّ ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم**} (التكوير: ٢٧-٢٨) وقد صمت الوحي بعد ذلك عن ذكر الشيطان ــ منكراً ومعرفاً ــ طيلة ثلاثين سورة ــ حتى جاء ذكر (إبليس) في سورة (ص) لأول مرة، وعرض ذكر (الشيطان) مفرداً بعيداً عن قصة آدم أي: في إطار مستقل وهو في قوله تعالى:{**وأيوب إذ نادى ربه أنّي مسّني الشيطان بنصب وعذاب**} (ص:٤١)، وجاء ذكره جمعاً في قوله تعالى: {**والشياطين كل بناء وغوّاص**} (ص:٣٧)، والآيتان تتحدثان عن أمور تتصل بقصتي نبيين كريمين .. أحدهما : أيوب، الذي دعا ربه أن يخلّصه من وساوس الشيطان أثناء مرضه وابتلائه، والثاني : سليمان الذي سخر الله له الجنّ والشياطين في أمور تتصل بما وهبه الله من ملك لم يوهب لأحد بعده، وحين تأتي قصة آدم في آخر سورة (ص) يذكر (إبليس) لأول مرة [أقول : هذا تحكُّم ، إذ لا دليل على أنّ ذكر إبليس هنا كان لأول مرة ، وقد سبق أن قلت : إنّ ترتيب سور القرآن بحسب النــزول أمرٌ مُختَلَفٌ فيه، لذلك لا يصحّ الاستدلال به] وكأنّه لا علاقة له بالشيطان فلكل منهما مجاله، ولكن الوحي ينــزل بعد ذلك مباشرة بسورة الأعراف (التاسعة والثلاثين)، فيجمع بين إبليس والشيطان في قصة آدم ، ويطابق بينهما، ولو أننا قرأنا الآيات حتى قوله تعالى:{**فوسوس لهما الشيطان**} لشعرنا أنّ كلمة

(الشيطان) في هذا السياق تأتي في موقع الوصف، أي: ذلك الشرير المجرم وملحظ الوصفيّة هنا أظهر من ملحظ الإسميّة .

ولّما كان كلّ من إبليس والشيطان منتمين إلى خليقة الجن ، فقد نزلت في سورة الأعراف آية تذكر (الجن) هي قوله تعالى : {**ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجن والإنس**} (الأعراف :١٧٩)، وجاء بعدها مباشرة سورة الجن (الأربعون نزولاً) لإكمال الصورة بكل مكوناتها، وليتعرّف أهل القرآن على أجزاء ذلك العالم الخفي .. ذلك العالم الذي وصف في سورة الأعراف بأنّ له (قبيلاً) فقال: { **إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون**} (الأعراف:٢٧)، وبذلك اكتمل التعريف بعالم الجن ــ عالم الخفاء .

[أقول : لم يأت الدكتور عبد الصبور هنا على ذكر الجنّ الآخرين، الذين هم ليسو من ذرّية إبليس، الذي وصفه الله تعالى بقوله :{ **وكان من الجن** } و"من" هنا للتبعيض، بما يُفهم منه وجود جنّ آخرين، وقد جاء في القرآن أنّ من ذريّتهم جناً مسلمين، وآخرين كافرين].

ولقد تدلنا الآيات الخمس السابقة التي تذكر الشيطان ــ منكراً على الصفات اللصيقة لشخصه، وهي أنّه رجيم مارد مريد، وكأن هذا هو الحد الأدنى لما يذمّ به أيّ شيطان ، فأمّا أكثر الصفات فقد ذكرتها الآيات التي ورد فيها ذكر(الشيطان) معرفاً بأداة التعريف، أو مقترناً بصفات تزيد صورته جلاءً وقبحاً .

غير أنّنا نقرر هنا أن متابعتنا للآيات الكريمة في ستة وخمسين موضعاً

أكدت لنا أنّ المراد بالشيطان معرّفاً ـــ في أكثرها ـــ هو إبليس ، وقد أثبتت له النصوص الصفات التالية :

ـــ فهو موسوس فتـــّان عدو مبين يسلخ الإنسان من آيات ربه ، ويزيده تعرية (الأعراف)

ـــ وهو عدو مبين متأله يريد من بني آدم أن يعبدوه . (يس) .

ـــ وهو نذل يخذل من يصادقه، ولا تؤمن موالاته. (الفرقان / مريم).

ـــ وهو يدفع حزبه إلى سعير جهنّم . (فاطر) .

ـــ وهو كذّاب مخادع فاجر لا يخجل من كذبه . (طه) .

ـــ وهو يزيّن الأعمال القبيحة لتبدو جميلة، حتى يضل الأفراد والأمم. (العنكبوت / النمل / النحل) .

ـــ وهو يدفع إلى الجريمة والقتل بحكم عدائه للقاتل والمقتول. (القصص)

ـــ وهو كفور بنعمة ربه،لا يملك تحقيق ما يعد به، سوى الغرور. (الإسراء).

ـــ وهو يدفع الناس ليكيد بعضهم لبعض ، حتى الإخوة . (يوسف)

ـــ وهو يلقي بالغفلة على العقول لتنسى ذكر الله. (يوسف / الكهف).

ـــ وهو يقسّي القلوب ، ويغشي على العقول، ويضل عن ذكر الله عند الأكل. (الأنعام) .

ـ وهو يقود الأبناء على آثار آبائهم من أهل النار . (لقمان) .

ـ وهو يحتل فراغ النّفوس، وينـــزغ بوسوسته في العقول. (فصلت) .

ـ وهو يصدّ عن توحيد الله . (الزخرف) .

ـ وهو منافق وقح ، يعد ثم يخلف في تبجح . (إبراهيم) .

ـ وهو يعد بالفقر، ويأمر بالفحشاء والمنكر، ويتخبط بني آدم. (البقرة / النّور).

ـ وهو وراء ظاهرة الهرب من الميدان ،وهو يزرع الخوف في نفوس أوليائه.(آل عمران) .

ـ وهو وراء الموبقات كالخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، ليثير العداوة بين النّاس . (المائدة) .

ـ وهو قرين السوء، بعيد الإضلال، ضعيف الكيد، لا يعصم من اتباعه إلا فضل الله . (النّساء) .

ـ ولايته الخسران ، ووعده غرور . (ق) .

ـ وهو فتنة لمرضى القلوب قساها . (الحج) .

ـ وهو قائد المرتدين على أدبارهم، يسول لهم ارتدادهم . (س.محمد)

ـ وهو يوقع الإنسان في الكفر ثم يتخلّى عنه ويتبرّأ منه بدعوى الخوف من الله.(الحشر).

ـ وهو وراء التناجي بالإثم والعدوان والمعاصي، ووراء خسارة حزبه (المجادلة) .

فهذا عن صفات (الشيطان) في القرآن، سواء أريد به (إبليس) بذاته، أم كان المقصود جنديّاً من جنوده، أو شرارة من ذريته، وهي كما رأينا صفات تغطي حياة بني آدم، في كل أحوالهم .. الدنيويّة والأخروية .. وقد رجحنا أن يكون المراد بالشيطان في هذه النصوص (إبليس) ما دام اللفظ معرّفاً .

فأمّا عن ورود اللفظ مجموعاً: (شياطين) فإن الصورة تختلف، لأنّ النشاط

الشيطاني سوف يستخدم جماعات كثيرة في تنفيذ مخططاته على مستوى جماعي. ويمكن أن نميّز في استعمال الكلمة ما بين معرّف بأل ـ ومعرف بالإضافة. ونبادر إلى تسجيل ملاحظة هي أنّ استعمال الكلمة مجموعة جاء في الوحي المكّي في خمسة عشر موضعاً ، وجاء في الوحي المدني في ثلاثة مواضع .

فالشياطين في المرحلة المكيّة :

ـ أولياء للذين لا يؤمنون . (الأعراف) .

ـ وهم محشورون يوم القيامة مع المكذبين . (مريم) .

ـ وهم يدفعون الكافرين إلى المعاصي. (مريم) .

ـ وهم يتنــزّلون على الكذابين، لأن أكثرهم كاذبون. (الشعراء) .

ـ وهم يحاولون أن يستهووا المهتدين . (الأنعام) .

ـ ومنهم شياطين من الإنس، كما أن منهم شياطين من الجن.(الأنعام)

ـ وهم وراء الجدل في شريعة الله . (الأنعام) .

ـ وهم إخوان المبذرين . (الإسراء) .

ـ ولهم همزات ينبغي الاستعاذة بالله منها . (المؤمنون) .

ـ وقد أعد الله لهم رجوماً في الدنيا من نجوم السماء . (الملك) .

وفي المرحلة المدنيّة :

ـ وهم وراء ظاهرة النّفاق في مجتمع المدينة . (البقرة) .

ـ وهم كذلك وراء انتشــار ظاهرة السحر الذي لا يعرفــه [ويعمل به] إلاّ كافر. (البقرة) .

ولا مجال لنتصوّر انحسار نشاطهم في المدينة، فإنّ ما جاء في القرآن صادق

الدلالة على ما يراد به، في كل مكان وفي كل زمان، غير أنّ للصورتين اللتين سجلهما الوحي عن النشاط الشيطاني في المدينة لم يكن لهما مكان في مكة، وإنّما انتشرتا في المدينة، وهما النفاق والسحر وكلاهما بسبب من الكفر.. بل هما أشد ألوان الكفر، وما زالت المجتمعات الإسلاميّة تعجّ بمواكب المنافقين وأحزابهم وطوائفهم، وما زالت دولة السحر قائمة، حتى في معاقل الكبار ومضاجعهم .. تساندهم جماعات من المتاجرين بالدين والشعوذة، أو من الأغبياء، أدعياء العلم بالدين، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله، وهؤلاء هم (شياطين الإنس) الذين عادوا الأنبياء،كما قال سبحانه:{**وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً شياطين الإنس والجن**}..

وحين يتقمَّص (الإنسان) وظيفة الشيطان، فإنّه يكون أخبث طينة ، وأبشع كيداً، وأعظم إفساداً من الجن وشياطينهم، وقد شهد عصرنا أجيالاً من هؤلاء الشياطين .. في شكل مفكّرين، وساسة، وحكام، وأذناب، وطواغيت و(هلافيت) ـــ إن صحّ التعبير ـ وقد جمعوا في ذواتهم صفات الشيطان الجني، وأضافوا إليها أخبث صفات الإنس ، فكانوا مزيجاً من الشرور المرئيّة، وغير المرئيّة .

كما شهد عصرنا من فنون هؤلاء الشياطين أهوالاً تزيف صورة الحق فإذا هو باطل يخدع العقول، ويفني الأعمار في متابعته والتعلق به ..نعم ؛ شهد عصرنا ذلك الصراع من أجل احتلال الفضاء ، وشحنه بالموبقات ، ونشر الفجور بكل وسائل الإغراء والاستدراج، تحت شعارات ظاهرها فيه الرّحمة، وباطنها من قبله العذاب، وهي شعارات (مصالح الجماهير) و (خدمة الشعب)

و (عولمة الثقافة)، وغير ذلك من دعاوي الباطل ، ولغات (شياطين الإنس)، والمضمون الوحيد هو الجنس، والجنس وحده ، حتى يذهل الإنسان عن غايته ، ويفقد اتصاله بهدفه ، ويبقى مجرد متفرج أبله على ألعاب الشياطين .

أمّا التقدم ، والحضارة ، والعدالة ، والكرامة ، والقوة ، والدين ، والنّصر على العدو ، والإعداد للمواجهة المحتومة ، فكل ذلك كلام أجوف ، لا قيمة له، ولا مضمون .. يكفي أن ننام على أهازيج السلام ، وأن نستسلم لأحلام اليقظة والمنام بعيداً عن الحركة الناشطة ، والعمل الإيجابي ، والبناء الأخلاقي .

إنّها مراقص الشيطان، ونوادي الأبالسة ، وملاعب الجِنّــة، وقنوات الاتــّصال بين أعداء الله من الشياطين الملاعين ...

ومعذرة لك يا أبي آدم .. معذرة إلى أن نلتقي بين يدي الله .

الشيخ الدكتور عبد الصبور شاهين .

[أقول : ومعذرة منّي لك أخي القارىء الكريم إن كنت قد أطلت عليك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته].

المهندس جواد موسى محمد عفانه .

الخـــلاصة (جواد عفانه):

[لا أريد البحث عن الدوافع وراء كتابة الدكتور عبد الصبور شاهين هذا الكتاب، ولا أهدافه من نشره، إذ لكل مسلم ـــ عنده علم ـــ الحق في الاجتهاد في أيّة مسالة يريد، شريطة الابتعاد عن مورد النص، الذي لا يصحّ الاجتهاد فيه، لعدم قابليّته للاجتهاد أصلاً، ولأنّه يحمل معنى واحداً فقط ، يفهمه مباشرة كلّ من يتقن اللسان العربي .

وقد اجتهد الدكتور شاهين هنا في مورد النصّ، فأخطأ في ولوجه هذا الباب، وكان خطؤه أكبر عند محاولته إثبات ما لا يمكن إثباته ، واستدلاله بأدلّة واهية، بحيث جاءت النتيجة بعكس ما أراد، وقد تمحورت أخطاؤه حول النقاط التالية :

١- اختياره لمسألة لا مجال للاجتهاد فيها، فخلق آدم نزلت فيه آيات محكمات، يُفهم منها جميعاً معنى واحد فقط، فهي موارد نصوص، وهو بذلك قد خالف أهم قواعد الاجتهاد التي تقول : " لا اجتهاد في مورد النص".

٢- عدّه علم الأحافير علماً مستقراً (بعد تقريره أنّه لم يستقرّ بعد) له نتائج نهائيّة حقيقيّة، واستناده إلى ذلك، ثمّ مقارنتة بين القرآن ـــ قطعي الثبوت والدلالة ـــ وتقديرات، بل تخمينات علماء الطبيعة والأحافير، مع أنّه قد ذكر في غير موضع من كتابه أنّه علم لم يستقرّ بعد، وأنّ نتائجه غير نهائيّة، وهو تناقض واضح، ناهيك عمّا في ذلك من تجنّ على القرآن وأهله، والعلم والمشتغلين فيه.

٣- قول الدكتور : إنّ الله خلق مئات ألوف آدم ، كل آدم منهم فيه

نقص ما عن آدم الذي خلفه، أمر لم يقرّه علم ولا نصّ ، بل جاءت النصوص القرآنيّة بخلافه، ناهيك أنّ علماء الطبيعة الذين عثروا على جماجم وهياكل عظميّة لمخلوقات ـــ قالوا إنها عاشت على الأرض قبل ملايين السنين ـــ لم يزعم واحد منهم أنّ تلك الجماجم مماثلة لجمجمة آدم، أو لجماجم البشر الذين عاشوا قبل ثلاثين ألف سنة مثلاً، وكل ما قالوه أنّها تشبهها، فالزعم أنّهم كانوا بشراً لا دليل عليه .

٤- معلوم أنّ الله تعالى لا يخلق شيئاً إلاّ لحكمة، فما الحكمة التي استخلصها الدكتور من خلق آدم على مراحل ؟! وما معنى اختصاصه بالخلق المتطوّر وجعل جنسه يتحسّن جيلاً بعد جيل عبر ملايين السنين من دون خلق الله جميعاً ؟! وقد أخبرنا الله تعالى أنهّ أحسن كلّ شيء خلقه .

٥- معلوم أنّ الله تعالى قد خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام (ستّة آلاف سنة مّما نعد) وأنّ خلق السماوات أكبر من خلق الناس ، بنصّ القرآن القطعي، والدكتور يريد من المسلمين العقلاء قبول دعواه أنّ خلق آدم وتسويته ونفخ الروح فيه قد استغرق عشرة ملايين سنة، فإذا لم يكن هذا ضرباً من الجنون وإلاّ فماذا يكون ؟!

٦- لقد فشل الدكتور في التفريق بين البشر والإنسان، على الرغم من لجوئه إلى استحداث مصطلحات جديدة لا أصل لها، وتغييره معاني بعض الآيات، واستبداله الكلمة المفردة بصيغة الجمع، دون وجه حق، ناهيك عن أسلوب الالتفات والتمويه، وتكرار بعض الجمل مرّات عديدة مثل قوله : " ملايين السنين " التي كررها عشرين مرّة ، دون أن يأتي بدليل واحد صحيح

على ما يقول، حتى وصل به الغرور أن يزعم أنّ آدم الذي خلقه الله تعالى بيديه (بنفسه) من طين ، هو أبو البشر (والبشر في زعمه هم الهمج المتوحشون الذين انقرضوا قبل آدم أبو الإنسان) وأنّ آدم أبو الإنسان ولد من أب وأم ، مناقضاً بذلك صريح القرآن الذي نصّ على آدم واحد (هو نفسه أبو البشر وأبو الإنسان) خلقه الله من سلالة من طين ثمّ قال له كن فيكون، وهو نفسه آدم الذي أسجد الله له الملائكة.

٧- حاول الدكتور إبراز إعجاز جديد في القرآن الكريم وفق زعمه، إلاّ أنّه أخطأ السبيل، فراح يدور في حلقة مفرغة، ويستدلّ بأدلّة واهية، كان من نتائجها إضعاف موقفه هو(لا موقف القرآن) حتى انطبق عليه المثل:"جاء يكحّلها فأعماها"، أمّا القرآن فمعجز كلّه، وحقّ كلّه، وهو كتاب هداية، ولا شيء فيه يتناقض مع العلم القطعي بتاتاً.

الخاتمــة (جواد):

خير ما أختم به كتابي هذا بيان قصّة خلق آدم كما أوردها القرآن الكريم، وقد رأيت قبل ذلك أن أذكّر ببعض آيات خلق الكون ، لعموم الفائدة :

قال تعالى في سورة (هود :٧):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾

وقال في (الأنبياء: ٣٠ــ ٣٣) :

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وقال في (فصّلت :٩ــ ١٢) :

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا

وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ

وقال في (النازعات ٢٧ـــ ٢٩) :

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾

وقال في (غافر:٥٧) :

لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

ويُفهم من هذه الآيات أنّ عرش الرحمن كان على الماء (لا ندري كيف)، وأنّ السماء والأرض كانتا ملتصقتين معاً (كانتا رتقاً) وأنّ الله تعالى قد فتقهما، أي فصلهما عن بعضهما بقوّة، وهو ما يمكن توفيقه مع أشهر نظريّات علماء الفلك التي تقول بوقوع انفجار كوني هائل نتج عنه هذا الكون، كما يُفهم منها أنّ الله تعالى قد خلق الأرض ومعها السماء في يومين، ثمّ أعطى الأرض شكلها البيضوي، وأرسى فيها الجبال، وأخرج منها ماءها ومرعاها

(قدّر فيها أقواهَا) في يومين، ثمّ استوى إلى السماء فقضاهن سبع سماوات في يومين (والمجموع ستّة أيام) ثمّ استوى على العرش، سبحانه، والاستوء معلوم والكيف مجهول .

فإذا ربطنا هذه الأيّام السّتة بقوله تعالى :

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾

علمنا يقيناً أنّ خلق الكون كلّه قد تمّ في ستّة أيَّام (لا ندري إن كانت من الأيَّام المشار إليها هنا ، أم لا ؟!) وأنّ الله القادر على خلق الكون في لحظة بِ "كن فيكون" لم يفعل ذلك، لحكمة هو أعلم بها، والله لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون .

ويُفهم منها أنّ السماء أصلها من دخان، أي أنّها من مواد غازيّة وأنّها سقفٌ محفوظٌ، وهو ما يُفسر قلق العلماء هذه الأيام بسبب حصول ثقب في طبقة الأوزون التي تحيط بالأرض وتحميها من الأشعّة الضارة ، وعندي أنَّ ما جاء في هذه الآيات من معلومات تكفي وزيادة لإشباع نهم الإنسان لمعرفة كيف بدأ الخلق ، ناهيك أنّها تشكّل خطوطاً عريضة للتعمُّق في دراسة هذا الكون، واكتشاف المزيد المفيد من أسراره ، والله تعالى أعلم.

خلق الإنسان ـ كما ورد في القرآن

بيّن لنا القرآن الكريم أنّ خلق جنس الإنسان تمّ بأربعة طرق من الخلق بدءاً من خلق آدم ـ عليه السلام ، دون أمٍ ولا أب ، وهي :

١- خلق الله آدمَ بيديه (بنفسه) من سلالة من طين ، ونفخ فيه من روحه .

٢- خلق الله زوجَ آدم من آدم مُباشرة (لا ندري كيف) .

٣- خلق الله نسل آدم جميعاً من سلالة من ماء مهين (ما عدا عيسى عليه السلام)

٤- خلق الله عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ من أم دون أب .

وقد أطلق القرآن على جنس الإنسان منذ خلق آدم اسم "البشر"، وعليه فكلّ أبناء آدم بشر، مثلهم مثل أبيهم آدم (أبو البشر) ويلحق بهم عيسى عليه السلام، لأنّ أمّه مريم عليها السلام من نسل آدم ، وقد حملته وولدته مثلها مثل أيِّ أم ولدت طفلاً.

قال تعالى عند ذكره خلق آدم عليه السلام : {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ} (الحجر: ٢٨، ٢٩)

وقال مُخاطباً النبيّ (الإنسان) صلّى الله عليه وسلّم : { وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ } (الأنبياء : ٣٤)

وقـــال تعـــالى في أبنـــاء آدم : { وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا } (الفرقان : ٥٤)

بما يُفهم منه أنّ كلمتي "إنسان"و "بَشر" مترادفتان ، لأنهما اسمان لُمسمّى واحد هو آدم ، وجنس بني آدم ، أي أنَّ كلّ آدمي هو بشر وهـــو إنـــسان، وعليه يبطل كل ما قيل ويُقال عن خروج آدم (أبو البشر) من قـــوم آخـــرين عاشوا قبله على الأرض ـــ أطلق عليهم اسم البشر ـــ بعد أن تطوّر وتأنسن .

أمّا أنّ الإنسان مكوَّن من عناصر التراب فنجده في قوله تعـــالى:{ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ } (الـــروم : ٢٠)، وهو مُطابق للواقع العلمي، فقد ثبت مخبريًّا أنَّ جسم الإنسان يتكوَّن من عناصر موجودة في التراب ، فالإنسان خلق من التراب وسيعود تراباً بعد موته وعدمه، ثمّ يبعثه الله من التراب(يُعيد خلقه) مرّة أخرى يوم القيامة، وهو معنى قوله تعـــالى:{ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ } (طه : ٥٥).

١ـــ خلق آدم ـــ عليه السلام.

قال الله تعالى: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ } (المؤمنون: ١٢ ، ١٣) نلاحظ هنا أنَّ الآية الأولى (رقم: ١٢) تشير إلى طريقة خلق آدم عليه السلام ،ومادّة أصله وأصـــل

نسله، وأنَّ الآية الثانية (رقم:١٣) تشير إلى طريقة خلق نسل آدم جميعاً، ويؤكّد ذلك قوله تعالى : { ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ } (السجدة :٧، ٨) فـإذا أضفنا إلى ذلك قوله تعـالى: {هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ } (الأنعام :٢) ، وقولـه: { إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ } (ص :٧١، ٧٢) وقوله تعـالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } (البقرة: ٣٠) وقولـه تعـالى : { يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ } (الحج : ٥)

وقوله تعالى : { لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } (التين : ٤)

نفهم من ذلك أنّ أول إنسان وأول بشر خلقه الله في أحسن تقويم، وبـدأ خلقَه من طين، هو آدم ـــ عليه السلام (من آية أخرى) فهو المعني بقوله تعالى: "خليفة في الأرض"، يخلف قوماً مُفسدين، و" بَشَراً من طين"، وهو من خلقـه

الله من سلالة من طين ، وقد جاءت تفاصيل تلك السلالة في الآيات المُحكمات التاليات :

١- قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ (الصافّات : ١١)

٢- وقال :{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ } (الحجر: ٢٦)

٣- وقال :{خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ } (الرحمن : ١٤) وقد أخبرنا الله تعالى في مُحكم كتابه أنّه خلق آدم بيديه (أي بنفسه تعالى، بمعنى أنّه لم يوكل خلق آدم لأحد من ملائكته) ولا يعني ذلك أنّ الله جمع تراباً وماءاً وجعل منهما طيناً ثم صنع من ذلك الطين صنماً أو تمثالاً، ثمّ أحياه، كما ورد في كتب أهل الكتاب، بل خلقه الله من سلالة من طين، دون بيان طريقة خلقه وبعد أن سوّاه قال له : "كن، فكان"، وذلك ما فهمناه من قوله تعالى : { إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ } (آل عمران : ٥٩) ، وهو معنى نفخ فيه من روحه، والله أعلم .

وعليه يبطل بشكلٍ نهائي وقاطع كلّ ما قيل ويُقال بتطوّر آدم من خليّة وحيدة نشأت من الطين (تراب وماء) قرب ينابيع المياه الدافئة منذ ملايين السنين، ثمّ تطوّرت إلى حشرة، ثمّ إلى قرد، ثمّ إلى... ثمّ إلى إنسان، خاصّة بعد اكتشاف الحمض النووي ، وثبوت استحالة تطوُّر نوع ليخرج منه نوع آخر،

ودليلنا من القرآن؛ أنّ الله تعالى لم ينفخ من روحه في آدم ويحييه من العدم ، حتى جفّفه من الماء تماماً ، فصار من صلصال كالفخّار، أي جسداً يُصَلصِلُ إذا ما صدمته بجسم صلب، وبديهيٌّ خلو الفخّار (المشوي بالنار عادة) من الماء، ناهيك أنّنا لو مزجنا التراب بالماء فلن نحصل على كائن حيّ، ومن هنا يجب فهم قوله تعالى : {وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} (الأنبياء : ٣٠) أنّه لا يوجد كائن حيّ على وجه الأرض إلاّ والماء جزء من جسمه ، وأنّه يحتاج إلى الماء ليبقى حيّاً.

ولنرجع الآن إلى خلق آدم عليه السلام، وموقف الملائكة منه عند أول سماعهم بعزم الله على خلقه من طين ليكون خليفة في الأرض ، يخلف أقواماً (مخلوقين من طين)كانوا يعيشون على الأرض قبله — لا همَّ لهم سوى الفساد في الأرض وسفك الدماء، وقد أبادهم الله قبل خلق آدم — لا خليفة لله (حاشاه تعالى أن يكون له خليفة) ، وليخلف نسله بعضهم بعضاً، فيكونوا :"خلائف في الأرض"، قال تعالى : {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} (البقرة : ٣٠)

وقال تعالى : { إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ } (ص: ٧١-٧٤).

وقد فهم الملائكة أنّ ذلك الخليفة هو البشر الذي سبق أن أخبرهم عنه الله، أنه سيخلقه من طين، وهو من سمّاه الله : "آدم" (من آية أخرى)، ولمّا كان الملائكة لا يعلمون الغيب، فأول ما خطر ببالهم ما علموه وخبروه عن تلك المخلوقات الطينية الهمجية التي كانت تعيش على الأرض قبل هذا البشر، وتعيث فيها فساداً، وسفك دماء ، فسألوا الله تعالى بعد اندهاشهم بهذا الخبر، وربطهم ربطا منطقيًّاً بين تلك الأقوام والمخلوق الجديد، وأصلهم الطيني المُشترك، لأنهم مخلوقون من مادة واحدة، قائلين :" أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك؟! إمّا لأنّهم رجوا تلك الخلافة، ولهم الحقّ في ذلك وفق تَصوُّرهم، وعلى حدِّ علمهم، وإمَّا غيرة منهم على محارم الله، وكرهاً للفساد والإفساد، ولعلمهم أنّ الله يكره الفساد وسفك الدماء بغير الحق .فأجابهم الله على الفور بقولهِ تعالى :**{إنِّي أعلم ما لا تعلمون}**، واثبت لهم ذلك بأن امتحن آدم أمامهم، مُبيّناً لهم أنّ آدم ليس كما ظنوا، قال تعالى :{ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ

أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ } (البقرة :٣١- ٣٣) . وبيَّن الله لهم أنَّ" آدم" (وجنسه) يتميَّز بميزة لا علم عندهم بها، بما نفخ الله فيه من روحه، إذ جمع الله فيه صفات تلك المخلوقات الطينيّة الهمجيّة، وصفات الملائكة، وصفات روحيّة أخرى الله يعلمها، بأن جعل في آدم (وفي نسله من بعده) القدرة على الترقّي الروحي ليصل الى مرتبة هي أعلى من مرتبة الملائكة أنفسهم (حتى أنَّ الله أمر ملائكته أن يسجدوا لآدم ، وهو في أنقى وأرفع حالاته الروحية قبل عصيانه في الجنة، بل قبل خلق زوجه منه) وجعل فيه القدرة على الهبوط الروحي لدرجة يصبح فيها أحط من أولئك الاقوام المتوحشين، بل أحط من البهائم ، حين ينـــزل الى أسفل سافلين ، فيخلد إلى الأرض كافراً ، أو مشركا بخالقه جل وعلا .

قال تعالى :{وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ } (التين :١ - ٦) وها هم الملائكة (من حملة العرش ومن حوله) عليهم السلام، يستغفرون للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتابوا عن المعاصي، من بني آدم ، آناء الليل وأطراف النهار، بإمر ربّهم ؛ قال الله تعالى :

{ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا

فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ } (غافر: ٧ -

٩). أمّا إبليس عليه لعنة الله إلى يوم الدين، فقد قال الله فيه :

{ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ } (ص : ٧٣ -٧٦) وقال الله تعالى في آية أخرى :

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ } (الكهف: ٥٠) .

وكان تكبُّر إبليس بسبب ربطه العقلي المُجرَّد(المنطقي) بين النار والطين، والله أعلم (وهنا يظهر خطأ الأخذ بالحكم العقلي مجرداً، أي دون النظر إلى الحكمة والدليل المُعتبر) لأنه خلق من نار، وخلق آدم من طين ، فكان خطؤه القاتل مقارنته بين النار والطين ، في حين كان الأولى والأصح أن يُقارن بين نفسه ونفس آدم، بعد أن نفخ الله في آدم من روحه... فكان ما كان من كفر

إبليس وتمرّده على ربّه، فأوبق نفسه في مهاوي الجحيم، بل في الدرك الأسفل من النار.

وإذا كنا لا نستطيع أن نجزم ما إذا كان خلق آدم من طين ، ثم من صلصال، قد تمَّ في مشهد واحد أم في فترات زمنية متعاقبة، وذلك لابهامه عنا، إلاَّ أننا نستطيع أن نجزم بأنَّ تسوية آدم، والنفخ من روح الله في جسده ، ومباشرة سجود الملائكة لآدم (بعد انتصابه حيّاً أمامهم) تنفيذاً لأمر الله تعالى لهم بالسجود، وفسق إبليس ، أنَّ كل تلك الأحداث وقعت في مشهد واحد لم يستغرق من الوقت طويلاً، ذلك أنَّ الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون فوراً.

أمّا إبليس فكان من الجنِّ (جنساً) ومع الملائكة (رُتبة) قبل فسقه، والجن أمّة خلقها الله تعالى قبل خلق آدم بزمن أبقاه القرآن مُبهماً، قال تعالى:{ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ} (الكهف: ٥٠).

وقال:{ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٦﴾ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ } (الحجر: ٢٧).

ولّما وضح من السياق أنَّ تمرد إبليس وفسقه وكفره، إنَّما كان في لحظة طاعة الملائكة بالسجود، بما يؤكِّد أنّ ذلك كان في مشهد واحد، لأنَّ طبيعة الفسق أنّه يحصل دفعة واحدة فلا يتجزأ ولا يتعدد ، ولا يحتاج إلى أزمان متطاولة ، ويؤكد ذلك وأنَّ تسوية آدم، ونفخ الروح فيه، وسجود الملائكة، وتمرد إبليس، وقعت جميعها في مشهد واحد ؛ استخدام حرف العطف (الفاء)

في قوله تعالى : {فسجد الملائكة} التي تدلُّ على أنّ السجود حصل دون تراخ أي على الفور.

وممّا يؤكِّد ذلك أيضاً ؛ قوله تعالى على لسان عيسى– عليه السلام – :
{ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ } (آل عمران : ٤٩).

وهي الآية التي يُفهَم منها أنَّ عملية خلق الطير كانت تتم في مشهد واحد ، على مرأى من الحاضرين، وفي زمن قصير لا يتعدى بضع دقائق ، أو بضع ساعات ، كما يُفهَم من هذه الآية أنَّ "النفخ" شيء ، و "النفخ من روح الله" شيئ آخر، وبالرجوع إلى قوله تعالى :{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ } (الزمر :٦٨) أن المراد بالنفخ: مقولة : " كن فيكون "، وأنَّ سرَّ الروح قد بقي في كلمة: " من روحي"، فالنفخة من روح الله لم ينفخها الله إلاَّ في آدم ، وفرج مريم ، فانتقل سرّ الروح بواسطة النطفة، من آدم إلى جميع نسله، لذلك كانت الحيوانات فيها حياة، ولا روح فيها ، قال تعالى :
{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً } (النساء : ١) .

٢- خلق زوج آدم (حوَّاء) من آدم

النفس الواحدة هو آدم عليه السلام، منه خلق الله جميع البشر(جنس الإنسان)، {وخلق منها زوجها} أي خلق من آدم زوج آدم (حوَّاء ـــ بحسب التوراة) التي أبهم القرآن طريقة خلقها، وأبهم اسمها، إذ لم يُفصِّل لنا القران الكريم كيف حصل ذلك الخلق، ولكننا اليوم، وبعد اكتشاف الخلق بالاستنساخ يمكننا أن نقول : ربما خلقها الله من آدم بطريق الاستنساخ ، خلقها تشبهه من كل وجه، إلاَّ أنها أنثى ـــ ذلك أنَّ أخذ خلية واحدة من جسد آدم - لا تُرى بالعين المجردة – لا يُنقص من جسده شيئاً، بعكس ما جاء في الإسرائيليات : أنَّ الله خلقها من ضلع آدم، بما يعني أنّ آدم عليه السلام عاش ناقصاً منه ذلك الضلع (أي مُشوَّهاً)، وهو ما يتناقض مع قوله تعالى : **{لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم}** (التين : ٤). ناهيك أنَّ القرآنُ الكريمُ قد ذكر زوجَ آدم في آية أخرى بكلمة "جعل" بدلاً من "خلق"؛ قال تعالى:{هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا} (الأعراف : ١٨٩) .ونفهم من ذلك أنَّ آية "الخلق" مقصودٌ بها زوج آدم وحدها، أمَّا آية "الجعل"، فالمقصود بها زوج آدم ، وكلُّ زوجة من نسل آدم وزوجه، والله أعلم .

أمَّا قوله تعالى : **{وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً}** ففيه الدليل القاطع على أنَّ النفخة من روح الله يتوارثها الأبناء عن الآباء — أي أنها تكون في

النطفة – ذلك أنَّ القرآن لم ينص على نفخ الروح إلاَّ في جسد آدم فكان آدم، وفي فرج القديسة مريم فكان عيسى ـ عليهم السلام جميعاً.

أمّا قولـه تعـالى : :{ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ } (آل عمران : ٥٩) فيُفهَم منه أنَّ خلـق آدم وعيسى- عليهما السلام - كان بين الكاف والنون (وهو معنى النفخ، والله أعلم) فقد خلق الله عيسى من أم دون أب ، كما خلق آدم دون أب ولا أم ، مع اشتراكهما مع جميع أبناء آدم في أصلهم التـرابي – المـائي (الطـيني) ، ومعلوم أنَّ جميع أبناء آدم إنما خُلقوا من سلالة من ماء مهين (كمـا سـيأتي تفصيله لاحقاً، إن شاء الله تعالى، في آيات خلق نسل آدم جميعاً، ما عدا عيسى عليه السلام)، أمّا قوله تعـالى:{ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ } (السجدة: ٧ - ٩) فالآيـة الثانيـة جـاءت معترضة، لتبيّن لنا طريقة خلق نسل آدم من بعده ، أمّا الآية الثالثة فتتبع الأولى مباشرة ، إذ فيهما بيان طريقة خلق آدم عليه السلام وحده .

٣ ـ خلق بني آدم

بيّن لنا القرآن في قوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ } أنَّ خلق جميع أبناء آدم (وهم نسله) من سلالة من مـاء مهـين،

باستثناء عيسى عليه السلام (من آية أخرى) وفصّل ذلك في الآيات المُحكمات التاليات:

١- قال تعالى : { فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ } (الطارق:٥-٧)

٢- وقال تعالى : { هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا } (الإنسان:١ -٢). والمقصود بالإنسان هنا جميع أبناء آدم الذين خُلقوا من ماء مهين ، وقد فهمنا ذلك من الآية (رقم:١) فالإنسان في مرحلة النطفة، بل قبل إنشائه خلقاً آخر، لا ذكر له ولا قيمة ، أمّا قوله تعالى:

{ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا } (مريم:٦٧) فتلك مرحلة العدم، حيث لا يكون للإنسان وجود(يكون ميتاً) وذلك قبل مولده بسنة أو أكثر، وبعد موته بلحظة. وقال: {أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ } (القيامة : ٣٦-٣٩).

٣- وقال : {يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ} (الزمر : ٦) .

وبعد أن بيّن لنا القرآن أنّ خلقنا يمرُّ بأطوار، في قوله تعالى: {مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴿١٣﴾ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا } (نوح: ١٤). فصّل لنا تلك الأطوار بقوله تعالى : {وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ } (المؤمنون :١٢ - ١٦) ويُفهم من قوله تعالى:{**فخلقنا**}وعدم قوله "ثُمَّ خلقنا" أنّ ذلك الخلق يكون بِ"كن فيكون" فوراً ودون تراخٍ، فتعالى الله أحسن الخالقين . أمّا المقصود بقوله تعالى:{ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ} فهو خلقه على شكل إنسان سوي ، بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، وهو في أطواره السابقة .

ملحوظة :

ورد في صحيح البخاري حديث صحيح سنداً (مردود متناً) جاء فيه أنّ نفخ الروح في الجنين يكون وهو في رحم أمه، وأنّ نفخ الروح يتمّ بعد ٤٠ + ٤٠ + ٤٠ يوماً، حيث يصبح الجنين على شكل الإنسان، وأنه يكتب شقي أو

سعيد وهو في رحم أمِّه، وكل تلك من أوهام الرواة ، أما الصواب الموافق للقرآن الكريم ، والواقع العلمي اليقيني، فنجده في حديث صحيح مسلم الصحيح سنداً أيضاً، ونصه: " **إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكاً فصوَّرها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثمّ قال: يا ربِّ أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربُّك ما شاء ، ويكتب الملك، ثمَّ يقول يا ربِّ أجله ؟ فيقول ربُّك ما شاء ، ويكتب الملك ، ثمّ يقول : يا ربِّ رزقه؟ فيقضي ربُّك ما شاء ويكتب الملك ، ثمَّ يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أُمر ولا ينقص**". (صحيح مسلم:ج٤ ، ص: ٢٠٣٧)

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى ما ورد في القران الكريم بحق ذريِّة آدم ، وبيان التفسير الصحيح لقوله تعالى :{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ} (الأعراف : ١٧١ ، ١٧٢).

تُبيِّنُ هاتان الآيتان الكريمتان أنَّ الله عزَّ وجلَّ جعل ذُرِّية أبناء آدم في ظهورهم (في أصلاب آبائهم)، وتلك حقيقة علميَّة، ثمَّ أشهد الآباء على أنفسهم ، ولم يُشهد الذراري، ولا الذر، كما جاء ذلك في بعض الإسرائيليات، ذلك أنَّ خبر مسح ظهر آدم، وانتشار جميع ذريته إلى يوم القيامة

بيده، لهم وبيص...إلخ، ما هو إلاّ خبر آحاد مكذوب (من الإسرائيليات)، وكان دخول هذا الخبر في تفسير هذه الآية خطأ فاحشاً – لأنَّ الآية تتحدث عن ظهور بني آدم (بصيغة الجمع) ولا تقول : من ظهر آدم (بصيغة المُفرد) كما أنَّ إشهاد الذرِّ على أنفسهم مستحيل عقلاً وشرعاً ، لأنَّ الإنسان لا يوصف بأنه نفس، حتى يكون جسداً فيه حياة وروح ، ولا يُصبح مكلّفاً حتى يبلغ الحلم، وذلك مُنتَفٍ في الذر (وهي كلمة لا معنى لها أصلاً).

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في آيات أخر :

{ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ } (الطارق :٥- ٧)

والماء الدافق هو الماء المهين ، الذي ثبت علميًّا أنَّه يخرج من بين الصلب والترائب وهو ماء الزوج (الرجل) والزوجة، ومن اجتماع المائين تكون الذُرِّيَّة، وهو الحق والصواب، ومن هنا نفهم قوله تعالى : { وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا } (الفرقان: ٥٤)، وقوله : {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } (الحجرات : ١٣).

والذي يفهم من آية الحجرات هذه أنَّ الله تعالى خلق الناس ليتعارفوا ويتآلفوا ، لا ليتقاتلوا ويتنافروا ، وجعل أكرمهم عند الله أتقاهم ، أي

أخشاهم لله، وبديهي أنَّ من يخشى الله لا يُفسد في الأرض، بل يكون من الصالحين المُصلحين .

أي أنّ الله تعالى قد أمرنا أن نتقيه ، فلا نأت من الأعمال إلاَّ ما يُرضيه ، والله لا يرضى من عباده الكفر، ولا الفساد، وإنّما يرضى منهم الإيمان وعمل الخير والصلاح ، والمحبة في الله ، ومساعدة الآخرين بغض النظر عن العرق أو اللون أو الدين ، والحمد لله ربِّ العالمين أولاً وآخراً.

٤ ــ خلق عيسى ــ عليه السلام

خُلق عيسى ــ عليه السلام ــ خلقاً فريداً من نوعه، ذلك أنَّ الله خلقه من أم دون أب، إلاَّ أنه يشترك مع آدم - عليه السلام – الذي خلقه الله دون أب ولا أم ، في أنهما خلقا من أصل ترابي مائي (عناصر التراب والماء) كباقي البشر وبقوله تعالى : (**كن فيكون**) فآدم - عليه السلام – خلق من سلالة من طين ، وزوج آدم خلقت من آدم ، وعيسى خلق في رحم مريم عليها السلام بكلمة الله (النفخ من روح الله) ألقاها في فرجها الروح القدس ، وثلاثتهم ومعهم جميع نسل آدم خُلقوا بـ (**كن فيكون**) في إحدى أو بعض مراحل خلقهم .

قال تعالى : { وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾

قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا} (مريم : ١٦ -٢٣). وقال تعالى: { يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا } (النساء : ١٧١- ١٧٢)

وقال تعالى :{ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ } (الأنبياء : ٩١)

وقال: { وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ }

(التحريم : ١٢)

ويُفهم من هذه الآيات المُحكمات أنَّ عيسى – عليه السلام – كان بشراً إنساناً ، لا يختلف في تكوينه الجسدي والعقلي عن أيِّ إنسان آخر، وكلّ ما يميزه عن غيره من أبناء آدم طريقة خلقه الفريدة ، ومعجزاته المعروفة التي أثبت بها نبوَّته ، ليس غير.

ملحوظة : ورد في كتب بعض المسلمين، المضبوعين بالثقافة الغربيّة التفريق بين الإنسان والبشر ـــ متأثرين بالنظريات الغربية؛ كنظرية داروين وغيرها، التي تُرجع أصل جنس الإنسان إلى القرد ـــ لمجرّد عثورهم على جماجم لقرود أو مخلوقات تشبه جمجمة الإنسان ـــ عاشت على الأرض قبل ملايين السنين ـــ ، وكل ذلك مجرد تخمينات وأوهام، لا أصل لها، ولا دليل عليها، أمَّا الصواب فنجده في كتاب الله الكريم الذي { لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ }

(فصِّلت : ٤٢) صدق الله العظيم ، والحمد لله ربِّ العالمين .

المهندس جـــواد عفـــانة ـــ باحث إسلامي أردني

عمّان في ١١-٤-٢٠٠٨م

فهرس الموضوعات

الموضوع	**الصفحة**

صدر للمؤلّف حتى اليوم الكتب التالية :

١ــ الرأي الصواب في الزينة والحجاب	٢٢٢ ص
٢ــ الرأي الصواب في منسوخ الكتاب	١٨٤ ص
٣ــ الرأي الصواب في تعــدّد الأحزاب	١٤٤ ص
٤ــ اللباس الشرعي وطهــارة المجتمــع	١٧٢ ص
٥ــ القرآن ــ وأوهام القراءة المعاصرة	٥٢٥ ص
٦ــ حقيقة عذاب القبر	٣٧٥ ص
٧ــ دور السنّة في إعادة بناء الأمّــة	٣٢٢ ص
٨ــ العقيدة الإسلاميّة الأقرب إلى عقيدة الصحابة ــ كُتيِّب	١٢٠ ص
٩- ترجمة كتيِّب العقيدة **The Islamic Beliefs**	١٥٧ ص
١٠- الجديد في التجديد ــ كتيِّب	٩٦ ص
١١ــ مرتكبو الكبائر والخلود في جهنّم	١٣٥ ص
١٢ــ لا عذاب في القبر	١٧٦ ص
١٣ــ آدم الإنسان (أبو البشر)	٢١٦ ص
١٤ــ تحذير الأمّة من إساءة فهم السنّة	٤٩٩ ص
١٥ــ المعتزلة وبدعة خلق القرآن	٦٢ ص
١٦- العقيدة الإسلاميّة (ط. ٣)	٧٠ ص
١٧- حوار حول أحاديث الفتن وأشراط الساعة	٩٩ ص
١٨ــ صحيح البخاري مُخرّج الأحاديث (٣مجلّدات)	١٨٩٤ ص
١٩- صحيح صحيح البخاري	٧١٨ ص
٢٠- زُبدة إحياء علوم الدين (٤ مُجلّدات)	١٦٠٠ ص
٢١- الإسلام ــ وصياح الديك	٢٦٢ ص

تُطلب من مكتبات وسط عمّان، ومن المؤلّف ، الأردن ، عمان : ت:٠٦/٥٥١١٩٥٧

ومن دار أجيال للتسويق والنشر ــ القاهرة ــ جمهوريّة مصر العربيّة.

جــواد عفــانة

آدم الإنسان

(أبو البشر)

طبعة ثالثة مزيدة ومنقّحة

ردّ علميّ شامل على كتاب :

أبي آدم

قصة الخليقة

بين الأسطورة والحقيقة

لمؤلّفه الدكتور عبد الصبور شاهين

حقوق الطبع والتأليف محفوظة للمؤلف

طبعة ثالثة مزيدة ومنقحة

١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨م

موافقة دائرة المطبوعات والنشر
رقم الاجازة المتسلسل ٢٠٠٠/١١/١٥٤٦م

رقم التصنيف : ٢٢٨,١٢
المؤلف ومن هو في حكمه : جواد موسى محمد عفانه
عنوان الكتاب : آدم الإنسان (أبو البشر)
الموضوع الرئيسي : ١ – الواصفات الأنبياء
رقم الايداع : ٢٠٠٠/١١/٢٩٤٧م
بيانات النشر :
- تم اعداد الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

عنوان المؤلف : الأردن – عمان ص.ب : ١١١٩١/٩١٠٠٣٤ هاتف : ٥٥١١٩٥٧ / ٠٦
فاكس : ٥١٥٨٤٠٩ / ٠٠٩٦٦



دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع

وسط البلد - مجمع الفحيص التجاري

تلفاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦٥٥٨٧٧ - موبايل: ٠٠٩٦٢٧٩٥٥٢٥٤٩٤

ص. ب ٧١٢٥٧٧ عمان

E-Mail: dar_konoz@yahoo.com